

التاريخ للديوبندي والملاحكي



الأستاذ الدكتور

أحمد مختار العبادي

مستشار التاريخ والحضارة الإسلامية

مؤسسة كتاب الجامعة

بغداد - العراق

التاريخ الأيوبي والمملوكي في

تأليف
الدكتور أحمد مختار العبادي
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
٤٨٢٩٤٧٢ - الإسكندرية



مرکز تحقیقات اسلامی علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، حاولت من خلاله أن أبرز أهمية الدور السياسي والحربي والحضاري للفرس المملوك في المجتمع الإسلامي ، ومدى تأثيره في مجريات الأحداث الدولية والأقليمية في العصر الوسيط .

وقد اقتضى ذلك الرجوع إلى معرفة أصل استخدام المماليك في المجتمع الإسلامي و الأنظمة التربوية العسكرية الإسلامية التي اتبعت في أعداده وتكوينه على مر العصور الإسلامية منذ عهد السامانيين والغزنويين والخوارزميين والسلاجقة ثم الأيوبيين الذين يرجع اليهم الفضل في انتقال تلك النظم إلى مصر حيث بقيت عدة قرون زمن دولة المماليك التي تبلورت فيها خلاصة هذه الأنظمة ، وحصيلة هذه التجارب المملوكية السابقة التي سادت بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند وخراسان والعراق شرقا وبلاد المغرب والأندلس غربا . وقد عبر القلقشندي عن هذه الظاهرة بقوله :

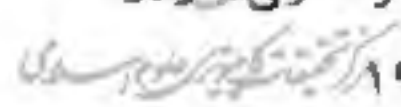
« ودأبت سلطنة المماليك في مصر على أن تنقل من كل مملكة سبقتها أحسن ما فيها ، فسلكت سبيله ، ونسجت على منواله ، حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب ، وفاق سائر الممالك » (صحيح الأعشى ج ٤ ص ٦)

وكل هذا يوضح أسباب الانتصارات التي حققها هؤلاء المماليك

فى الحروب الجهادية التى خاضوها فى جهات متعددة فى وقت واحد ضد الصليبيين غربا، والمغول شرقا، والأرمن شمالا، والنوبيين جنوبا، هذا إلى جانب الإصلاحات الإدارية والانجازات الاقتصادية والمنشآت المعمارية التى جعلتها من أبرز دول العالم قوة وازدهارا.

ولقد سبق لى أن نشرت فى هذا الصدد كتابا بعنوان « قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام » انتهيت فيه عند عصر السلطان الظاهر بيبرس، ولكننى أثرت فى هذا الكتاب أن أواصل تاريخ هذه الدولة المملوكية الأولى، وهى المعروفة بدولة المماليك البحرية، حتى نهايتها أى إلى نهاية عصر بنى قلاوون وقيام دولة المماليك الثانية وهى المعروفة بالبرجية أو الجراكسة على يد السلطان الظاهر برقوق .

والله لولى التوفيق

الاسكندرية ١٩٩٢/١١/١٧  المؤلف

إهداء

إلى ذكرى استاذي المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة

أهدى هذا الجهد المتواضع اعترافاً بفضله ،



مرکز تحقیقات اسلامی علوم اسلامی

الفصل الأول

المالِك الأتراك والصقالبة في المجتمع الإسلامي

هذا الموضوع يتناول دراسة دور المالِك في تاريخ كل من الدولة الأيوبية ، ودولة المالِك الأولى في مصر والشام . والدراسة التاريخية لمثل هذا الموضوع تحتاج الى النظرة الشاملة التي تستوعب التيارات والحركات منذ نشأتها الى وقت نضجها وتأثيرها في مجريات الحوادث . وهذا يقتضى منا معالجة أصل استخدام المالِك في المجتمع الإسلامي عامة ثم تتبع نمو نفوذهم ومراحل تطوُّرهم ومدى مشاركتهم في أعمال الحرب . الجهاد لاسيما في عصر الأيوبيين والمالِك الذي هو موضوع دراستنا لملوك عبد يباغ وبشترى غير أن التسمية اقتصرت في معظم الدول الإسلامية على فئة من الرقيق الأبيض يشتريهم الحكام من أسواق النخاسة لبيضاء لتكوين فوق عسكرية خاصة في أيام السلم وإضافتها الى الجيش العام أيام الحرب ثم صار المملوك الأداة الحرة الوحيدة في بعض الدول مثل دولة المالِك في مصر والشام .

والمالِك الأتراك والصقالبة أشهر أنواع الرقيق الأبيض في المجتمع الإسلامي وقد انتشر استخدام الأتراك في دول المشرق الإسلامي بحكم بها واتصالها بموطنهم الأصلي في أواسط آسيا . أما الرقيق من الصقالبة فقد انتشر في الغرب الإسلامي ، وكان طريقه الرئيسى هو الطريق الذى يتدنى من شرق المانيا الى ايطاليا وفرنسا ومنها الى الأندلس وجزيرة صقلية والمغرب . والمقصود بالصقالبة في الكتب العربية سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التى امتدت أرضها من بحر قزوين الى البحر الأدرياتي . ولتسهيل دراسة هذا الموضوع رأينا أن نخصص الكلام فيما يلى عن

كل فريق على حده .

المعاليك الأتراك فى المشرق الإسلامى

لاشك أن الأرقاء من الأتراك أقدم عهدا بالدولة الإسلامية من الرقيق الصقليى أذ وصل المسلمون شرقا الى بلاد تركستان وما وراء نهري سيحون وجيحون وفتحوها على يد القائد العربى قتيبة بن مسلم أواخر القرن الأول الهجرى أى القرن السابع الميلادى . وعندئذ صار للرقيق التركى مكانه ممتازة فى المجتمع الإسلامى ، لوفائهم وشجاعتهم وتعام قاماتهم وحسن صورهم وظرافة شمائلهم ، وجاء أغلب أولئك الأرقاء عن طريق الأسر فى الحروب أو عن طريق الشراء فى أيام السلم وكثير أستخدامهم غلمانا وحرسا قبل أن يعرف المسلمون شيئا عن الصقالبة وبلادهم .



ولم تلبث أقاليم ما وراء النهر (أى نهر جيحون) مثل خوارزم ، والشاش (طشقند) وأشروسنة وفرغانة ، وسمرقند ، وبخارى أن صارت مراكز هامة لتجارة الرقيق التركى بعد اعداده وتربيته تربية عسكرية إسلامية ثم تصديره الى أنحاء العالم الإسلامى .

ولقد جرت العادة أن ولاية هذه الأقاليم ، كانوا يرسلون بعض هذا الرقيق على شكل هدايا الى الخليفة أو الوزير حتى صار انقطاع ذلك النوع من الهدايا علامة من علامات الثورة أو العصيان فى الأقاليم .

وتشير المراجع الى أن هؤلاء الأتراك الذين جاءوا الى المجتمع الإسلامى الأول عن طريق الحرب أو الشراء لم يعاملوا معاملة سائر الرقيق بالخدمة فى الأعمال الحقيمة مثل كنس الدار وسياسة الدواب وما أشبه ذلك ، بل كانوا يتولون مناصب الحكم والقيادة فى الدولة ، وقد يؤيد ذلك

قول المؤرخ ابن حنبل (ت ٤٥٠ هـ) في كتابه « تفضيل الأتراك على سائر الأجناس » ولا يرضى التركي إذا خرج من وثاقة الأبرعامة جيش أو التوسم بحجابة أو الرياسة على فرقة كما أنه لا يرضى إلا بأن يساويه سيده في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبته ، ولا يسف في خدمة إلى ما يسف إليه سواه من الحاصلين في الرق والمجلوبين بالسبي ككنس الدار وسياسة الدواب وما أشبه ذلك (١) .

هذا ويبدو أن استخدام المماليك الأتراك في الوظائف الكبرى في الدولة يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول فيروى الكندي في كتابه الولاء والقضاة أن الخليفة أبا جعفر المنصور قد ولي على إمارة مصر مملوكه التركي يحيى بن داود الخرسى (١٦٢ - ١٦٤ هـ) ووصفه وصفا يعبر عن ذلك الولاء الذي يربط المملوك باستاذة ، إذا قال فيه « هو رجل يخافني ولا يخاف الله » هذا ويذكر الطبري أنه في عهد هارون الرشيد عصرت مدينة طوسوس على يد أبي سليم فرج الخادم التركي كذلك استخدم المأمون عددا من المماليك الأتراك في حرسه نذكر منهم طولون الذي أرسله إليه حاكم مدينة بخارى ضمن هدايا الرقيق التركي سنة ٢٠٠ هـ وتدرج طولون في الرقي حتى صار قائدا للحرس الخلافي العباسي وهو والد أحمد ابن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام .

ثم جاء الخليفة المعتصم وكانت أمه تركية فتوسع في استخدام المماليك الأتراك كجنود في الجيش حتى بلغ عددهم بضعة عشر ألفا وبنى لهم عاصمة جديدة في شمال بغداد وهي مدينة سر من رأى أو سامراء . وهكذا نجد المعتصم ليس أول من شكل فرقا عسكرية من الأتراك ، وإنما هو أول من توسع في استخدامهم في الدولة الإسلامية .

(١) عباس المزاري : المجلة التركية الجزء الرابع عدد ١٤ ، انقرة ١٩٤٠ .

وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ هؤلاء الأتراك بعد أن صاروا عسكراً هاماً في المجتمع والجيش الإسلامي فلما ضعف نفوذ الخلافة العباسية في الأقاليم وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم ، صار هذا العصر التركي هو عماد تلك الحركات الاستقلالية ، مثال ذلك عمرو بن الليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية بحراسان الذي دأب على شراء المماليك الصفار من الترك وجعل منهم فرقة لحرسه ، كما عكف على أهناء الكثيرين منهم لقادة دون أن يقطع رواتبهم من خزانة كي يظالموه سرّاً بأجبار هؤلاء القواد .

ولما قامت الدولة السامانية على أنقاض الدولة الصفارية سنة ٢٩٠هـ (٩٠٣م) واتخذت مدينة بخارى عاصمة لها ، حرص ملوكها ، رغم أصلهم الفارسي على جلب المماليك الأتراك ، واهتموا بتربيتهم وأعدادهم اهتماماً كبيراً حتى صار معظم جيوشهم منهم ، وقد أعطانا الوزير السلجوقي نظام الملوك الطوسي (ت ٤٨٥هـ) في كتابه سياسة نامه^(١) وصفاً دقيقاً لهذا النظام التربوي الذي وضعه السامانيون لمماليكهم ، ومن ذلك قوله :

ان ممالك السامانيين يرقون تدريجياً بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتماداً على المحسوبية أو الجاه فالمملوك عند شرائه يخدم عاماً على قدمية ، فمسير مرتدياً قياداً من القطر يسمى رنداحي^(٢) بجوار سيده الممتمطي صهوة جواده ولا يسمح للمملوك في عامة الأول من الخدمة أن يركب الخيل اطلاقاً والا عوقب أشد العقاب فأذا ما أتم عامة الأول أخبر

(١) الكتاب باللغة الفارسية وقد ترجمه شير Schefer في العربية .

(٢) رنداحي نسبة إلى بلدة رندانة Zandanah شمالي بخارى ، واشتهرت بالملايس القطبية لأن نسبت إليها

عريف الدار حاجب الحجاب بذلك فيقدم الحاجب للملوك حسانا تركيا
بعنان دون سرج ثم يمسح المملوك في لعنم الخامس من خدمة سرجا
ولجاما وسروالا من القطن المخطوط بالحرير ، بعض الأسلحة التي يخلقها
في سرج فرسه وفي العام السادس يمسح المملوك ملابس أحر من ملابس
السابقة وفي العام السابع يمسح خباء دا طب واحد وستة عشر وتبدأ كما
يمسح ثلاثة من الرقيق ليقوموا بخدمته وعنده يستحق المملوك لقب عريف
الدار ، ويضع على رأسه طاقية من الجوح الأسود الموشاة بالفضه كما
يرتدى قباء حريريا يسمى كسجويا^(١) ثم يأخذ المملوك في الرقي عاما بعد
عام وترداد حاشيته تدريجيا الى أن يصل مرتبة صاحب الحيل ثم حاجب
الحجاب ولا يأخذ المملوك لقب أمير ولا يتولى عملا كبيرا مثل القيام
على ولاية من الولايات أو فرقة من الفرق العسكرية الا بعد أن يصح ،
ومن الموضح في العادة هو سن الخامسة والثلاثين^(٢) ففي هذا السن
عهد الى المملوك الساماني البتكنين حكم ولاية حراسان فذهب اليها في
بحو الألفين والسعمائة من مماليكه الأتراك وفيهم مملوكه مسكتكين والد
السلطان محمود العربي ويقال ان مسكتكين اشترى من تركستان وأنه
حضر ذات يوم بين يدي البتكنين مع حاجبة في عدد من المماليك بسب

(١) كسجويا نسبة الى مدينة كسجة في اقليم شيروان على ساحل بحر قزوين غربا (في جمهورية

أذربيجان) واشتهرت بصناعة الأقمشة الحريرية .

(٢) يشرح الحسن بن عبد الله في كتابه آثار الأول في ترتيب الدول ص ١٦٦ أهمية ذلك

الترتيب في نشأة الممالك في الدولة السامانية في قوله : ويجب على الملك ألا يميل

على الممالك الصغار باسراكمهم في الملك ويذهبهم للأمور الجسام ، بل على التشجيع فأن

العالم على همهم القصور وربما يهرلهم الولايات الجسيمة فدهشوا ، وربما عزتهم

فبطروا فيجب الاحتياط والتأني في ذلك لئلا يضر منهم وقلة تجربتهم .

وفاة عريف من عرفاء الدار ، وصورة تعيين خلف له في تلك الوظيفة وملحقاتها من ميراث وحاشية . فوق اختيار البتكين على سبكتكين وتمجب الحاجب من قرار الأمير وأحبره أن المختار غلام حديث الشراء ولم يخدم عاما واحدا بعد ، على حين جرت العادة المتبعة أن تكون الخدمة سبع سنوات قبل الولاية على وظيفة من الوظائف ، ويقال كذلك أن البتكين ندم في قرارة نفسه على التسرع في ذلك الاختيار الخارق للنظام المتبع في تربية الممالك ، وأنه التمس لنفسه العذر على هذا التجاوز بأن الغلام أصيل عريق النسب ^(١) .

ثم شاءت الأقدار أن تطوح بالسكين والى خراسان من قبل السامانيين الى عزنة ^(٢) سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢م) في قلب جبال سليمان شمالي الهند حيث أقام بفضل ممالكة الأمراء دولة مستقلة لا شأن لها بالسامانيين الا من ناحية التبعية الاسمية وهي الدولة الغزنوية ، وتوفي السكين سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣) وآلت الأمور في تلك الدولة بعد سنوات قليلة الى زوج ابنته ومملوكة سبكتكين (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ = ٩٧٦ - ٩٩٧م) والذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية أو السكتينية ^(٣) وبلغت تلك

(١) يقال أن سبكتكين كان من ولد كسرى يرد جرد ثالث آخر ملوك الغزن الساسانيين ، وأن أهله لجأوا بعد موت يرد جرد الى تركستان ثم استقروا في سبختان واتخذوا هاك مع الترك .

راجع (Schefer : Siaset Nameh P . 140 - 141)

(٢) عزنة مدينة وولاية في طرف خراسان في أفغانستان وهي الحد بين خراسان والهند ويطلق عليها العاصمة غزن وتسمى أيضا عزنة Chazni أطر .

(٣) راجع (Lane Poole : Medieval India Under Mohammedan Rule P.65)

الدولة أوجها حتى العبي السطان محمود الغزنوي من سكتين (٣٨٨ - ٤٢١ هـ = ١٠٨٨ - ١٠٣٠ م) اسم السامانيين من الحطبة في مملكته وخطب للحليفة العباسي القادر بالله الذي أعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين الملة كما عزا بلاد الهند انتى عشرة مرة وجعل إقليم البنجاب ولاية اسلامية قاعدتها لاهور ثم اضلحت الدولة الغزنوية بعد وفاة محمود الغزنوي سنة ٤٢١ هـ بسبب ظهور السلاجقة بزعامه طغرل بك واستلاتهم على معظم ممتلكات الغزنويين فاقصرت الدولة الغزنوية على بعض الولايات الهندية الشمالية حول مدينة لاهور على أن موضع الاهتمام هنا من تاريخ الغزنويين هو أنهم اعتمدوا على الممالك الأتراك في الجيش والأدارة وشئون الحكم على عرار ما فعل السامانيون ، وأن التتاش Altuntash مملوك سكتين نفسه هو بدوره مؤسس الدولة الخوارزمية سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ^(١) واتسعت الدولة الخوارزمية سنة أسلاقتها من حيث الاعتماد الكلى على الممالك الأتراك في جميع شئون الدولة .

وفي سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) استولى العوريون بزعامه شهاب الدين العوري على لاهور فأقصت بذلك الدولة الغزنوية ، وتب الدولة الغزنوية (٥٤٣-٦١٣ هـ = ١١٤٨-١٢١٥ م) الى مكان نشأتها جبال العور وهي ولاية بين هراة وعزبة في أفغانستان واستطاع العوريون أن يوسعوا مملكتهم حتى ملكوا ما كان يملكه الغزنويون من بلاد أفغانستان والهند الشمالية فالدولة الغورية هي ثاني دولة اسلامية هندية بعد الدولة الغزنوية غير أن سلاطين هذه الدولة الغورية لم يقيموا في الهند دائما ، وإنما كانوا يقيمون في مدينة غزنة عاصمة مملكتهم وصاروا يحكمون الهند عن طريق

(١) حمل التتاش لقب خوارزمشاه واستمر حكم هذه الدولة في أسرته بعد مماته سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) راجع (Ency. Of Islam Art .Altuntash).

مماليكهم "الأتراد" . وقد أكثر السلطان محمد الغورى من شراء المماليك وعسى تربيته واعدادهم لمهمه العزووالجهاد ويؤثر عنه أنه كان كلما قصة أحد عن ضرورة الحاجة الى ابن ذكر بحافظ على ملك أسرته من حصة أجابة بأن لديه الوفا من الأبناء ألا وهم مماليكه الأتراك^(١) وقد أرتفع بعد هؤلاء اماليك الى ماصب الحكم والقيادة بذكر منهم : تاج الدين به لى الذى حكم كرمان وناصر الدين كوباشا فى السند وقطب الدين أليك فى بهى وهو أقوى الجميع نفوذا^(٢) .

بأستطاع محمد الغورى بفضل جهود مماليكه وعلى رأسهم أليك بملك جميع البلاد التى فى شمال جبال فدهياس vindhyas بالهد حتى مصب نهر الكنج ، فيعمها الاسلام وتتحول معابدها الهندوسية الى مساجد ويدفع راجاتها الجزية صاعرين^(٣)

وكان قطب الدين أليك رجلا مسلما متمسكا بشروط الاسلام ويظهر ذلك بوضوح فى عاداته الشديدة لنظام الطبقات الذى كان سائدا فى الهند ومعاملته للناس على اختلاف طبقاتهم على أساس المساواة التى ببص عليها الاسلام وينسب لأليك فى دلهى مسجد عظيم اسماء "قوة اسلام" وهو ذو منارة ارتفاعها ٢٥٠ قدما وهى تعد أطول منارة فى العالم ولا تزال قائمة الى اليوم وتعرف بأسم قطب منار وتمتاز بقوشها ورحارفها ذات الطابع العربى والهندي^(٤)

(١) (Wolseley Haig : The Cambridge History Of India Vol.III p.1-37)

(٢) أبو الفداء المختصر فى أخبار البشر ج٣ ص ٢٧

(٣) انظر ك H . Dodwell . History Of India I P . 25 ويقال إن السلطان

الشمش بموك أليك وزوج ابنة وخليفته على عرش دلهى هو الذى ببى هذه المنارة عام ١٢٣٩ - ١٢٣٢م بكريما لولى الله قطب الدين الكمكى أسى أقام فى عربة والمكت

استقر أخيرا فى دلهى حتى وفاته سنة ١٢٣٥م راجع (رحلة ابن بطوطة ج٢ ص ١٩

وفي مارس ١٢٠٦م (٦٠٣هـ) أُعْثِلَ السلطان محمد العوري على
ضخايف السند بيد أحد علاة الاسماعيلية ، وبموتة اختفت غزنة والغور
من التاريخ وظهرت مدينة ^(١) كعاصمة اسلامية لدولة سلاطين
المماليك في الهند .

ولم يعيش أيك بعد موت سيده سوى بضع سنوات اذا انتهى حكمه
كسلطان على هندستان في نوفمبر سنة ١٢١٠م (٦٠٨هـ) وذلك على
أثر سقوطه من على ظهر جواده أثناء لعبة الكرة أو السولو - جوكان - فتوفي
على الأثر (٢) . وسادت الفوضى بعد موت أيك مدة من الزمان تولى فيها
الملك ابن غير كفو يدعى أرام شاه وانتهى الأمر بأن حلقه أحد مماليك ابيه
الارزين وزوج أبنته شمس الدين التتمش بمساعدة بقية الأمراء وأستأثر
بعرش دلهي لنفسه عام ١٢١٦م .

ويعتبر التتمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاطين المماليك الذي لم
يعش أيك مدة كافية لدعم أركانها فيسبب الى هذا السلطان تأسيس
مجلس من كبار أمراء المماليك عرف بأسم « الاربعين » وكان الغرض منه
هو تدعيم سلطان المماليك في الهند ومن حساسات التتمش أنه اشتد في رد
المطالم وأنصاف المظلومين فيؤثر عنه أنه أمر أن يلس كل مظلوم ثوبا

(١) تسمى أيضا دهلِي ودَلِي (القلقشدي ص ٥ ص ٦٨ - ٦٩) ووقع في
قلب سهول نهر الكبيح في مكان أهله الطبيعة ليكون عاصمة للهند الشمالية ومن
يستعرض تاريخ الهند العام يجد أن مدينة دلهي كانت مسرحا لوقائع حربية حاسمة لأهمية
موقعها الاستراتيجي وقد رآها الرحالة الطنجي ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري (١٤م)
ووصفها بقوله . وهي المدينة العظيمة الشأن الصخنة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها
السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير ، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها
بالشرق (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٦)

(٢) انظر Ency. Of Islam art : Aibeg

• سبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض ، فكان اذا قعد للناس أو ركب رأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه ممن ظلمة (١) .

وبممتاز عصر هذا السلطان أيضا بظهور المغول وزعيمهم جنكيزخان الذى هدد العالم الأسيوى بأجمعه . وأول نذير على اقتراب هذا الخطر من الهند هو فرار بلندز حاكم عزنه بجيوشه الى داخل الهند أمام ضغط الجيوش الخوارزمية المنهزمة بدورها من الجيوش المغولية .

أنحلت هذه القوى الثلاث تنحدر جنوبا بسرعة عنيفة غابرة سلامل الجبال الشمالية الى داخل الهند غير أن هذه العاصفة سرعان ما زالت بنفس السرعة العظيمة التى جاءت بها اذ من حسن حظ الهند أن المغول اتجهت أبصارهم نحو الغرب فتراجعوا منسحبين عن الهند أما الجيوش الخوارزمية وقائدهم جلال الدين منكبرى آخر شاهات خوارزم فأبهم انسحبوا الى فارس بعد أن فشلوا فى تأسيس امارة لهم فى البنجاب .

خرج التتمش من هذه المحنة أقوى مما كان اذا أهدقت القوات المغولية والخوارزمية بقوات منافسيه فى الشمال أمثال بلندز وكوباشا وصار من السهل عليه بعد ذلك أن يستعيد جميع ممتلكات أستاذه أيلك فى شمال الهند وأن يتخلص من منافسيه (٢) .

وبلغ فوز التتمش أقصى مداه حينما أعترف به خليفة بغداد المستنصر بالله العباسي ، سلطانا على الهند ، وبعث له بالتقليد والخلع والالوية والبنود فى أوائل سنة ١٢٢٩م (٦٢٦ هـ) ، فأصبح التتمش

(١) رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ٢١ .

(٢) قتل بلندز حاكم عزنة سنة ١٢١٦م وغرق كوباشا حاكم السد أثناء فراره سنة ١٢٢٨م (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٢٢ - ١٢٣) وكذلك :

F. Pareja : Islamologia I p. 254.

دلت أول ملك في الهند تسلّم مثل هذا لتقبيد . ومنذ ذلك التاريخ ضرب السلطان . تمش بقودا نصية نقش عليها اسم الحيمة العباس بحار بضر هذا العمل شد حديدا على نصام العملة الهندية ، إذ كان الحكام المسلمون قبل ذلك يصربون بقودا معدنية صغيرة علي عرار النقود الوطنية ، نقش عليها أشكال مألوفة لدى الهنود كشور سيفاً^(١) مثلا ، كما كانت أسماء الفاتحين نكتب بحروف هندية في غالب الأحيان . والتتمش يعتبر أول من صرب بقودا نصية عربية حالصة في الهند .

وتوفي السلطان التتمش سنة ١٢٣٦ م (٦٣٤ هـ) ولم تكن هناك شخصية قوية صالحة للملك من بعده سوى شخصية ابته رضية الدين . كانت هذه السلطنة علي حظ كبير من الدكاء ، حمقت القرآن الكريم ، وألت بالكثير من التعاليم الإسلامية ولهذا فصلها أبوها علي أخوتها الذكور لانغماسهم في الملذات وبأدي بها ولاية لعهد . ولما آلت اليها السلطنة ، دلت علي مقدرة عظيمة وعقل وافر وسماها مؤرخو الهند باسم « ملكة دوران بلقيس جهان » ، أي فتة العالم^(٢) .

حلمت رضية الدين علي عرش دلهي أربع سنوات تقريبا (٦٣٤ - ٦٣٨ هـ = ١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) وقد بذلت جهدها لتظهر بمظهر الرجال ، فارتدت أزياءهم ، وحرحت أمام الناس سافرة تقود جيشها علي ظهر فيلها . وعلي الرغم من الجهود العظيمة التي بذلتها هذه الملكة في ادارة شؤون الدولة ، فقد اصطدمت في النهاية بمجلس امراء المماليك أو جماعة الأربعين ، الذين كانوا قد استأثروا بالنفوذ والثروة خصوصا بعد

(١) سيفا Siva اسم آله الهندوس ويسبوا اليه أعمال الخراب والتدمير

(٢) أنظر Blochet: Histoire des Sultans Maouks Mmlouks vol. I. p. 375

موت التتمش وتقامسوا المملكة ووظائفها فيما بينهم بعد أن قضوا على جميع الأحرار في مختلف الوظائف .

وأنف هؤلاء المماليك من رؤية امرأة على العرش ولا سيما بعد أن قربت اليها رجلاً فارسياً يدعى جمال الدين ياقوت ويشغل وظيفة قائد الفرسان ، فقاموا بثورة حاولت السلطنة رضية الدين قمعها بشجاعة ولكنها هزمت وانتهى الأمر بقتلها في ١٣ أكتوبر سنة ١٢٤٠م^(١) .

وفي هذا الوقت ظهر المغول في إقليم الهند من جديد ، واستولوا على مدينة لاهور في ديسمبر سنة ١٢٣١م وذبحوا سكانها ، وفر حاكمها قراقوش إلى دلهي ، فأصبح الموقف يستدعي ظهور شخصية قوية تقبض على رمام الحكم بيد من جديد ، وهذا مما ساعد على ظهور الأمير بليان أو بلسن أحد مماليك التتمش ، فاعترض عرش السلطنة بعد أن تحصل من السلطان القائم فيها من أبناء سيده وتلقب بعاث الدين .

وتضيف الروايات المعاصرة أن بليان كان ينحدر من أصل عريق ، وأن تحمسه للجهاد ضد الممول هو الذي جعله يرحل من تركستان منذ حداثة تاركاً أهله وأصحابه ثم حدث أن سرق وبيع في الهند ، فاشتراه السلطان التتمش وتزيد الرواية أن السلطان المذكور رفض شراء بليان في بادئ الأمر لدمايته وقصر قامته ، فصاح بليان : « يا حورب عالم » (أي يا سيد العالم) « لمن تشتري هؤلاء المماليك الآخرين ؟ فأجابه السلطان صاحكاً « اشترهم لنفسى » فرد عليه بليان : « اذا فأشترنى لله

(١) راجع Wolseley Haig Cambridge History of India III p. 60

ويلاحظ أن موقف هذه السلطنة يشبه تماماً موقف السلطنة شجر الدر التي حكمت مصر بعدها بعشر سنوات سنة ١٢٥٠م والتي أثار حكمها استياء الرأي العام الاسلامي ، وانتهى أمرها بالقتل أيضاً، راجع (المرقري السبك ج ١ ص ٣٦٨)

عز وجل ، فأجابة السلطان الى طلبة ثم سرعان ما ظهرت مواهبة فصار يتدرج في الرقى حتى أندمج في جماعة الأربعم مملوكاً^(١) .

اشتهر بلبان شخصية عسكرية صارمة عادلة وأول عمل اهتم به هو الحد من طغيان جماعة المماليك الأربعم ، فأعمل فيهم سياسة العنف والتفرقة حتى قضى على نفوذهم وسطوتهم . كذلك ضرب على أيدي المجرمين وقطاع الطرق الذين انتهزوا فرصة الاضطرابات الأخيرة وانشوا في المسالك والطرقات بين دلهي والسعال (بنجلادش) يعيشون فسادا وتخريباً فأزال بلبان الغابات التي كانت وكراً لتلك العصابات وشيد مكانها القلاع وأبراج المراقبة وبذلك استتب الأمن وعاد الاتصال بين دلهي والبنغال لفترة طويلة من الزمان .

كذلك عني بلبان باقامة ادارة للمحابرات في جميع المدن المختلفة ويشرف عليها محروون من قبله يعرفون بأصحاب الأخبار أو ملوك البريد . وكان معين هؤلاء الأشخاص يتم تحت إشراف السلطان نفسه وبناء على اختياره الشخصي وذلك نظراً لأهمية الأعمال التي يقومون بها في كافة أرجاء الدولة اذ عن طريق تقاريرهم كان السلطان يلم بأحوال كل مدينة وسياسة أولى الأمر فيها ولهذا السبب حرص بلبان على جعل سلطتهم مستقلة عن سلطة الولاة المحليين وخاضعة لسلطانه المباشر ويزوي المؤرخون كيف أن بلبان أمر باعدام أحد هؤلاء المخبرين لأنه تستر على

(١) ابن بطوطه : رحلته المعروفة بنسخة النظر جـ ٢ ص ٢٢

حدث هام وقع في المدينة المكلف بأجبارها دون أن يحظره بذلك ^(١) .
 وتجلت مواهب بلسان في انتصاره على قوات المغول التي اقتحمت
 إقليم السند عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) فاستحق بذلك لقب « القى خان »
 أى الأمير القوى وترجع انتصارات بلسان على المغول الى الاستعدادات
 العظيمة التي قام بها السلطان لدفع ذلك الخطر الداهم أد أعد محازن هائلة
 للطعام بحيث يبقى الزرع بها مدة طويلة دون أن يفسد ، ويقول ابن
 بطوطه في هذا الصدد : وقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن
 ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب وكل ذلك من احترام السلطان بلس مد تسعين شه
 هذا وقد اهتم بلسان بتحصين الثغور الهندية وتجهيز قائلها تحت قيادة ابن عمه شير خان سقر
 كما أعد جيشا قويا سريعا لصعد أى هجوم خاطف يقوم به المغول فجاءه - وذلك على حد
 قوله - حتى لا تعرض مدينة دلهي لمصير يعباد التعليل ^(٢) .

وقد بلان ابنه الأكبر الشهيد محمد خان في واقعة ضد المغول في
 إقليم الملتان ، ذلك في ٩ مارس سنة ١٢٨٥ م (٦٨٤ هـ) فحرر عليه حزا شديدا
 ومات بعده بستين ^(٣) .

(١) راجع (Walseley Haig, Op. cit. III p. 74.

وكذلك (رحلة ابن بطوطه ج ٢ ص ٢ - ٣) حيث يتكلم ابن بطوطه عن مهمة
 اصحاب الأبحار خصوصاً إنا قدم عرب على الهند ، وإنا كتب المخبرون إلى السلطان سحر
 من يصل إلى بلاده . عرفت أنه ورد رجل صورته كذا ولياسه كذا وكتبوا عدد أصحابه
 وعثمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يعادرون من
 ذلك كله شيئا ، ويضيف ابن بطوطه في نفس المص (ص ٩) : وهي مدينة ملتان قدم
 علينا ملك السريد واسمه دهان وهو سمرقندى الأصل وهو الذى يكتب للسلطان بأجبار
 تلك المدينة وما حدث بها ومن يصل إليها .

Walseley Haig: Op. cit. III p. 76

(٢) راجع :

Walseley Haig: Op. cit. III p. 82

(٣) راجع :

يعتبر السلطان بلبان من أولئك الاشخاص الذين لا يتركون وراءهم
 خلفاء أقوياء ، إذ أن صرامته وقسوته حالت دون ظهور شخصيات قوية
 بعده ، فقد قضى على جماعة المماليك الأربعين ونفى كثيرا من ذوى
 النفوذ والجاه من الحكام أو العلماء (يذكر منهم شاعره أمير خسرو) .
 وكانت كل آماله مركزة فى شخص ابنه الأكبر الذى مات فى عهده .
 ولهذا اضطربت شئون المملكة بعد مماته مما أتاح الفرصة لقيام أسرة جديدة
 هى أسرة الخالجية ^(١) التى استولت على عرش دلهى سنة ١٢٩٠م
 (٦٨٩ هـ) تحت زعامة جلال الدين فيروز شاه ، وبذلك تنهى دولة
 المماليك الأتراك فى الهند .

الصقالبة فى الغرب الاسلامي

لم يقتصر التوسع فى استغلال المماليك على الدول التى قامت فى
 الجزء الشرقى من الدولة العباسية ، بل تعداه إلى جميع الدول الاسلامية
 الأخرى بما فى ذلك المغرب والأندلس . وإذا كثرت أنواع المماليك
 الأتراك على عهد الصمانيين والسامانيين والعربيين والغوريين بالشرق ،
 فقد أضاف الأمويون بالأندلس نوعا جديدا من المماليك وهم الصقالبة
 الذين كان طريقهم الرئيسى يتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها
 إلى اسبانيا الاسلامية أو الأندلس عن طريق نهر الرون وقطالونيا حتى ثغر
 بجانة Pechina على الساحل الشرقى الاسبانى بجوار المرية .

وكلمة صقلب Esclave فرنسية قديمة ومعناها عبد أو رقيق وهى
 التسمية التى أطلقها الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى على الشعوب

(١) أسرة أجنبية نسبة إلى بلدة خالج بأفغانستان وقيل أنها تركية الأصل ثم تزحمت إلى أفغانستان
 حيث أخذت عن أهلها عاداتهم وطرقهم .

السلافية عامة ، لأن بعض الحرمان دأبوا على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها إلى عرب اسانيا ، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة . ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فاطلقوه على أرقائهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية . يذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار اسانيا في القرن الرابع الهجري أن الصقالبة كانوا يجلسون أيضا من ساحل البحر الأسود ومن لمبارديا وكلايريا في ايطاليا ، ومن قطالونيا وجليقية (غاليسيا) في شمال اسابيا ، وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغارة والأندلسيين على الشواطئ الأوربية للبحر المتوسط

وجاء أغلب الصقالبة أطفالا إلى الأندلس حيث ربوا تربية اسلامية ودرّبوا على أعمال القصر والحرس والحيش واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع القرطبي ، فصار منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة ، كما استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب الرئاسة في الدولة .

هذا ومن المعروف أن الأمويين في الأندلس استخدموا ممالئهم من الصقالبة في الإدارة والحيش للحد من نفوذ الاستقراطية العربية في الحكم وأضعاف سيطرة الجند من العرب والبربر ، ومثال ذلك تقليد عبد الرحمن الناصر لمملوكة « نجدة » الصقلية قيادة الحملة الموحدة ضد راميرو الثاني ملك ليون وحلفائه أصحاب مملكة سرة ، وهي الحملة التي انتهت بهزيمة المسلمين في وقعة شمفة Simancas عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩م . ويقال إن سبب تلك الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم إذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند شوب المعركة فأدى ذلك إلى الهزيمة وقتل القائد نجدة الصقلية ، وقرار عبد الرحمن الثالث بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة .

وفى عهد الحليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث ، قام الصقالبة بدور مشابه لدورهم على عهد والده من حيث النفوذ والعظمة . وعند وفاته طرد الصقالبة أنهم أصبحوا سادة الموقف . يذكر ابن عذارى أن جيش قرطبة كان معظمه من الصقالبة وأن قيادته كانت فى يد اثنين من كبار الصقالبة وهما فائق وجؤذر الحكمى (سبه إلى الحكم المستنصر) . وقد حاول فائق وجؤذر إحقاء خسر موت الحكم الثانى ليحولا دون الماداة يورثه للملك ، هشام ، لأنه طفل صغير ، وحاولا ترشيح شاب كامل الرجولة اسمه المعبرة من أحفاد عبد الرحمن الثالث ولكنهما وحدا من يقارنهما فى أشخاص الوزراء أمثال جعفر المصحفى ، والمنصور بن أبى عامر . وقد استطاع هذا الأخير أن يدبر اعتيال المغيرة مرشح الحرب الصقلبي ، وبذلك حلا الحول لهشام بن الحكم المستنصر الذى لقب بهشام المؤيد . واستطاع المنصور بن أبى عامر بعد ذلك أن يشتت شمل هؤلاء الصقالبة من القصر الخلافي وأن يولى صقالبة غيرهم من مماليكه عرفوا باسم المماليك أو الفتيان العامرية . وقد وصف ابن بسام فى كتابه الدخيرة أحد هؤلاء الفتيان وصفا طريفا بقوله : « وكان لا بن أبى عامر فتى يسمى فاتنا أوحد لا نظير له فى علم كلام العرب وكل ما يتعلق بالأدب ، ناظر صاعد اللغوى بين يديه فظهر عليه وبكته حتى أسكنه فازداد المنصور به عجباً » . ويصف ابن الأبار أن أحد الصقالبة واسمه حبيب الصقلبي ألف زمن الخليفة هشام المؤيد كتابا تعصب فيه لقومه وعتوانه : « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » . وهذا الكتاب مفقود للأسف وقد ذكر ابن بسام فى ذخيرته أنه أطلع على هذا الكتاب وأنه يحتوى على جملة من أشعار الصقالبة ونوادير أخبارهم .

والى جانب هذا الامتياز الأدبي احتصر الصقلية بألوان من الألحان والرقصات التى سبت اليهم فقليل اللحى الصقليى ورقص الصقلية . وقد اعطانا المؤرخ المعاصر أبو بكر الطرطوشى وصفا جميلا لهذه الرقصات يذكرنا بالرقص الاسبانى فى وقتنا الحاضر إذ يقول : « ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا ، فقالوا للحن الصقليى . فاذا قرأوا قوله تعالى « وإذا قيل أن وعد الله حق » ، يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقلية بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على ايقاع الأرجل ، ويرخفون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى ورقص الأرجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة » (١) .

على أن هذا الامتياز الأدبى والفنى لم يمنع من أن الصقلية أثناء احتصار الخلافة الأموية بالأندلس لعبوا دورا سينا بوجه عام فشاركوا فى المؤامرات التى قامت فى قرطبة وسائر البلاد ، فأحيانا براهم متصرين وأحيانا أخرى مهزمين ولكم كانوا يظهرون روح الأقدام والطموح والاستعداد وتنزعهم حيران العامرى رئيس حرب الصقلية فى العاصمة قرطبة ومن هذا الحرب تكوت الدويلات الصقلية فى شرق الأندلس : فى طرطوشة ، وألمرية ، ومرسية ، ودانية ، وبلسية فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) .

وكانت هذه الدويلات تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقلية لأن أصحابها من مماليك العامريين أى المنصور ابن أبى عامر وأبنائه . وقد أمتد سلطان هؤلاء الصقلية على الشاطئ الشرقى الأندلسى الممتد من نهر ابرو شمالا حتى نغر ألمرية جنوبا والجزائر الشرقية (البليار) شرقا .

(١) أبو بكر الطرطوشى : كتاب الحوادث والبدع ص ٧٨ (تونس ١٩٥٩)

ومن أشهر هؤلاء الصقالبة صاحب مدينة دانية مجاهد العامري
الصقلبي الذي استطاع أن يستولى على جزر البليار وعلى جزيرة سر دانية
التي اتخذها رأس جسر ليهاجم منها الأماكن التي تليها وهي السواحل
الإيطالية . وقد استطاع غزو مدينة لوني وأتخذها قاعدة حربية لمهاجمة ما
حولها من المناطق الساحلية الإيطالية . وتقع هذه المدينة بين ييزا وجنوة وقد
امتازت بمركزها التجاري الهام في هذه المنطقة . وهكذا استطاع مجاهد
العامري أن يسيطر على القسم الغربي من حوض البحر المتوسط وأن
يستعيد نفوذ الأندلسيين في هذه المناطق .

على أن استخدام الصقالبة لم يقتصر على الأندلس بل انتقل
إلى المغرب العربي حيث شاع استخدامهم بين ملوكه وحكامه منذ
القرن الثالث حتى القرن الخامس الهجري . وكانت الأندلس بحكم الجوار
مركزا لانتقال هذا الرقيق إلى دول المغرب الأقصى بصفة خاصة ،
يما كانت جزيرة صقلية الإسلامية مركزا لانتشاره في دول المغرب
الأدنى .

وحينما يحدثنا البكري عن مملكة نكور أو دولة بني صالح التي
قامت بمنطقة الريف في الشمال للمغرب الأقصى^(١) ، يشير إلى اعتماد
هذه الدولة على الممالك الصقالبة ، وأنه قد بلغ من كثرتهم أن صارت

(١) نكور مدينة متلوسة في شمال شرق المملكة المغربية وكان من أعمالها لفر المزمة الذي حرقه
الاسبان إلى الوثيماس Alhucemas ثم عربه المسلمون إلى الحسيمة الحالية التي تسمى
أيضا سان خورخو San Jurjo وهي خاضعة للمروء الأسباني . وكانت مملكة نكور دولة
عربية سنية مالكية لعبت دورا كبيرا في نشر الاسلام واللغة العربية بين بربر الريف من فملرة
وصنهاجة ، كما أنها ظلمت تيار الخوارج والشيعة ولقيت من وراء ذلك عناء كبيرا خفف
من حدة تأييد الأمويين في الأندلس لها . وعاشت هذه الدولة عصورا طويلة إلى أن افتتحها
المرايطون وخربوها سنة ٤٧٣ هـ فلم تضر بعد .

لهم قلعة خاصة بجوار العاصمة نكور تعرف بقلعة الصقالبة أو قرية الصقالبة . وقد اشتد نفوذ هؤلاء الصقالبة في عهد الملك الصالح بن سعيد للدرجة أنهم بعد وفاته (٢٦٢ هـ / ٨٧٥ م) حاولوا فرض مطالبهم على ولده سعيد بن صالح ، فدخلوا عليه يوما وسألوه العتق ، فقال لهم : « أتم جتدا وعبيدا ، وأتم كالأحرار ، لاتدخلون في المواريث ، ولا تجرى عليكم المقاسم ، فما طلبكم للعتق ؟ » فألحوا عليه في ذلك ، فأبى ، فناله منهم جفاء وغلظة ، وقدموا أخاه عبيد الله ، وعمه الرضا المكنى بأبى على ، ورحفوا بهما إلى القصر ، فحاربهم سعيد من أعلى القصر بالفتيان والنساء حتى انهزموا ، وقامت عليهم العامة فأخرجوهم إلى قرية فوق المدينة تعرف بقرية الصقالبة ، فتحصنوا بها سبعة أيام ، ثم طفر بهم سعيد بعد حرب شديدة ^(١) . وفي المغرب الأدنى اعتمد الأغالبة (١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٩ - ٩٠٩ م) على الصقالبة كذلك ، خصوصا بعد أن عزوا جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) بقيادة قاضي القيروان أسد بن الفرات ، وامتدت غارات أساطيلهم إلى سواحل دالماسيا ، وإلى كلايريا ولمارديا في جنوب إيطاليا .

ويبدو أن جزيرة صقلية قد صارت بعد ذلك محطة للسبي القادم من تلك البلاد إذ يشير ابن حوقل إلى حارة للصقالية هناك ، ويصفها كمدينة عامرة بنواحي مدينة بلرم Palermo على الساحل الشمالي لجزيرة صقلية ^(٢) .

(١) البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) راجع : ميشيل أماري : المكتبة الصقلية ، ص ١٢٠

ولعل أبلغ دليل على كثرة استخدام الصقلية هي الدولة الأعلى ،
ما رواه ابن الخطيب في وصف رحيل آخر ملوك الأغالية زيادة الله الثالث
إلى مصر عند سقوط دولته على يد الفاطميين ، يقول : « وأخذ في رفع
الأموال ونفيس الخلع ، واصطفاء الجوهر واختيار السلاح . . . ثم انتحب
من عبيده الصقلية ألف خادم ، وحمل على وسط كل واحد منهم ألف
دينار » (١) .

ثم قامت الدولة الفاطمية على أنقاض دولة الأغالية في المغرب ،
ورثت عنها أساطيلها وقواعدها البحرية سواء في المغرب أو في جزيرة
صقلية ، كما سارت على نفس سياستها في اتخاذ الممالك من الصقلية
وعيرهم إلى جانب اعتمادها على قوة أهل البلاد من الممارية . وعلى هذا
الأساس افترض المستشرق التشييكوسلوفاكي هربرك Herberk أن القائد
الفاطمي المشهور جوهر الصقلي كان صقليا من سببا سواحل دالماسيا
وليس صقليا ، واستند في ذلك إلى رواية ليون الإفريقي (الحسن الوزان)
وبعض الوثائق اللاتينية (٢) . هذا إلى جانب أن صقلية كانت في ذلك
الوقت جزيرة إسلامية ، وأهلها أهل ذمة لا يخضعون للرق ، وأن كان من
المرجح - أن صح قول هربرك - أن يكون جوهر قد استقر في صقلية -
بعد أسره - فترة من الوقت قبل دهابه إلى المغرب ، ولهذا نسب إلى
صقلية رغم كونه صقليا .

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام - القسم الثالث الخاص - بالمغرب - ص ٤٣ نشر أحمد

مختار العبادي وإبراهيم الكتاني (الدار البيضاء ١٩٦٤)

(٢) من محاضرة القاها عن « صقلية الفاطميين » في سنة ١٩٦١ بكلية الآداب بجامعة الرباط

حيث كنت أعمل وتخذ استادا بها .

ومهما يكن من شيء ، فالأمر الذى لاشك فيه هو أن العنصر
الصقلي كان فى عداد العناصر المملوكية البارزة التى اعتمدت عليها
الدولة الفاطمية^(١) سواء خلال قيامها فى المغرب كما ذكرنا آنفا ، أو بعد
انتقالها إلى مصر والشام ، كما هو مبين فى الباب التالى الخاص بممالك
مصر .



(١) من أمثلة اهتمام الفاطميين بالصقلية أنه يؤثر عن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أنه كان
يجيد لغتهم إلى جانب لغات أخرى .

الفصل الثانى

الممالك فى مصر

منذ الدولة الطولونية حتى بداية الدولة الأيوبية

(٢٤٥ - ٥٦٤ هـ = ٨٦٨ - ١١٩٣ م)

توسعت مصر فى استخدام الممالك ، قبل قيام دولتهم بها بوقت طويل . ولعل المسئول الأول عن ذلك هو الخليفة المعتصم وامعانه فى الميل إلى استخدام الترك ، إذ يروى الكندى أن المعتصم كتب إلى واليه التركى على مصر واسمه كيدر أو نصر من عند الله يأمره بإسقاط العرب من ديوان الجيش وقطع أعطياتهم^(١) فلما قطع كيدر الأعطيات خرج يحيى ابن الوزير الحروى فى جمع من الخدم وحذام وقال : « هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه متعنا حقاً وفيتنا » ، واجتمع اليه نحو من خمسمائة رجل ، فتوجه اليهم مطفر من كيدر وحاربهم عند بحيرة تيس ، وفرقهم بعد أن أسر يحيى بن الوزير ، ومنذئذ صار جند مصر وولاتها من الممالك الأتراك أو دراريهم^(٢) ، كما صار منهم جند الولايات الأخرى وولاتها ، ومن أولئك أحمد بن طولون .

ممالك الدولة الطولونية .

وكان طولون مملوكاً تركياً ممن أرسلهم حاكم بخارى نوح بن أسد الساماني فى جملة من الرقيق والهدايا للخليفة المأمون وهو بمرو سنة

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٩٣ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ١ ص ١٥٢ .

٢٠٠ هـ (٨١٥ م) . وتدرج طولون في حياة المماليك بالمجتمع العباسي حتى صار رئيس الحرس الخلفي ، وتمكن من تربية ابنه - أو متناه - أحمد تربية عسكرية اسلامية أهله لأن يصح حاكما على مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ^(١) . وطبعي أن يعتمد ابن طولون على المماليك من أبناء جنسه التركي في ولايته ، غير أنه طمع إلى شيء من الاستقلال بمصر ، ولذا أهتم فيما أهتم بالجيش على وجه خاص ^(٢) ، ولم يقنع هو وابنه خمارويه بعده بالمماليك الأتراك فحسب ، بل جعل بجيشه فرقا من العرب الأحرار ، فضلا عن فرق من الرقيق الأسود والديلم والروم ، ويجمع المؤرخون العرب على ضخامة ذلك الجيش إلى درجة اضطرت أحمد بن طولون إلى بناء ثكنات لهم وهي القطائع . والروايات العربية تقدر ذلك الجيش تقديرات لا تتدو بعيدة عن الحقيقة ، فالمقرئ يرى في حططه أن ابن طولون استكثر من يشتري المماليك الأتراك حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشتري العبيد الزرع أربعين ألفا ، كما أنه استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف حر مرتزق ^(٣) . أما ابن أبياس فإنه يقتبس من ابن واصل شاه ويقول بأن ممالك ابن طولون من الديالة فقط بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ^(٤) .

(١) الواقع أن بعض الولاة في مصر وفي غيرها كانوا من العرب في تلك المرحلة التركية من التاريخ الإسلامي مثل عنبسة بن اسحاق وهو آخر من ولي مصر من العرب سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م في عهد الخليفة المتوكل ومن بعده صارت مصر انقطاعا لطائفة من الولاة الأتراك تعاقبوا عليها دون أن يذهبوا إليها في كثير من الأحيان ، ومن هذه الأحيان كان مجيء أحمد بن طولون ليتولى مصر بالبابا عن بابكباك راجع (الكندي : ص ٢٠٢ ، البلوى : سيرة أحمد بن طولون من ٣٣ - ٤٣) .

Zaki Hasan : Les Tulumides p. 165.

(٢) أنظر .

(٣) المقرئ : الحطط ، ج ١ ص ١٥٢

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٧ والديلم القسم الجلي من جيلان شمالي بحر قزوين .

غير أنه يجب أن يكون وصحا أن كثيرا من دخل الحيوش الطولونية رقيقا ، قد تحرر فيما بعد ، ودلت يطق على الجند والقادة سواء ، إذ المعروف أن ابن طولون أعى أعدادا كبيرة من جنده لينشئ ، منهم جيشا ممتازا . ولذا يرجح أنه لم يوجد في الجيش الطولوبى ممالك كثيرة في أواخر أيام ابن طولون ، وأب عمية التحرر طت القاعدة فى أيام أسرته^(١) ممالك الاخشيديين :

وسارت الدولة الاخشيدية على سة أسلافها الطولونيين فى اتخاذ الممالك الاتراك حتى انه يقال إن ممالك محمد الأخشيد بلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك^(٢) ويبدو أن الجيش الاخشيدى اشتمل أيضا على عدد كبير من العبيد السود بدليل حلول أحدهم وهو كافور محل الاخشيد فى حكم مصر

ثم انتهت الدولة الاخشيدية بقيام الدولة الفاطمية فى مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٨ - ١١٧١ م)

ممالك الدولة الفاطمية

وإذا كثرت أنواع الممالك على عهد الطولونيين والأخشيديين ، فقد أضاف الفاطميون بمصر عنصرا جديدا جاءوا به من العرب وهو الصفالة . ويبدو أن الخلافة الفاطمية أكثر من الممالك الاتراك والصفالة منذ قيام المعز أول الخلفاء فى مصر بدليل اختيار العزيز وهو الحليفة الثانى لكثير من هؤلاء وأولئك لما صب الثقة والقيادة والولاية لأن

Zaki Hasan. Les Tulunides p. 168.

(١) راجع :

(٢) أبو الهامان بن تعرى بردى . هجوم القاهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

وصولهم إلى تلك المناصب معناه أن العزيز الفاهم قوة في الدولة بحيث صارت المناصب العليا لديهم أهدافا مشروعة . فولى مملوكه بنجوتكين التركي قيادة الجيش كما ولاه الشام ، وولى دنيا الصقلي عكا وبشارة الانشيدى طبرية ، ورباحا السيفى عزة ، وبرجوان الصقلي امارة القصر وليس أدل على أكثر الفاطميين من الصقالبة من تسمية أحد الشوارع الفاطمية في القاهرة باسمهم ، وهو الشارع الذى امتد بين حارة رويلة وخان أبو طلقية . ولقد أثار تفضيل الفاطميين للترك والصقالبة عوامل الحسد والنضال بينهم وبين المعاربة ، ويظهر ذلك جليا أثناء عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ = ٩٩٦ - ١٠٣٠ م) الذى استكثر من العبيد السود (السودان) للحد من نفوذ الفريقين . ثم قوى نفوذ الترك مرة أخرى فى عهد الخليفة الطاهر بن الحاكم لميله إلى الأتراك والمشاركة ، فصارت قيادة الجيوش فى يد أبى منصور أنوشتكين ، وهو مملوك تركى الأصل يعرف بالدربرى ^(١) ، وقد ولاه الطاهر فيما بعد دمشق سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ثم حاء الحليفة المستنصر الفاطمى فمال إلى عصر العبيد السود واستكثر من شرائهم لأن أمه كانت أمة سوداء ، وظل هذا المنصر منع القوة فى الدولة إلى آخر عهد الدولة الفاطمية .

ومن الأدلة التى ترهن استتاجا على كثرة المحاليل من الأتراك والصقالبة والسود فى الدولة الفاطمية اهتمام الداعى « ثقة الامام علم الاسلام » بشأنهم فى إحدى محاضراته التى لقاها فى مجالس الحكمة ،

(١) نسبة إلى قائد دبلى يدعى نهر بن أريم الذى اشترى بدمشق سنة ٤٠٠ هـ .

راجع : (أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٥٢) .

وافراده ، للكلام عنهم عبارة طويلة في سياق محاضراته ، ونص هذه العبارة : « انتهينا فيما شرطنا ذكره من منس الدين الى ذكر ما أمر به من الرفق بالماليك الذين كلفهم الله خدمتكم ووقاكم بكفائتهم ، لأنهم بشر لم ينحتوا من الحجر ، ولم يحرقوا من لشر فللمملوك على مالكة سبع حصال وهي أن يقوم بكفايته من المصعم والمشرب وسترجيدته من الملس ، وأن لا يحمله فوق طاقته ، ولا يكلفه من العمل أكثر من استطاعته ، ولا يضربه الا تأديبا ولا تعديبا ، ولا يلزمه ما لا يحل ، ولا يمنعه من الصلاة في أوقاتها . ويجب على المملوك لمالكه اثني عشرة حصة وهي : أن يعتقد بصيحته ، ويظهر له شفقتة ، ويحفظ ماله ، ويصون حريمه ، ويؤدي له الأمانة ولا يغشاه ، ولا يحويه ، ولا يدحرعه نفسه ، ولا يكتمه صفة يحسنها ، ويطعه ولا يخالفه ، ولا يتصرف في شيء من أمواله الا بأمره ، قال الله تعالى « وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، ومن رزقاه ما رزقا حسنا فهو يشفق منه مرأ وجهرا هلى يستون » . (١)

واهتم الفاطميون بتربية صغار مماليكهم ، وهم في الواقع أول من وضع نظاما تربويا للماليك في مصر . فيروى المقرئى أن الاساطيل الفاطمية حملت إلى مصر كثيرا من أسرى الحروب ، وجرت العادة أن يحضر أولئك الأسرى إلى مكان يسمى المناخ (٢) جهة الاسماعلية

(١) المجلس المستنصرية ، المجلس الثاني والعشرون ، ص ١٠١ - ١٠٢ ، نشر وتحقيق الدكتور

كامل حسن - سلطة المخطوطات الفاطمية

(٢) المناخ المكان الذى تناخ به الجمال ، وأطلق الفاطميون هذا الاسم على عدة من المخازن والمطابخ والمخازن المدية ، والعسكرية التابعة للدولة . وأعرب الصناع فى هذه ، الأمكنة من أسرى الحرب من الفرنج وكانوا يقطون بها راجع (المقرئى - المخطوط - ج ١ ص ٤٤٤) .

بالقاهرة اليوم) ، فتضاف الرجال إلى من فيه من الأسرى السابقين ، ويمضى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة بعدما يعطى الوزير منهم طائفة ، ويفرق الباقي لخدمة المنازل ، ثم يدفع الصغار من الأسرى إلى الأستاذين ، فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ويسمونهم « الترابى » وقد يرتقى أولئك الصبيان إلى رتب الأمراء .

وظلت تلك الطائفة موجودة أيام الدولتين الأيوبيه والمملوكية ، ويلاحظ أن أصلها أشبه ما يكون بأصل بعض الانكشارية^(١) فى الدولة العثمانية ، غير أن الترابى لم تلعب فى حوادث دول الفاطميين والأيوبيين والمماليك بمصر دورا طاهرا مثل الذى قامت به الانكشارية فى الدولة العثمانية ، لأنها لم تخصص مثل الانكشارية للحياة الحربية وميادين القتال بل ظلت طائفة حول البلاط يكون منهم العلماء وخدام القصر .

وهناك نظام تربوى آخر وضعه الفاطميون لتربية غلمانهم المعروفين بالصبيان الحربية وهم فرقة من الشبان الذين سموا بهذا الأسم لأنهم عاشوا فى نكبات تعرف بالحجر وموقعها بجوار القصر الحليقى بالقاهرة . وجاء ذكر تلك الطائفة فى دائرة المعارف الاسلاميه على أنها طائفة من المماليك كونها الأفضل شاهنشاه^(٢) وزير

(١) الانكشارى Janissaries لفظ حوره الأوربيون من بنى نثرى Yem Cheri أى الفرقة الجديدة فى اللغة التركية . وكان جنود هذه الفرقة يؤخذون أطفالا من المماليك المسيحية الخاضعة للدولة العثمانية (حربية الدم) ثم يربون تربية عسكرية اسلامية فى مدارس خاصة فيتحولون إلى الرعية العثمانية المسلمة مع بقائهم رقيقا للسلطان وتعتبر هذه الفرقة من المشاة ، من مستحدثات العرب فى ذلك العصر فى الشرق والغرب ، ويرجع الفضل فى أنشائها إلى السلطان العثمانى أورخان الأول سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ولراجع Lybyer : The Government of the Ottoman Empire p.91.

(٢) هو الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى وهو من أصل أرمنى ، إذ كان والده مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار فعرف بالجمالى لم ظل يرتقى إلى أن صار حاكما على الشام =

الخلافة المستعلى سنة ٤٨٧ هـ كفرقة عسكرية تحت قيادة أمير يحمل لقب « الموفق » لتكون حرسا له ، وبمبلغ عدد تلك الفرقة ٣٠٠٠ مملوك^(١) غير أن المرحع الذى استمدت منه دائرة المعارف الإسلامية هذا الوصف ، يقول إن الحجرية كانوا « يحتارون من أولاد الأجداد »^(٢) ، وإذا سلمنا جدلا أن أولئك الأجداد من المماليك الأتراك والصفالبة أو غيرهم مما أمتلأت به جيوش الدولة الفاطمية ، فإنه لا يمكن تطبيق تلك التسمية على أسائهم ، فأولئك لم يكونوا مماليك فى يوم من الأيام ، إذ أن الملوك فى المصطلح الرسمى المملوكى لا بد وأن يكون قد مسه الرق أى مسته يد الحاس . ولعل دائرة المعارف الإسلامية تأثرت فى وصفها للحجيرية الفاطميين بتكوين طائفة العلما الحجيرية الذين استخدمهم الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ - ٩٠١ م) فى بغداد ، فهؤلاء كانوا فعلا من المماليك الذين احتارهم الخليفة من بين غيرهم من المماليك الذين يحسون الركوب والرمى ، ويقومون أيضا فى الحصر تحت مراعاة الخدم والاستاذين^(٣) .

وكيفما كان الأمر فإنه يتضح مما تقدم أن الدولة الفاطمية استخدمت المماليك من مختلف الأصناف والألون ، واستطاع عدد منهم أن يصل إلى مناصب الولاية والقيادة بغض النظر عن أصلهم أو جنسيتهم .

وقد استجد به الخليفة الفاطمى المستنصر بالله للقضاء على فتن طوائف الجند بمصر ، فأضاف بذلك عنصرا جديدا فى الجيش والدولة وهو المنصر الأرمينى . وقد خطب الأفضل لباه بدر الجمالى فى منصب الوزارة (المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٣٨١) .

(١) راجع : Ency of Islam art. Huggrah

(٢) المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٤٤٣ .

(٣) من الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. أبوريد ، ص ٢٤٢ .

ممالك السلاجقة وقيام الدولة الأيوبية:

ثم انتهت الدولة الفاطمية بقيام الدولة الأيوبية على يد الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . والدولة الأيوبية كما هو معروف كردية الأصل ، ولكنها جاءت عن طريق الدولة السلجوقية التركية وممالكها ، ونقلت عنها الكثير من عاداتها وأنظمتها التركية الشرقية ، وطبقتها في مصر والشام لأول مرة . ولهذا فإنه لا يمكن فهم تاريخ الدولة الأيوبية فهما جيدا إلا على ضوء دراسة تاريخ السلاجقة وأنظمتهم العسكرية .

ولقد اعتمدت الدولة السلجوقية مد بشأتها الأولى على المماليك من الترك ، وورث هؤلاء سياستها ومبادئها . والقاعدة العامة المعروفة عن السلاجقة في ضوء تاريخهم ، هي أنهم اعتقدوا أنه لا يمكن للعرب والعرب أن يخلصوا في حقيقته سيادتهم الإتراك ، وأنه من الأمثل الاعتماد على وفاء المماليك الإتراك الذين ربوا وشأوا في البلاط على مقربة من سلاطين السلاجقة وأمراءهم ، وصار هؤلاء المماليك يجلسون وهم صغار السن من بلاد القفجاق (١) ، ثم يربون مربية خاصة على أساس النظام التربوي المملوكي الساماني الذي وصفه الوزير نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق في كتابه سياسة نامه أرشادا للحكام السلجوقيين (٢) . ويصيف نظام الملك في ذلك الصدد أنه : يجب ألا يشغل

(١) بلاد القفجاق أو القفجاق أو القفجاق إقليم يحيط بهر العولجا بالجنوب الشرقي من

الروسيا الحالية وشمال البحر الأسود والقوقاز ، وأهلها من الترك . وكانوا أهل حل وترحال

على عادة أهل البشو وهي صيق من العيش ، ولأنهم مرساة عظيمة لتجارة ورقيق الترك

راجع (القلقشندي : صبح الأعنى ج ٤ ص ٤٥٨) .

(٢) أنظر ما سبق أن قلناه في هذا الصدد بالفصل الأول .

على الممالك القائمين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة ، ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام في كل حين ، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور إذا صدر بأحدهما الأمر . وكذلك يجب أن يقال لهم مرة أخرى كيف يسعى للشئ أن يكون حتى ينتهحوا اليه سبيلا . ولا حاجة إلى التكلف كل يوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون من العلماء صاحب المائمه صاحب السلاح ، والساقى وأنشاء ذلك ، ولمن يكون من العلماء في خدمة كبير الحجاب وكبير الأمراء بل يجب أن يؤمروا بأن يبرر للخدمة في كل يوم من كل دار عدد معين ومن الخواص عدد معين كذلك حتى لا يكون في ذلك مشقة ^(١) . ويكمل عماد الدين الأصفهاني ^(٢) الذي عاشر بدمشق ركن الملك العادل نور الدين زنكي ، تصوير ممالك السلافة في عبارة موجزة حيث يقول : « وكان للسلطان ممالك صغار كأنهم أقصر وكان عليهم من الحصان الخواص رقاء وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء » ^(٣) .

وكان نظام الملك أشد الناس تمييزا فيما حاء في كتابه ، إذا حاطه جيش كبير من الممالك عرفوا بالممالك الطامية ستة لاسمه ، فقوى بهم نفوذ إلى حد كبير ^(٤) ، حتى إن السلطان ملكشاه السلجوقي كتب اليه في ذات مرة كتابا يقول فيه : « إنك استوليت على ملكي وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك وماليكك ، كأنك شريك في الملك ، أتريد

(١) راجع Schefer : Siaset Nameh par Nizam el Mulk P.138

(٢) ولد بأصفهان سنة ٥١٩ هـ وتقدم بعماد وولى واسط والبصرة ثم انتقل إلى دمشق ليهايم سلطانها الملك نور الدين زنكي ، وعرفه الأمير نجم الدين أيوب وابنه صلاح الدين ونوفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ

(٣) الأصفهاني : دولة آل سلجوق ص ١١٣

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٦

أن أمر برفع دواة الوزارة من بين يديك ؟ « فرد عليه الوزير نظام الملك : « كأنك عرفت اليوم أنني مساهمك وهي الدولة مقاسمك ، فاعلم أن دواتي مقرونة بتاجك متى رفعتها رفع ، ومتى سلتها سلب . فكأنما نطق بما به القدر سبق ، فلم يكن بن مقتل الوزير (٤٨٥ هـ) ووفاة السلطان غير شهر واحد (١) وراد نفود الممالك النظامية بعد موت السلطان ملكشاه إلى درجة مكنت لهم من عزل ابنه محمود وتولية ابنه الآخر بركيا روق (٢) .

ويقال إن نظام الملك أول من افطع الاقطاعات للممالك الأتراك ، فبعد أن كان عطاء الجدي يدفع نقدا ، صار يعطى اقطاعا (٣) ، لأن تسليم الأرض إلى المقطعين يتضمن عهدها ، وعناية مقطعيها بأمرها ، وفي ذلك ما يحفظ للدولة السلطوية قوتها وثروتها ولذا سار سلاطين السلاجقة على ذلك النظام ، فمنحروا القلاع والمدن والولايات اقطاعا للقادة من ممالكهم وهم الذين سمو الأتابكة ، وذلك مقابل الخدمات العسكرية التي يؤدونها لهم وقت الحرب والأتابك لعط تركي معاه : الأب الأمير (٤) ومعاه المربي لابس السلطان ، ثم أصبح لقبا تشريفيا يمح لكبار القواد بمعنى قائد الجيوش أو أبو الجيش ونائب السلطنة (٥) والوزير نظام الملك أول من لقب بلقب أتابك ، وقد محه إياه السلطان ملكشاه

(١) صدر الدين أبو الحسن أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال بجامعة البنجاب ، ص ٦٩

(٢) الأصفهاني : دولة آل سلجوق ، ص ٧٦ .

(٣) صدر الدين أبو الحسن أخبار الدولة السلجوقية ، ص ٦٨ ، الإصفهاني : دولة آل سلجوق ص ٥٥

(٤) الفلقشندي صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، كرد علي خطط الشام ، ج ١ ص ١٧١ .

(٥) أنظر : Ency of Islam art Ataleg

(٦) الفلقشندي : صبحي الاعشى ج ٤ ص ١٨ .

وعلى هذا الأساس صار معظم أراضي فارس والجزيرة والشام ، مقسما إلى اقطاعات عسكرية يحكمها ممالك السلاجقة بتفويض من السلطان . وهؤلاء جعلوا لأنفسهم جيوشا من الممالك فى مختلف الولايات ، حتى إذا دعت الحاجة إلى حضورهم للخدمة فى الحرب ، جاء الوالى السلجوقى بماليكه وعدته وسلاحه للمشاركة فى القتال ، وكانت الطريقة المتبعة فى استدعاء تلك الفرق العسكرية هى اطلاق أسهم من معسكر إلى معسكر ، أو من قرية إلى قرية ، إشارة إلى التجمع والاستعداد للحرب ، حتى إذا انتهت الحرب عاد الولاة وماليكهم إلى اقطاعاتهم ، وصار ذلك عادة فى فصل الشتاء على أن يعودوا فى الربيع إذا تطلب الأمر . (١) .

وعلى الرغم من غلبة الطابع العسكري على الدولة السلجوقية وولائها من الممالك فإن ذلك لم يمنعهم من تذوق الفن والأدب وتشجيع العلم والعلماء وبناء المدارس ، وسادت تلك الروح الأدبية بين الولاة السلاجقة حتى بعد اصمحلال الدولة السلجوقية .

وهكذا يرى مما تقدم أن السلاجقة فى أيام قوتهم اتخذوا أشخاصا من كبار ممالكهم أطلق عليهم الأتابكة ليكونوا مربين لأولادهم القصر ، ومنحورهم الاقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم على شئون هؤلاء الأبناء وتأديتهم الخدمة الحربية وقت الحرب . ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلى فى تلك الاقطاعات ، وانتهبوا ضعف الدولة السلجوقية وتفككها واستقلوا بولاياتهم شيئا فشيئا حتى اقتسموا المملكة السلجوقية بينهم ما عدا الفرع الرومى فى آسيا الصغرى فإنه

ظل في حوزة السلاجقة أنفسهم حتى أتى العثمانيون إلى تلك البلاد في أواخر القرن السابع الهجري (١٣ م) .

والدول الإتابكية كثيرة العدد ، ويوتها شتى لانتهاى إلى نسب واحد ، إلا أنها يجمعها صفة المملوكية والاتصال بالبيت السلجوقي والنظام الاقطاعي الاسلامي ، ومن المالك السلاجقة الذين حكموا وصاروا ملوكا ، بنو أرتق نسبة لجدهم أرتق التركمانبي أحد ممالك ملكشاه الدين حكموا حصص كيفا (٤٩٥ - ٦٢٩ هـ = ١١٠١ - ١٢٣١ م) ، وماردين (٥٠٢ - ٨١١ هـ = ١١٠٨ - ١٤٠٨ م) . ثم هناك أتابكة دمشق (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م) وأول ملوكها طغتكين وأصلهم مملوك للملك تتر ابن ألب أو سلان أول سلاجقة الشام ثم صار لولده دقاق ثم صار ملك دمشق لطغتكين واستمر في عقبه ٥٢ سنة . ثم هناك شاهات خوارزم ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٣١ م) وينسبون إلى أنوشتكين وهو مملوك تركي لأحد أمراء السلاجقة ، عينه السلطان ملكشاه حاكما على خوارزم (خيو) ، ورسخت أقدام هذا البيت واتسعت أملاكه ، وعلى أيدي أنسر ، وتكش ، وعلاء الدين انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الري والجيل وما وراء النهر ويروي ابو شامة أن علاء الدين كان يمتلك عشرة آلاف مملوك مثل الملوك وقد انتهت هذه الامبراطورية الخوارزمية في عهد جلال الدين خوارزمشاه على أيدي المغول سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ومن فلولها كانت بعض البذور التي نبتت منها الدولة المماليكية الأولى في مصر .

ومن مشاهير الأتابكة في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي الأمير

عماد الدين زكى مؤسس أتابكة الموصل والشام وديار ربيعة ومصر ، وهو ابن قسيم الدولة أق سنقر الحاجب الذى بدأ حياته مملوكا للسلطان ملكشاه وعن طريق زكى واسة نور الدين كان ظهور صلاح الدين الأيوبي الذى تأثر بالنظم السجوقية ، وإليه يرجع الفصل فى انتقال تلك النظم الى مصر حيث بقيت عدة قرون من الأيوبيين والمماليك .

ومن أمثلة هذه المؤثرات بذكر استخدام الجاليش فى مقدمة الجيش والجاليش عبارة عن حصلة من الشعر كانت ترفع فى أعلى الراية أمام الجيش ثم صارت تطلق على مقدمة الجيش أو طلائعة^(١) .. فهذه العادة حاء بها السلاجقة من المشرق ثم أنتقلت الى مصر على يد الأيوبيين ومن الطريف أنها أنتقلت كذلك الى بلاد المغرب والأندلس مع فرقة الغز التى قادها المملوك قراقوش التقوى^(٢) أيام صلاح الدين فابن الخطيب حينما يصف هجوما قام به الجيش العربى فى عهد الدولة المربية يقول فزحمت راياتهم على شأن غز المشارقة من الزمار والطبل ويجعل جمعة الشعر فى أعلا سائر الراية^(٣) .

كذلك جلب السلاجقة مع العادات الفارسية والتركية الأخرى نظاما جديدة فى البلاط والمواكب الرسمية لم تستعمل من قبل أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين . مثال ذلك حمل الغاشية بين يدى السلطان فى المناسبات المختلفة كشعار للسلطنة والغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب حتى يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب يحملها

(١) يقول ابو شامة فى هذا المعنى (الروضتين ج ٢ ص ٧٧) وفى موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ تقدمت الجاليشة تحرق بغيران الصال أهل النار

(٢) نسبة الى الأمير الأيوبي تقى الدين عمر بن أنحى صلاح الدين

(٣) راجع (ابن الخطيب : معاصرة الجراب فى علالة الاغتراب ص ٣٢٩ ، نشر مختار المبادئ)

ركاب الدار بين يدي السلطان ويلفتها يمينا وشمالا وقد أنتقلت هذه العادة الى مصر والشام على يد صلاح الدين وخلفائه وأستمرت بعد ذلك في أيام سلاطين المماليك . ويروى أبو عمرو النابلسي في كتابه « تاريخ الفيوم » ^(١) نادرة تدل على قيمة العاشية كرمز ملكي ، فيقول أن شيخا مصريا اسمة شهاب الدين الطوسي أمر ركاب داره بأن يرفع العاشية على أطراف أصابعه كما يصنع بين يدي الملوك . فلما تحدث اليه البعض في ذلك قال : « أنا ملك العلماء كما أن الملوك ملوك الرعايا » ^(٢) .

كذلك استحدثت السلاجقة نظام المدارس ، وهي منشآت علمية سنية لمحاربة المذهب الاسماعيلي الشيعي ونهضة العقول لفكرة الجهاد ضد الصليبيين ، وسار على هذه السياسة يؤز الدين محمود زكي في الشام ثم صلاح الدين الأيوبي في مصر للنقضاء علي الدعوة الفاطمية على أنه يلاحظ في هذا الصدد أن مدينة الاسكندرية عرفت نظام المدارس السنية في أواخر أيام الفاطميين وقبل مجيئ صلاح الدين فأول مدرسة أسست فيها هي المدرسة الحافضية التي أسسها رضوان بن ولحشى وزير الحليفة الحافظ الفاطمي سنة ٥٣٣هـ وأُسند التدريس فيها الى الفقيه المالكي ابي الطاهر ابن عوف الذي سبق أن قرأ المذهب المالكي على روح خالته أبي بكر الطرطوشي ^(٣) .

(١) عثمان ابراهيم النابلسي (ت ٦٥٦هـ) كتاب لمع القرائين المكية في دواوين الديار المصرية نشر في مجلة - (Bulletin des Etudes Orientales Xvi 1958)

(٢) عثمان النابلسي (١٩٦١ Damass) وقد ألف هذا الكتاب برسم حراة السلطان الصالح نجم الدين ايوب
(٣) عثمان النابلسي المرجع السابق ، وكذلك Becker: Le Ghashiya Comme embleme de La Royaute (Centenario della nascita di Michele Amari (palermo 1910) .

(٣) راجع (السبكي طبقات الشافعية ج ٤ ص ٤٣ ابن بطحان وميات الأعيان ج ١ ص ٨٧ (طبعة مكي الدين عبد الحميد) جمال الدين الشيال أعلام الاسكندرية ص ١٢٩) .

وبعد عشر سنوات أى فى سنة ٥٤٤ بنى العادل بن الصلاو وزير
الخليقة الظافر الفاطمى مدرسة سنية أخرى بالأسكندرية وأسند التدريس
بها الى الفقيه الشافعى أبى الطاهر أحمد السلفى ^(١) غير أن انتشار
المذهب السنى فى ذلك الوقت كان فى حدود ضيقة وقاصرا على مدينة
الاسكندرية دوناً عن بقية المدن المصرية وذلك بحكم وضعها الجغرافى
واتصالها الشديد بالمغرب السنى ولهذا فإنه يمكن القول بأن الأيوبيين هم
الذين اهتموا فى الواقع ببناء المدارس فى أنحاء مصر الشام .

كذلك سار الأيوبيون على سمة السلافة وأتابكتهم بالإكثار من
المماليك الأتراك واستخدامهم فى الجيش ، غير أنه يلاحظ أن الأيوبيين
كانوا أكرادا أحرارا لم يمسهم رق وقد نفى صاحب مرآة الزمان القول
بأن شادى جد صلاح الدين بدأ حياته مملوكا لبهرورز الخادم الذى ولاء
السلطان مسعود غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقى شحة العراق اد
قال . ما كان شادى مملوكا قط ولا جرى على أحد من بنى أيوب رق ،
وأما شادى حدم بهروز فاستابه بقطعة تكرت (٢) .

بعض المؤرخين قالوا بأن صلاح الدين من أسرة عربية الأصل نزلت
عند الأكراد وأنه من ولد شادى بن مروان بن محمد آخر الخلفاء
الأمويين الذى كانت أمه كردية وقد فتد ابن خلكان هذا رأى قائلاً بأن
أصحاب هذه الرواية أراد التقرب من الأيوبيين بعد أن صار الملك فى ايديهم
وبضيف بأنه لم يعثر على جد لهذه الأسرة الأيوبية بعد شادى وهناك شبه

(١) ابن خلكان : نفس المرجع ج ١ ص ٨٧ المبكى . المرجع السابق ، ج ٤ ص ٤٢ .
(٢) راجع (ابن المحاسن - المعجم الزاهرة ج ١ ص ٣ - ٤) حيث ترد هذه العبارة نقلاً عن
مرآة الزمان لمبط بن الجوزى .

اجماع على أن الأيوبيين أكراد من أدرينجان من قرية في شمالها تسمى دوين حمة أرمينيا وقد اتصل شادى جد صلاح الدين بحاكم العراق السلجوقي واسمة بهروز الحادم في عهد السلطان مسعود بن ملكشاه فاستأبته بقلعة تكريت وهي بلدة كردية وسكانها من الأكراد .

وحلف شادى في حكم قلعة تكريت باسمه نجم الدين أيوب الذي أتاح له الظروف أن يؤدي خدمة للأمير عماد الدين زنكى صاحب الموصل وحلب فعينه هذا الأمير حاكما من قبله على بعلبك بعد الاستيلاء عليها ويقال أنه في نفس الليلة التي عادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت ، ولد له يوسف صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٢٢ هـ (١١٣٨ م) ومنذ ذلك الوقت ارتبط الأيوبيون بأسرة عماد الدين زنكى ارتباطا وثيقا لدرجة أنه بعد وفاته (٦٤٦ م) كان نجم الدين أيوب واحده اسد الدين شيركوه^(١) من أكثر أمراء ولده الملك العادل نور الدين زنكى صاحب حلب ودمشق .

وحينما عزم نور الدين على إرسال حملة إلى مصر لتطويق مملكة بيت المقدس الصليبية من الجنوب - بعد فشل الفاطميين في مقاومتها - اختار لقيادة هذه الحملة القائد الأيوبي اسد الدين شيركوه الذي صاحب معه ابن أخيه صلاح الدين .

وشعر الصليبيون بخطر هذه الحركة فادروا بالتدخل في شؤون مصر واحباط هذه الحطة وهنا حدث تسابق نحو الديار المصرية بين الصليبيين بقيادة عموري Amalric ملك بيت المقدس ، وبين جيوش نور الدين بقيادة شيركوه ثم حدثت معارك بين الفريقين انتهت باتفاقهما

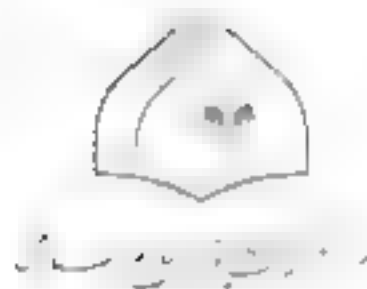
(١) كلمة شيركوه معناها أسد العابة (المقرئ السوك جدا ق ١ ص ٤١ الحاشية) .

على الاسحاب سويا من مصر غير أن هذه الحملات لم تلبث أن عادت وتكررت من الجانبين ثلاث مرات ، وانتهى السباق بانتصار شيركوه وبقائه في مصر كوزير للخليفة العاصد لعاظمي ، بينما أسحب عمرو متهمزما الى بيت المقدس .

وتجدر الإشارة هنا الى أن ذلك الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه الى مصر كان يتكون في معظمه من المماليك والأمراء النورية^(١) . مضافا اليهم فئة من المماليك الأسدية^(٢) ، بلغت عدتهم عند وفاته الخمسمائة مملوك ولا حاجة هنا الى تكرار قصة تولية صلاح الدين الوزارة العاطمية بعد عمه شيركوه ، وما كان للمماليك الأسدية من فضل في ذلك سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) .

ثم توفي الخليفة العاضد^{(في ١٠ المحرم سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)} أي في يوم عاشوراء وبموته زالت الدولة العاطمية الشيعية فكانها انقضت في اليوم الذي استشهد فيه الحسين .

(١) ، (٢) أبو شامة : كتاب البروجين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ١٧٣ .



الفصل الثالث

الدولة الأيوبية ومالياتها

عصر صلاح الدين الأيوبي

(٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣ م)

الاستعدادات التي قام بها لمحاربة الخطر الصليبي :

أخذ صلاح الدين يعمل على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية ، فأزال حدود الفاطميين من العيد السود والأرمن وغيرهم ، وأحد في تكوين جيش قوامه المماليك الأسدية القدماء ، وسأثره من الأحرار الأكراد الذين دخلوا في خدمته مصلاً عن المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وإسمائهم الإصلاحية نسبة إلى اسمته أو الناصرية نسبة إلى اللقب (الناصر) الذي أصفاه عليه الخليفة الفاطمي حين ولاء الوزارة .

ومن الواضح والمقول أن أولئك الإصلاحية والأسدية صاروا الحرس الخاص لصلاح الدين كما صار العادلية الذين كونهم أحوه العادل فيما بعد ببطانه خاصة لهذا الأمير الكبير .

وكان من حسن طالع صلاح الدين أن سيده الأعلى نور الدين محمود مات بعد ذلك بقليل (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) تاركاً وراءه في الحكم طفلاً في الحادية عشرة من عمره وهو الملك الصالح اسماعيل . كذلك مات في نفس السنة عموري ملك بيت المقدس تاركاً وراءه ابناً عاجزاً في الحكم وهو بولدوين الأبرص (الرابع) وقد ترتب على ذلك أن دبت الانقسامات الداخلية في كل من مملكتي نور الدين والصليبيين .

ولقد كان فى مقدور صلاح الدين بفضل امكانياته الكثيرة فى مصر أن ينازل الصليبين مباشرة فى فلسطين ولكنه فضل أن يبدأ بتقوية جيوشه وأساطيله وتوحيد مملكة سيده نور الدين التى تفككت بين الأمراء الطامعين ولهذا قام صلاح الدين بسلسلة من الأعمال والأستعدادات الحربية الداخلية التى نلخصها فى الخطوات التالية :

أولا : عمل على إحياء البحرية العربية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي الذى أمتدت أخطاره وعاراته الى المدن الساحلية المصرية فأفرد للبحرية ديوانا خاصا للاتفاق عليها عرف باسم ديوان الاسطول وولى عليه سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م صديقا من أصدقائه لم تذكر المراجع عنه شيئا سوى أن صلاح الدين كتب اليه جميع ولاء الأعمال المصرية والشامية بأمرهم بتنفيذ طلباته كلما وصلت اليهم من حيث جمع الرجال للخدمة فى الأسطول : « والقول قول صاحب الأسطول ، وأن لا سمع من أحد رجاله وما يحتاج اليه » . وفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١ عين صلاح الدين أخاه العادل رئيسا عاما لديوان الأسطول ثم عين العادل بدوره صفى الدين بن شاكر مائيا له فى ذلك الديوان ، ولقد بولى ديوان الاسطول الاتفاق على دور الصناعات (الترسات) المختلفة وأمدّها بكل ما تحتاج اليه من أخشاب وآلات وقد خصص صلاح الدين لهذا الديوان أموالا ضخمة وهى متحصلات اقليم الفيوم ووادى النطرون وحراج السنط ومتحصل ديوان الزكاة وحصيلة بعض قرى الهنسا فى محافظة المنيا الحالية .

ثانيا : احتكر صلاح الدين حراج (عابات) اشجار السنط *Acacia* التى كانت تعرف بأسم الحراج السلطانية ، فمنع الناس من

التصرف فى أعوادها واعتبرها كأنها من المعادن ليس لأحد فيها ملك ولا احتصاص فهى لبیت المال وقد عملت بها أوراق مخلدة فى الديوان وشددت الحراسة عليها وعلى الرغم من أننا لا نستطيع تحديد مساحة هذه الحراج المصرية الا انه من المعروف أنها كانت توحّد فى أماكن مبشرة فى جنوب الدلتا وصعيد مصر مثل الجيرة والأشمونى وأسيوط وأحميم وقوص .

على أن صلاح الدين لم يكتف بالأخشاب المحلى فى مصر ، بل استعان أيضاً فى بناء أسطوله بأخشاب الصنوبر التى تنبت فى جبال لبنان فصلا عن معدن الحديد الذى كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت كذلك عقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الإيطالية حصل بمقتضاها على حاجة من الحديد والخشب والشمع .

وكان يوجد بالاسكندرية ديوان اسمع المتجر السلطانى لشراء مختلف الصنائع المستوردة من الخارج واللازمة للجيش والأسطول كالأخشاب والحديد والأقمشة الصوفية فكان المتجر السلطانى يشتري هذه المواد من التجار الأجانب بأموال الحصص المفروضة عليهم .

ثالثاً : منع صلاح الدين الأهالى والتجار من التعامل مع البلاد المسيحية فى المواد الحربية وأصدر مرسوماً فى هذا الصدد يقول فيه : « واقتضى مرسومنا الشريف أن لا يمكن أحد من نقل سلاح ولا عده حرب الى جهة البلاد الرومية . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بأن لا يمكن من نقل سلاح ولا عده الى جهة البلاد المذكورة والاحتراز على ذلك كل الاحتراز فيحيط علمه بذلك » .

رابعاً : اهتم صلاح الدين بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمخارص والناويز والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام

فجيش فيها الأجناد البطالين^(١) والأيزاك^(٢) . والأبدال^(٣) ، والمورين
 للمرابطة فيها وحراستها . وقد أصدر مرسوما بهذا المعنى يقول فيه : إن
 مرسومنا الشريف يقتضى الاجتهاد فى حفظ السواحل والموانئ والاهتمام
 بأمرها ، وإقامة الأيزاك والأبدال فى أوقاتها على العادة والزام أربابها
 بمواظبتها ، وكذلك المنورون بالديديانات^(٤) والمباطر والمناور فى الأماكن
 المعروفة وتمهد أحوالها .

وكان على المنورين إذا ما كشفوا عدوا فى البحر مقبلا من بعيد
 أشعلوا النار على قسم المصار أو المائر إذا كان الوقت ليلا ، أو أثاروا فيها
 الدخان إن كان الوقت نهارا هذا إلى جانب استخدام الطبل والنفير لتحذير
 أهالى المدن المجاورة من غارة العدو كثيرا ما تعمل المنورون إشارات نارية
 أو دخانية بطريق أو حركات معينة للأخبار عن حالة العدو أو عدده
 أو حقيقته أو غير ذلك . وأن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة إرسال هذه
 الإشارات ، وبهذه الطريقة التى تشبه صفارات الإنذار فى وقتنا الحاضر كان من الممكن إبلاغ
 القاهرة عن وقوع غارة بحرية فى أقصى شمال الشام فى ليلة واحدة أو نهار واحد .

خامسا : وجه صلاح الدين عناية بحماية البحر الأحمر
 وتجارتته وحججه والأماكن المقدسة المطلة عليه من خطر المستعمر الصليبي
 الذى كان يحتل سواحل الشام وفلسطين ويعتمد صلاح الدين فى تنفيذ
 تلك السياسة على أسطول البحرى فعمل على تقويته مستغلا فى بنائه

(١) البطالون من الأمراء والأجناد هم المعطلون من أعمال الدولة ووظائفها وأقطاعاتها لأسباب
 ودواع مختلفة .

(٢) الأيزاك البحرى أو زور

(٣) الأبدال : بمعنى البطل الذى يحمل حمل الحرم

(٤) الديديان : كلمة فارسية الأصل وشاع المراتب أو الحارس

أخشاب السنط التي كانت تنمو بكثرة في وادي النيل وصحراء سيناء كما سبق أن ذكرنا وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م استولى صلاح الدين على قلعة ايلة التي تقع على فوهة البحر الأحمر ومداحله وكانت هذه القلعة بأيدي الصليبين فهاجمها بأسطولها واستولى عليها وحصنها بالمجاهدين لأنها تقع في ممر حجاج مصر . وبعد سنوات قليلة من فتح أيله ، أرسل صلاح الدين حملة بقيادة أحية تورانشاه احتلت اليمن سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ثم بسط نفوذه على الحجاز وصار يدعى له على منابر مكة . ولا شك أن هذا التدخل المصري في البلاد المطلة على البحر الأحمر جنوبا وشمال كان الهدف من وراءه هو السيطرة على مداحل هذا البحر وحماية تجارة وحجاجة من الحظر العليي الرابط في ميناء وجنوب فلسطين .

سادساً : عمل صلاح الدين على تحصين الشغور المصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط ورشيد فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وحفر الخنادق حولها وحرص صلاح الدين على تفقد سير العمل فيها بنفسه فزار هذه الشغور عدة مرات حتى تم العمل فيها .

سابعاً : حرص صلاح الدين على رفع أجور رجال الاسطول لتحسين حالهم ، فقرر بأن يكون دينار الأسطول $\frac{3}{4}$ الدينار العام بعد أن كان $\frac{5}{8}$ ذلك الدينار أي بزيادة عشرين في المائة تقريباً كذلك استخدم الملاحين من المغاربة في اساطيلة نظراً لاختصاصهم ومهارتهم في هذا الجهاد البحري وقد أشاد المؤرخون المعاصرون بشجاعتهم في هذا الميدان زمن الأيوبيين والمماليك .

ثامناً : عمل صلاح الدين على بث روح الحرب والجهاد في نفوس المسلمين وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس عن طريق المدارس العديدة التي أنشأها في مصر والشام وقد حرص صلاح الدين على أن

يكون هو نفسه قدوة صالحة لهذا العمل فكان مجلسه لا يخلو من ذوى الفضل وأولى النباهة الذين كانوا يتجادبون بحضرة أطراف الفوائد ولا سيما فضائل الجهاد وفرائض التأهب والاستعداد له وكان الرجل الذى يريد التقرب الى صلاح الدين يحثه على الجهاد أو يذكر له شيئا من أخبار الجهاد ولقد الفت له كتب عديدة فى هذا الموضوع وكا وزراؤه وكتابه فى مقدمة الذين لبوا رغبته فيقول كاتبة العماد الأصمهاى : « وكنت قد جمعت له كتابا فى الجهاد بدهش مدة مقامى فيها بجميع آداب وأحكامه ، فقدمته بين يديه فأعجبه » ، وكان يلزم مطالعته وكذلك قول وزيره القاضي العاضل : « وأنا ممن جمع له فى الجهاد كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فيه وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أحفه منه ولده الأصم » كذلك يذكر المؤرخ بهاء الدين بن شداد أنه ألف أثناء مقامه بدمشق كتابا فى الجهاد وأحكامه وآدابه أعجب به صلاح الدين واحتفظ به عنده وكان هذا الكتاب من أسباب تعيينه قائما عنده ولارمته له حتى وفاته .

بعد هذه الاستعدادات الحربية الواسعة التى قام بها صلاح الدين والتى استغرقت سنوات طويلة من حكمة بدأ فى شن الهجوم على مراكز العدو لشل حركة امتداداته ومواصلة الحرية فى البحر الأبيض المتوسط . قام الأسطول المصرى فى الفترة التى بين سنتى (٥٧٥ - ٥٧٩ هـ / ١١٧٩ - ١١٨٣ م) بعمليات ناجحة على مواقع العدو فى بيروت وعكا وجزيرة أرواد وكذلك على جزيرتى كريت وقبرص والسواحل الجنوبية لآسيا الصغرى . أما فى البحر الأحمر فيروى المؤرخون أنه فى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م حاول الأمير الصليبي أرباط Renaud de Chatillon صاحب حصن الكرك^(١) جنوبي فلسطين مهاجمة مكة والمدينة فبنى

(١) لعلها من الكلمة السريانية كرك Crac مماها الحصن ، لا تزال مدينة الكرك موجودة الى اليوم جنوبي البحر الميت فى شرق الأردن وتبعد عن عمان بحوالى ٢٥ كيلومترا وهناك رواية أخرى تفيد بأن الكرك أو القرق تسمى شجر العلىن باللاتينية Quercus

سفنا حربية حملها على جمال الأعراب المجاورين بكراء اتفق معهم عليه ، فلما بلغ ساحل البحر أكمل انشاءها ودفعها في البحر ثم أوقف منها مركبين عند قلعة أيلة لمحاصرتها بينما سارت بقية السفن جنوبا نحو عيذاب فقتلوا وأسروا وأحرقوا في البحر نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركبا قادما بالحجاج من جدة وقتلوا الجميع كما استولوا على مركبتين فيهما بضائع جاءت من اليمن واستولوا كذلك على أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لارسالها الى الحرمين الشريفين وأحدثوا حوادث لم يسمع في الاسلام بمثلها . ثم مضوا الى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول (صلعم) وأحراجهم من الضريح المقدس ، وأشاعوا ذلك وأحروا ذكره على السنتهم فلما وصل الخبر الى مصر وبها الملك العادل نائبا عن أخيه صلاح الدين ، أمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر المراكب وساربها برا الى أيلة حيث أنزلها في البحر هناك وشحنها بالرجال دوى التجربة من أهل الدين والجمية مع أنجاد من المغاربة البحرين ، وسار الى أيلة فظفر بمركبي العدو عندها فحرقهما وأسر جنودهما ثم واصل سيره الى عيذاب حيث دلة أهلها على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وانتصر عليها وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ لهم ثم صعد الى البر وتبع الهاربين من الفرغ وأسرههم بأسرههم وكان ذلك في أشهر الحج فساق منهم أسيرين الى منى ونحرهما بها كما تنحر البدن وعاد الى القاهرة بالأسرى في ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م فكتب السلطان الية بصرب رقابهم بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف ^(١) .

(١) راجع (أبو شامة) كتابا الروضتين ج ٢ ص ٢٥ - ٢٧) ويقتل عدد الأسرى بنحو مائة وسبعين أسيرا .

وللشاعر أبي الحسين بن الدري في الحاجب لؤلؤ سبب هذه
الواقعة أشعار منها :

مر يوم من الزمان عجيب	كاد يبدى فيه السرور الجماد
اذ أتى الحاجب الأجل بأسرى	قرتهم في طيها الأصفاد
قلت بعد التكبير لما نبدى	هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعداى	وسواه من اللآلى يصاد

وقد أضطر أرناط بعد هذه الهزيمة أن يعقد هدنة مع صلاح الدين
وأن يقنع بالرسوم التى يفرضها على قو قل التحارة بامارة والثى يحى منها
ارباحا طائلة هذا إلى جانب الأموال التى كان صلاح الدين يدفعها له سرا
دون أن يعلم بها أحد احد بها جشم كنقى شره ولا شك أن كل هذه
الانتصارات السالفة التى سعت رقعة خطير قد شلت حركة العدو مما
ساعد على نجاح حطط صلاح الدين فى الشام

وكان صلاح الدين خلال هذه المدة يعمل على جمع كلمة
المسلمين وتوحيد الممالك الاسلامية المتفرقة فى الشرق العربى واستطاع
أخيرا أن يكون جهة عربية متحدة تمتد من برقة عربا الى المرات شرقا ،
ومن الموصل وحلب شمالا الى النوبة واليمن جنوبا .

وقد شرح صلاح الدين سياسته هذه فى خطاب أرسله الى الخليفة
العباسى المستضى ، يقول فيه : « ولو ان أمور الحرب تصلحها الشراكة لما
عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين ولا أساءنا ان تكون الدنيا
كثيرة المالكين ، وإنا أمور الحرب لا تحتل فى التدبير الا الوحدة فإذا
صح التدبير لم يحمل فى الدقاء الا العدة (الروضتين ج ٢ ص ٤٨) .

موقعة حطين : (٥٨٢هـ / ١١٨٧م) .

كانت الخطوة المنطقية التالية لهذه الوحدة هي أن يقوم صلاح الدين بهجوم اسلامي عام على مملكة الصليبين في بيت المقدس متخذاً من اعمال بعض الصليبين الاستفزازية سبباً مباشراً لهذا الهجوم ذلك ان الرئيس ارناط صاحب حصن الكرك الذي يشرف على طريق التجارة والجمع بين مصر والشام والحجاز لوقوعه شرقي البحر الميت بالأردن ، علم من جواسيسه بمجيء قافلة كبيرة من مصر في طريقها الى دمشق تحمل كل عال ونفيس فأثار ذلك حشعه واستولى عليها وأسر من فيها سنة ١١٨٦م رغم الهدنة المبرمة بية وبين صلاح الدين وحاول صلاح الدين أن يسترد الأموال والأسرى عن طريق المفاوضة ولكنة لم ينجح عندئذ أقسم بأن ينتقم منه وأن يقتله بيده ثم أعلن التعبئة العامة للهجوم على الصليبين وهناك رواية أخرى في هذا الصدد يرويها الأمير عبد العزيز تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي الذي صاحب صلاح الدين في جهاده وهو حفيد الملك المعز بن باديس صاحب امريقية قال : لما مرض صلاح الدين مرضة الشديده سنة ٥٨٢ هـ نذر أنه إذا أبل من مرضة فإنه لن يقاتل أحداً من المسلمين وأنه سيكرس جهاده ضد الصليبين فإذا انتصر عليهم وظفر بالبرنس ارناط فسوف يتقرب الى الله باراقة دمه . وقد نجاه الله ببركة هذا العذر فكان هذا النذر هو سبب إراقة دم الإبرنس ارناط^(١) .

هنا ما يرويه المؤرخون عن دوافع هذا الهجوم وإن كان من المعروف ان حادثة ارناط لا تعلق أن تكون سبباً مباشراً فقط وأن صلاح الدين لم يقدم على هذا الهجوم الا بعد أن كمل استعداده وأصبح في مقدوره ان يحدد زمان ومكان المعركة .

(١) أبو شامة : كتاب البروضتين ج ٢ ص ٨٠ .

ورأى صلاح الدين ان يتحاشى مهاجمة تجمعات الصليبيين
بالساحل فى صفورية قرب عكا ، وعمل على احبارهم على المسير اليه
فى الداخل وفى المكان الذى حددته للمعركة فهاجم مدينة طبرية وكانت
بها زوجة امير طرابلس ريموند الثالث واسمها اشفيا وقد أثار هذا الحادث
غضب الصليبيين فعقدوا مجلس حرب فى عكا وقرروا الزحف من
صفورية الى طبرية وكان من المتطرن ان يكون ريموند الثالث
طرابلس اول المتحمسين لهذه الحطة لانقد روحته ولكمة عارض فكرة
الزحف لوعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو ، وفضل السقاء وانتظار
المسلمين على الساحل غير أن أمراء الصليبيين امثال ارباط وحاي لوزجان
ملك بيت المقدس وزعماء الداوية اتهموا ريموند بالخوف والضعف وقرروا
الزحف الى طبرية . والواقع ان ما كان لهم ريموند هو الصواب من الناحية
الاستراتيجية .

وفرح صلاح الدين لنجاح حطة وعقب على قرار الصليبيين بقوله
« حاءنا ما نريد » اد كان هو ورحالة يعمون بالظلال والماء عند بحيرة
طبرية والأردن بينما كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية
طريقا وعرا مرتفعا طولة ١٦ كم لا ماء فيه وفى حرارة شهر يوليو الشديدة
وقد حرص صلاح الدين على أن يترك لهم بلا صحريا مجاورا قاحلا لا
ماء فيه وهو تل حطين فوصلوا منهكين متعسين ثم أشعل لهم المسلمون
النار فى الأعشاب المجاورة فاجتمع عليهم حر الزمان وحر النار والدخان
وحر العطش والقتال وانتهر صلاح الدين فرصة حلول الظلام فى الليل
وأحاط بالجيش الصليبي ثم دار القتال بين الفريقين فلم يجد الصليبيون
أمامهم سوى تل حطين فأخذوا يصعدون نحو القمة والمسلمون حصفهم
يقتلون فيهم ثم اسروا من تبقى منهم وكان على رأس الأسرى ملث يس

المقدس جاي لورجان ، ورسد صاحب الكرك ومقدم الداوية دى
مونتفورت أما ريموند الثالث فقد تمكن من القرار الى امارة طرابلس بعد
أن فتح له المسلمون ثغرة في صفوفهم واستقبل صلاح الدين الأسرى
استقبالا حسنا وقدم لهم الماء شلح مشرب جاي لورحنان وأعطى ما تنقى
مه لارناط فشرية وغضب صلاح الدين من ملك بيت المقدس وقال له
كان ينبغي أن تأخذ مى أدا نسقه ثم أخذ يعدد دنوب أرباط ثم تناول
سيفه وقتله تنفيذا لقسمه كذلك أمر بقتل اسرى الداوية والاستتارية لكثرة
شرورهم وشدة وطأتهم على المسلمين وسبق بقية الأسرى الى دمشق
حيث بيعوا بيع الرقيق .

كانت واقعة حطين كارثة حربية كبرى على الصليبيين فبت فيها
زهرة شبابهم وفرسانهم وقد علق المؤرخ المعاصر ابن الأثير على هذه الواقعة
بقوله : « وكان من يرى القتل يخيبت أن ليس هناك أسرى ، ومن يرى
الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى » (١)

ولا يفوتنا أن نصيف في هذا الصدد رواية لطيفة رواها ابن الأثير
على لسان الأمير الأفصل بن صلاح الدين في وصف حطين كما
شاهدها بنمسة فيقول : كنت إلى جاب أبى في ذلك المصاف وهو أول
مصاف شاهدته في حياتى فلما انسحب ملك الفرنج إلى قمة التل (قرون
حطين) ونصب خيمته الحمراء بأعلى القمة ، حمل فرسانه حملة
منكرة على المسلمين حتى الحقوهم بوالدى . قال فنظرت إليه وقد علت
كأبة ، وأريد لونة وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح : كذب
الشیطان!!

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٢٢٤

قال : فعاد المسلمون وانقضوا على العدو الذى أرتد الى التل .
وحينما رأيت الفرغ يفرون ، صرحت فرحا مسرورا لقد هزمتهم ! غير
أنهم حملوا مرة أخرى وردوا رجالنا الى حيث يقف والذى فعاد والذى
يصبح مثل المرة الأولى : « فلتشدوا على الشيطان الكاذب » فهاجم
المسلمون على الفرغ ودفعوهم إلى أعلا التل فصحت مرة أخرى . لقد
هزمتهم فالتفت والذى إلى وقال : « اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك
الحيمة » . وبينما يقول لى ذلك وأذا بخيمة الملك قد هويت وسقطت .
عندئذ ترجل والذى وسجد شكرا لله تعالى وبكى من فرجه^(١) .

ولم يجد صلاح الدين صعوبة بعد هذا النصر الحاسم فى فتح المدن
الصلبية وساعدة على ذلك حسن معاملته لأهالى تلك المدن ومثال ذلك
أنه بعد فتح طبرية عامل الأميرة أشفا زوجة ريموند الثالث معاملة كريمة
وسمح لها بالسفر بأموالها وحاشيتها الى طرابلس

وتوقع الصليبيون أن يذهب صلاح الدين الى القدس أولا إلا أنه
وحد شاقب نظره أن يبدأ بالمدن الساحلية التى تربط الصليبيين بموطئهم
الأصلى فى غرب أوروبا فيحصرهم فى داخل الشام فضلا عن أن احتلاله
للمدن الساحلية يسهل عليه الاتصال البحرى بين مصر والشام وعلى
هذا الأساس استولى صلاح الدين على عكا وبيافا وصيدا وبيروت وجبيل وحيفا وعسقلان
وعزة ولم تستعص عليه سوى مدينة صور وذلك يرجع الى موقعها الجغرافى المحاط بالمياه من
معظم نواحيها (٢) وفضل الأسطول المصرى فى محاولة غزوها من ناحية البحر .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٥٢٦

(٢) وصف ابو شامة مدينة صور بقوله : « صور مدينة حصينة معظمها فى البحر كأنها سفينة .
(الروضتين ج ٢ ص ١١٩) .

ورأى صلاح الدين بعد ذلك أن يتجه الى الداخل نحو مدينة بيت المقدس فحاصرها حصارا شديدا حتى اضطرت اهلها الى طلب التسليم فدخلها في ليلة الاسراء ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م وكانت الشروط التي فرضها صلاح الدين على المدينة في عاية التسامح والكرم لدرجة أن بعض المؤرخين المعاصرين الصليبيين قال في هذا الصدد : ولم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الحالدة .

هذه العبارة في الواقع تتضمن حقائق ومعان كثيرة لأن صلاح الدين لم يستغل انتصاره للتمثيل بأعدائه كما مثلوا بالمسلمين حينما فتحوا القدس سنة ١٠٩٩ م بل تركهم يعادرون المدينة بأمتعتهم وأموالهم بعد دفع فدية معتدلة ، كما راعى حالة الفقراء منهم فترك الكثيرين يرحلون دون دفع الفدية المطلوبة . أما الصاري الشرقيون من أهل المدينة فقد سمح لهم بالبقاء مع المسلمين على أن يدفعوا الجزية كأهل الذمة .

هذا ولم يحاول صلاح الدين هدم الكنائس بل تركها وعلى رأسها كنيسة القيامة ، وأكتفى بأعادة المساجد التي حولت الى كنائس ولا سيما المسجد الأقصى الذي كان الفريجة قد حولوه الى كنيسة وأتولوا الفرسان الداوية في قسم منه وأطلقوا عليه معبد سليمان ، وكان هذا يدل على أن صلاح الدين ل يكن يحارب الدين المسيحي بل كان يحارب السياسة الأوربية الاستعمارية .

ولقد واصل صلاح الدين بعد فتح القدس عملية استرداد المدن الشامية من أيدي الصليبيين بحيث لم يبق في أيديهم الا انطاكية وطرابلس وصور

وبعض الحصون والمدن الصغرى وقد عر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله فى رسالة الى أحية تورانشاه باليمن : ان بلاد الشام لا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما الا قىلاً سلاماً سلاماً . (سورة الواقعة آية ٢٦)

على أن سقوط بيت المقدس وضياع معظم الممتلكات الصليبية كان له رد فعل عظيم فى غرب أوروبا اذ أحدثت البابوية تمسح بحملة صليبية جديدة وتخص الملوك والحكام على فض مازعاتهم الداخلية والاشتراك فى هذه الحملة ، وترعم هذه الحملة البابا جريجورى الثامن .

وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غرب أوروبا وهم : فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا^(١) وريتشارد قلب الأسد Lion Heart ملك إنجلترا وفيليب الثانى أوجست Auguste ملك فرنسا وتعتبر هذه الحملة التى تعرف بالحملة الصليبية الثالثة والتى أمتد تاريخها ثلاث سنوات (١١٨٩-١١٩٢م) ، من أكر الحملات الصليبية فى عدد حيوسها وأساطيلها .

ولا شك أن أخبار الاستعداد لهذه الحملة قد بلغت صلاح الدين ففى حطاة الى أحية تورانشاه باليمن نجد إشارة صريحة الى أن القسطنطينية وأصحاب الثعور المعربية والمستخدمين بالاسكندرية ، كتبوا له ينذرونه بأن العدو قد أجمع أمرا وأوقد نار الحرب كذلك يروى المؤرخون أن بعض رجال صلاح الدين بصحوا بتخريب عكا ودمير أسوارها واقامة عدد من المرابطين مكانها لحطسورة موقعها على المسلمين اذا ما تملكها

(١) غرق هذا الامبراطور فى نهر بالقرب من انطاكية اثناء السباحة فيه واضطر اتباعه بعد هذه الكارثة الى العودة الى بلادهم

الصلبيون غير أن صلاح الدين كان لا يميل إلى تحريب المدن العامرة^(١) ولهذا لم يستجب لهذا الرأي وفصل إلى يزيد في استحكامات عكا ووسائل الدفاع عنها واختار لهذا العمل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي^(٢) الذي سبق أن أدار السور حول مصر والقاهرة وبنى قلعة جبل المقطم فاستدعاه من مصر هو وأساتيد العمل وأنفارة وآلاته ودوابه وأبقاره ، وفوض إليه عمارة عكا وعية عليها كذلك استدعى حامية من جنود مصر للمشاركة في الدفاع عن هذا الثغر الهام .

ثم أخذت حشود الصليبيين وأساطيلهم تنزل ناعا على عكا في سنة ٥٨٥/هـ (١١٨٩م) ويفدر عدد سفنهم بما لا يقل عن ٥٥٢ سفينة من مختلف البلاد الأوربية وهذا العدد الكبير كان يزيد بكثير على ما كان عند صلاح الدين من سفن حربية وقد أعترف صلاح الدين بهذا التفوق البحري للعدو في بعض رسائله مثل قوله : « ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه . فإذا قتل المسلمون واحدا في البر بعث البحر عرضه الفا »^(٣) .

(١) يزيد ذلك أن صلاح الدين حينما اضطر بعد ذلك إلى تخريب مدينة عسقلان - مفتاح المالك الشرقية المؤدية إلى مصر - خوفا من سقوطها في يد الصليبيين ، جمع أولاده ورجال دولته وناقشهم في هذا الأمر قبل صدوره ويؤثر عنه أنه قل في هذا الصدد : والله لأن أهد أولادي بأسرهم أحب إلى من أن أهدم بها حجرا واحدا ولكن إذا قص الله بذلك لحظ مصلحة المسلمين فكيف أصح ؟ راجع (ابونامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢)

(٢) قراقوش اسم تركي معناه العقاب الطائر كان مملوكا لأسد الدين شيركوه ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين وصار نائبا عنه في القاهرة أثناء غيابه عنها وتنسب إليه أحكام عجيبة أثناء ولايته والظاهر أنها موصوعة إذا ثبت النصوص على كفايته ولو في سنة ٥٩٧هـ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعنى ج ٧ ص ١٢٧

على أن صلاح الدين لم يقف ساكنا حتى تكتمل تجمعات العدو حول عكا بل سارع في مهاجمته واستطاع فتح الطريق الى المدينة لامتدادها بالملؤن والأسلحة والرجال كما رتب اليك الدائم (الحرس) لمنع العدو من الخروج من خيامه فانهصر فيها بحيث صار لا يخرج منها أحد الا يقتل أو يجرح . وأظهرت حامية المدينة تحت قيادة قراقوش بطولة وشجاعة تسترعى الانتباه .

واستمر الوضع على هذا النحو والقتال دائر على عكا الى أن كثرت جثث القتلى وحيف الدواب من الجبابير واضطر صلاح الدين الى الابتعاد من رائجتها الى مكان داخلي بعيد عن عكا يسمى الخروبة وقد أفاد الصليبيون من هذا الاسحاب اذ تمكنوا من إطلاق الحصار حول المدينة وقطع الطرق اليها .

وهنا نخذ البحرية العربية نسجل عتاء الاتصال بحامية المدينة من جهة البحر وأمدادها بالملؤن والذخائر والرسائل وغير ذلك . يروى ابو شامة أن السلطان صلاح الدين استدعى الاسطول المصري في أواخر سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) فقدمت حمصون قطعة بقياده أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الذي فاجأ مراكب العدو في مياة عكا وانتصر عليها وبدد شملها وظفر منها بمركبي شحن مملؤنين بالغلال والأموال والرجال كما أمد حامية المدينة بما تحتاج اليه من طعام وسلاح .

على أن هذه الميرة أو الملؤن لم تلبث أن نفذت بعد قليل مما اضطر الأمير بهالدين قراقوش والى المدينة الى الاستنجد بصلاح الدين من جديد واستمر الاسطول المصري يشق طريقه بسجاح الى عكا حاملا إليها مختلف

الأمدادات وقد أتحد من مياء حيفا في حويلها مأوى يحنى فيه اذا ما أشد
خطر الفرغ في البحر وكثيرا ما ارتطمت بعض سفنة بصخور الشاطئ
سب هيجان البحر في فصل الشتاء ، قد اضطر امك العادل أن يربط بحيوشه عند
مياه حيفا للأشراف على النهر المقدمة من مصر في طريقها الى عكا .

أما في شمال عكا فكانت مدينة بيروت هي قاعده الأسطول الشامى
وكان يوجد على سواحلها في مكان يسمى الريب أو الزئب طائفة من
المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا ويقطعون الطريق على
الفرغ (١) وكان لأمير بيروت في ذلك الوقت واسمة عز الدين سامة
غزوات كثيرة في البحر ضد مراكب العدو المارة بسيروت في طريقها الى
عكا فمهم هو ورجاله مخام كثيرة حطت له ادجار العنى ويؤثر عن هذا
الأمير سامة أو أسامة ، أنه استولى على خمس سفن من أسطول ملك
الغلترا ريتشارد قلب الأسد ، وكانت مملوءة بحبلا ورجالا وساء وأموالا

كذلك يروى العماد الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين • وكان
قد أمر نواب الاسكندرية بتجهيز سفن كسار وتعميرها هذا بالعلال
والأقوات وتسييرها الى عكا ، ولكنها ابطأت عن الموعد المطلوب مما أضر
بالمقيمين بمدينة عكا ، وفكر صلاح الدين فيما يتعجل به الفرض فكتب
الى متولى بيروت عز الدين سامه ، فجهز بطسة كبيرة ملاءها ميرة وغلة
كثيرة وأركبها جماعة على زى الفرغ ممسوحى اللحي ممسوخى الحلى
وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهانا . وكانت هذه الطسة من الفرغ مأخوذة ، وهى
بساحل بيروت منبودة فأمر السلطان بترميمها وتعيمها ، فملئت بالشحوم واللحوم ،

(١) أبو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٤ ولعل المقصود بالريب في المتن هو المكان المعروف
حاليا بجول الذهب على ساحل بيروت الشمالي

وأربعمئة غرارة غلة وأحمال من النشاب واللفظ ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت وأرادوا أن تتشبه بيطس العدو في البحر فشعلوا زنتاير وأصطحبوا خناير وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج محتطين وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوبوا بها نحوها والريح تسوقها والفرنج من مراكبهم تقول : ما هذه طريقها وهي كالسهم النافذ قد سد فوهها فدحلت الشعر وأجترا البلد نصف شهر^(١) ويصيف العماد الاصفهاني : انه بعد ذلك بقليل وصلت في البحر ثلاث مراكب مصرية كأنها ثلاث هراضب ، فجاءت أعلامها كالأعلام ، طائرة كالكسها ، ولم تبال بمراكب العدو فحرقها وفريت من سفينة للعدو فمقرقتها ، وعين الكفر عبري ، وامتلأ الشعر بها وأثرى^(٢) .

هذا ويروى ابن شداد رواية أخرى تنفق مع رواية العماد الاصفهاني حول أهمية الدور الذي قامت به بيروت في أمداد عكا بالعلال والطعام فيقول : وكان السلطان صلاح الدين قد أعد بيروت بطسة وعمرها وروضع فيها من الجبن والبصل والعصم وغير ذلك من الميرة وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكان قد أشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزبوا بزي الفرنج حتى حلقوا لحاهم وروضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان ، وحاءوا قاصدين البلد من البعد حتى حائطوا مراكب العدو فخرجوا إليها واعتصمهم في الجرافات والشواني وقالوا انراكم قاصدين البلد واعتقدوا أنهم منهم ، فقالوا : أولم تكونوا أخذتم البلد ؟ فقالوا : لم تأخذ البلد بعد فقالوا : نحن مرد القلوع إلى المعسكر ووراءنا بطسة فرنجية

(١) ابو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) ابو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦١ .

قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر فنطروا فرأوها فقصدوها
لينذروها فاشتدت البطمة الاسلامة في السير واستقامت لها الريح حتى
دخلت ميناء البلد وسلمت ولله الحمد وكان فرحا عظيما فان الحاجة
كانت قد أخذت من أهل البلد ^(١) .

هذا وقد ظهرت خلال تلك المعارك بطولات عديدة نذكر منها
بطولة الضفدع البشري عيسى العوام الذي كان يشد على وسطة الرسائل
والذهب ثم يغوص قليلا في البحر على غرة من العدو ويخرج من الجانب
الأخر من مراكب العدو ويدخل عكا حيث يسلم الرسائل الى رجال
الحامية بينما كان الذهب يصرف نفقة للمجاهدين

وفي ذات يوم حمل عيسى العوام أكياس الذهب والكتف وعام في
البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه ولم يسمع له حشر فأبقن البعض بهلاكه
بينما ظل البعض الآخر بفراره بالأموال وبعد أيام بينما كان الناس على
تلوف البحر في المدينة وإذا البحر قد قذف إليهم ميا عرقا ، فافقدوه
ووجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطة الذهب والكتف فبرأه الله مما
قالوا وقدر له أداء الأمانة بعد وفاة كما كان يؤديها في حياته ^(٢) .

بطولة أخرى كان صاحبها الأمير مجاهد جمال الدين محمد بن
أرككز الذي تخلفت سفينته عن بقية الأسطول المصري فأحاطت بها
مراكب العدو واضطر ملاحوها الى القفز في الماء طالبين النجاة بأنفسهم
بينما ظل أميرهم بقاتل ويقاوم فعرص عليه الصليبيون الأمان اذا استسلم
لهم فقال ما أضع يدي الا في يد مقدمكم الكبير فلا يخاطر الخطير الا مع

(١) ابو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) ابو شامة : نفس المرجع ج ٢ ص ١٦٢ .

الخطير فجاء اليه المقدم الكبير وطن أنه قد حصل له الأمير فعاقره وعانقه
وقوى عليه وما فارقة فوقها في البحر وغرقا ونرافقا وعلى طريق الجنة والنار
افترقا (١) .

وهناك أيضا بطولة يعقوب الحلبي الذي خرج من بيروت على رأس
سفينة كبيرة (بطسة) مشحونة بالآلات والميرة الرجال لأمداد حامية عكا
فاعترضه ملك إنجلترا ريتشارد وحاصره بسفنة التي كانت تبلغ الأربعين
قطعة فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا وأحرقوا لهم سفينة كبيرة غرقت بمن
فيها ولما تكاثر العدو على سفينة المسلمين وكاد أن يستولى عليها قال
المقدم يعقوب : « والله لا نقتل الا عن عز ولا سلم اليهم من هذه
البطسة شيئا » ثم حطموا حوائط البطسة بالمعاول حتى فتحوها فامتلأت
ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ولم يظفر العدو منها بشئ (٢) .

هذه النصوص وأمثالها تعطينا صورة واضحة لما بدلته البحرية العربية
من شجاعة وتضحية صد عدو يفوقها قوة كثيرة هي هذا الميدان ولهذا
اعتمدت في مقاومة على عصري المفاحاه والحيلة مع صدق العزيمة
وفي هذا يقول صلاح الدين بمسمة في إحدى رسائله : « وكان عدد
مراكبهم كبيرا ، ولكن لقيهم بأصدق منها عزيمة والقليل مع العزم
الصادق كثير (٣) » .

هذا ولم يتردد صلاح الدين في استعمال كل فرصة نعية على قهر
حصنة في هذا الميدان البحري فيروى على سبيل المثال أنه اتفق مع

(١) ابو شامة : نفس المرجع . ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٣) ابو شامة : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١ - ١٨٢ .

جماعة من قراصنة الفرنج على الإغارة على مراكب العدو التجارية وأمدتهم ببعض السفن الصغيرة المعروفة بأسم البراكس^(١) فركبوا وظفروا بمراكب لتجار ، بضائعهم بعضها فضة مصوغة وغير مصوغة فأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان فأعطاهم جميع ما عنموا وأبت عليه نفسه أن يأخذ منها شيئا .

كذلك تروى المصادر أن صلاح الدين أرسل في سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠) سفيرا من قبله هو الأمير عبد الرحمن بن منقذ إلى خليفة المغرب يعقوب المنصور الموحدى يطلب اعانة بالأساطيل لتحول بين أساطيل الأعداء وبين أمداد الصراية بالشام وعلى الرغم مما قيل أن المنصور رفض هذا الطلب لأن صلاح الدين لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين^(٢) أى لم يعترف بحلافة الموحدين فقد ذهب بعض المؤرخين المغاربة إلى أن المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمحاربة الصليبيين من سواحل الشام^(٣) وكيفما كان الأمر فإنه يلاحظ أن أساطيل الموحدين في ذلك الوقت كانت هي الأخرى تجابة أخطارا جسيمة في مياه المحيط الأطلسى عربى الأندلس حيث كانت أساطيل الألمان والإنجليز والفلمنك (سكان الأراضى الهولندية) المتجهة إلى الشام كثيرا ما ترسو في الموانئ البرتغالية وتعاون ملك البرتغال سانشو الأول في مهاجمة جيران المسلمين في غرب الأندلس لهذا كان على أسطول الموحدين أن يعمل على حماية هذه الأطراف المغربية الإسلامية من هذا الخطر الصليبي^(٤) .

(١) براكس جمع بركوس وهي السفينة الصغيرة، راجع (أبو شامة . نفس المرجع جـ ٣

(٢) أبو شامة : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٧٥ وما بعدها .

(٣) السلاوى الناصرى الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٤) ابن عشارى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ ٤ ص ١٧٥ .

وفى أوائل سنة ١١٩١ م أشتد ضغط الصليبيين على عكا وعظمت شكاية حامية المدينة من طول المقام بها ومعاناته التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا وقرر صلاح الدين تجديد حامية المدينة بواسطة اسطولة الا أن هذه العملية لم تتم بنجاح بسبب صعوبة الظروف التي تمت فيها وتكالب العدو على المدينة من كل ناحية ويعلق كل من ابن الأثير وابي شامة على ذلك بقولة ٥٠ ودخل الى عكا من لم يجرب حصارها ولم يخبر منافعها ومضارها . . ودخل اليها عشرون أميراً عوض ستين فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الدين خرجوا فلا حرم ان وقع الوهن وقضى الأمر (١) .

هذا وقد راد الموقف حرجا ، احتلال ملك إنجلترا ريتشارد لجزيرة قبرص من أيدي البريطانيين في نفس تلك السنة ١١٩١ م ومن ثم صار قبرص قاعدة بحرية حديده للصليبيين ومركزا دائما لتموين أماراتهم في الشرق العربي وقد أثار هذا الحادث موجة من العرح والحماس في نهرس الصليبيين فشددوا هجماتهم على عكا واضطرت حامية المدينة أن توجه آخر نداء بالحماس الزاحل الى صلاح الدين يقولون فيه ٥٠ انا قد بلغ منا العجز الى عاية ما بعدها الا التسليم ونحن في العدد ثامن الشهر (جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م) ان لم تعملوا معا شيئا ، نطلب الأمان ونسلم البلد ٥ .

ولم تنجح جميع المحاولات العسكرية التي بذلها صلاح الدين لانقاذ عكا فأضطر قائدها قراقوش الى الاستسلام في يولية سنة ١١٩١ م بعد مقاومة دامت سنتين تقريبا وبعد سقوط عكا دب خلاف بين فيليب الثاني ملك فرنسا وبين ريتشارد ملك إنجلترا فاضطر فيليب الى مغادرة

(١) ليوثانة ٥ نفس المرجع ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨٢ بعد عشر : الحركة المليية ج ٢ ص ٨٦٢

الأراضي المقدمة غاضبا والعودة الى بلاده .

أما الملك ريتشارد قد واصل زحفة جنوبا بحذاء الشاطئ وأساطيله تدير بجواررة في البحر واستطاع ان يستولى على شاطئ فلسطين من عكا الى يافا ثم انحدر جنوبا نحو عسقلان وخشى صلاح الدين على مصر من اطماع الصليبيين خصوصا وأن ملك إنجلترا ريتشارد قد صرح بذلك مرارا وحصل على كثير من الجمال والظهر لهذا الغرض واضطر صلاح الدين الى تخريب مدينة عسقلان فحرم الصليبيين من هذه القاعدة البحرية التي كان من الممكن استغلالها في مهاجمة مصر مثلما فعلوا بعد سقوطها في أيديهم من قبل سنة ١١٥٢ م على عهد الفاطميين وهكذا استطاع صلاح الدين بهذا أن يحتفظ بمفتاح المسالك الشرقية المؤدية الى مصر .

وحاول ريتشارد قلب الأسد أن يسترجع بيت المقدس ولكنة فشل تماما واضطر أن يعقد صلح الرملة مع صلاح الدين في نوفمبر سنة ١١٩٢ (٥٨٨هـ) وأهم شروطه أن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية من صور الى يافا وتبقى بيت المقدس تحت الحكم الأسلافي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج اليها دون مطالبتهم بأية ضريبة مقابل ذلك .

وقام صلاح الدين عقب هذه الهدنة بالعمل على خلاص أصحابه من الأسر ونذكر منهم بهاء الدين قراقوش والى عكا السابق الذي تلقاه السلطان بالبشر والبر^(١) كذلك اهتم صلاح الدين بتفقد بعض الثغور الشامية فزار صيدا ثم بيروت حيث استقبله واليها عز الدين سامه في شوال سنة ٥٨٨ هـ^(٢) .

(١) أبو شامة : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) أبو شامة نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٠٧ .

وأضطر صلاح الدين بعد ذلك الى العودة الى دمشق حيث وافته
المنية في العام التالي سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) ودفن هناك ومعه سيفه الذي
كان معه في الجهاد ليتوكأ عليه الى الحنة^(١).

كان صلاح الدين من الحكام القلائل الذين آمنوا بقيمة السلاح
البحري في جهاد الصليبيين وتأمين سلامة بلاده ولعل الحوار التالي الذي
دار بينه وبين وزيره القاضي الفاضل يعطينا صورة صادقة لما كان بجيش
في نفسه من مشاعر نبيلة نحو هذا الجهاد البحري قال القاضي الفاضل :

« وقع للسلطان في دي القعدة سنة ٥٨٤هـ أن يتفقد البلاد
الساحلية ويرتب أحوالها فسرى على الساحل من عسقلان الى عكا وكان
الزمان شتاء عظيما والبحر هائجا هيجابا عظيما وموجة كالجبال ، كما
قال الله تعالى وكنت حديث العهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عدى
حتى حيل لى أننى لو قال لى قادر لورحمت فى البحر ميلا واحدا ملكتك
الدنيا لما كنت أفعل واستحضت رأى من يركب البحر رجاء كسب ديار
أو درهم واستحضت رأى من لا يقل شهادة راكب البحر هنا كله خطر
لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه فينما أنا على ذلك
اد التفت الى وقال عن نفسه : « أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل
قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى جزائرهم أتبعهم
فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت » فعظم وقع
هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان يخطر لى وقلت له : « ليس فى
الأرض أشجع نفسا من المولى ولا أقوى بية منه فى بصرة دين الله »
وحكى لى ما خطر لى ثم قلت : « ما هذه الاية جميلة ولكن المولى

(١) انوشاة المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٥

يسير في البحر العساكر وهو سور الاسلام ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه :
« فقال أنا استفتيك ما أشرف الميئات ؟ فقلت : الموت في سبيل الله فقال
: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميئات . وهكذا كان شعور صلاح
الدين نحو الجهاد البحري وهو شعور قلما نجد مثله بين حكام العصر الوسيط .

نرى مما تقدم أن الحملة الصليبية الثالثة قد فشلت في تحقيق هدفها
الأساسي وهو استرداد الأماكن المقدسة في فلسطين من المسلمين إلا أنها
في الوقت نفسه استطاعت أن تسيطر على معظم شواطئ الشام بما فيها من
مواضع مثل صور وحيفا وقيسارية وأرسوف وبافافصلا عن عكا التي كانت
المنفذ الرئيس للمملكة بيت المقدس الصليبية على البحر المتوسط ثم صارت
مقرا اسميا لهذه المملكة بعد سقوطها .

وفي ختام عصر صلاح الدين ينبغي أن نشير إلى نقطة هامة وهي
أن طوائف المماليك الأسدية والصلاحيية والعادلية قد شاركت مع الأكراد
والعرب في كل هذه العمليات الحربية التي حاضها صلاح الدين ضد
ملوك الشام وضد الصليبيين فيصف ابن واصل في كتابه مفرج الكروب
، بلاء هؤلاء المماليك أثناء حصار الموصل سنة ٥٨٢ هـ / (١١٨٦ م)
وفي محاربة الصليبيين عند مدينة صور سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) وفي
الوقائع المتعددة التي حاول فيها صلاح الدين فك الحصار الصليبي عن
عكا سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ثم في المنازعات التي حدثت مع الصليبيين
بالقرب من القدس سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢) كما يذكر ابن واصل أسعاء
من أمته من المماليك في تلك الوقائع ^(١) ولم تمنع قوة صلاح الدين
وشدة هيبة من معارضة مملوكه ومخالفته في الرأي في بعض الأحيان

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٨٩-٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ص ١٢٦ .

ومثال ذلك انكارهم عزمة على التحصن ببيت المقدس انتظارا لحجى ريتشارد قلب الأسد لحصارها سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) إذ يث المماليك الأتراك رسالة إلى صلاح الدين يقولون فيها : لا مصلحة في ذلك فإننا نحصر ويجرى علينا ما جرى على أهل عكا ، وعدئذ تؤخذ بلاد الإسلام أجمع والرأى أننا نضرب مع العدو مصافا فإن قدر الله تعالى لنا أن نهزمهم ملكنا بلادهم وإن تكن الأحرى ، سلم العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الإسلام وعساكرها بمضى القدس . . . إنك إن أردتنا أن نقيم في القدس فتكون معنا أو بعض أهللك حتى نجتمع عنده وإلا فالأكراد لا يدينون الأتراك والأتراك لا يدينون الأكراد ، ونزل صلاح الدين على إرادة المماليك لأهمية القدس عنده واضطر أن يقيم من أهله معهم الأمير الأمجد صاحب بعلبك فتحكم بذلك من الاحتفاظ بالقدس في يد المسلمين ^(١) .

على أن موضع الأهمية في هذا الاقياس السالف الذكر هو أن المماليك بلغوا من القوة والكثرة فيما يبدو مما جعل صلاح الدين يستقيم لشورتهم فصلا عن نزوله على إرادتهم وفي ذلك دليل على مدى اعتماد الدولة الأيوبية مد ايامها الأولى على قوات المماليك الأتراك

وللمماليك الأسدية والصلاحية حمامات ودروب وحمامات وأسواق ومدارس ظل بعضها يحمل اسماءهم مدة من الزمان مثل درب الجاولى الكبير بجوار الجامع الأزهر نسبة إلى الأمير عر الدين الجاولى الأسدى ودرب الوشاقى بحارة رويلة نسبة إلى حمام الدين منقر الوشاقى الصلاحى ^(٢) وحمام كتبنا الأسدى بخط ما بين القصرين ^(٣) وحمام تتريناحية دار

(١) ابن واصل : المرجع السابق ج ١ ص ١٢٠-١٢١

(٢) المقرئى : الخطط .

(٣) المقصود بالقصرين : القصر الشرقى الكبير والقصر الغربى على عهد خلفاء الفاطميين ويقابلها الآن خان الحلبلى ومسجد الحمى وسوق الحصى بالقاهرة .

الوزارة الكبرى وكان تتر هذا أحد ممالك أسد الدين شيركوه وظل اسمه على تلك الجهة حتى خربت وسميت خرائب تتروان كانت العامة حرفت اللفظ فقالوا خرائب التتر وهناك حمام كرجي نسبة الى علم الدين كرجي الأسدي وهو سواحى خرائب تتر كذلك ذكر قيسارية جهار كس (عمارة كبيرة بها حوانيت) التي بناها الأمير فخر الدين ^(١) جهار كس الناصري بالقاهرة سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٦ م) وبنى في أعلاها مسجدا كبيرا وقد بلغت من العظمة مبلغا جعل جماعة من التجار الذين شهدوها يقولون بأنهم لم يروا في البلاد مثله في حسنها وعظمتها واحكام بنائها ولجهار كس أيضا مدرسة المعروفة باسمه المدرسة الجهار كسية ، وكانت ملاصقة لتربة بدمشق ودرس بها عدد من كبار العلماء مذكر منهم القاضي تقي الدين محمد بن عبد اللطيف السبكي ^(٢) الشافعي المتوفى سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٤ م) وهناك المدرسة الأزكشية التي بناها بالقاهرة الأمير أبا زكوج الأسدي والمدرسة المسروية التي بناها الحواص مسرور مقدم حلقة صلاح الدين وهناك حان المسيل الذي بناه بهاء الدين قراقوش الأسدي للمسافرين خارج باب المرح بالقاهرة وسوقة اللشون نسبة الى الأمير سنقر اللشون الصلاحى الى غير ذلك من المنشآت المختلفة التي ان دلت على شيء فانما تدل على مقدار ما بلعة ممالك الأيوبيين الأوائل من نفوذ وكثرة .

(١) يروى المقريزى أن جهار كس كلمة فارسية معناها أربعة أنفس ، على حين يروى أبو شامة أن لفظ جهار كس معناه أنه اشترى بأربع مائة دينار غير أن العموى يقول ان جهار كس وحركس وشركس طائفة من طوائف الشمال كالروس من مملكة توران .

(٢) هو والد تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، صاحب طبقات الشافعية الكبرى (ت ٧٧١ هـ) .

السلطان العادل سيف الدين الأيوبي (٥٩٦ - ٦١٥ هـ - ١١٩٩ / ١٢١٨ م).

أدت وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) إلى وقوع منازعات بين أبناء البيت الأيوبي مما أضعف المقاومة الإسلامية بوجه عام. ولقد انتهز ملك قبرص عموري لوزجناك هذه الفرصة وهاجم مدينة بيروت بأساطيله وجنوده وأستولى عليها سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٧).

وذلك بعد أن فرغها صاحبها عز الدين سامه بدون حرب أو مقاومة وقد أثار هذا العمل استياء الكثيرين مثل قول الشاعر المعاصر :

سلم الحصن ما عليك ملامه ما يلام الذي يروم السلامه

فقطاء الحصون من غير حرب () سنة سنها بيروت سامه

وعلى الرغم من أن الملك العادل قد استعاض بيروت بمدينة يافا التي استولى عليها في نفس السنة (١١٩٧ م) إلا أن الدولة الأيوبية في الواقع كانت قد أصابها الهلك سبب الممارعات الداخلية .

وترجع حوادث الحلف و الممارعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي إلى تطبيق مبدأ اعتبار المملكة إرثا خاصا بقسم أنصبة متساوية وغير متساوية بين أبناء البيت المالكة ، وهو ما جرى عليه العرف في دول الشرق والغرب أوائل العصور الوسطى كما يرجع إلى حرص صلاح الدين أن تكون أهم أقاليم المملكة لأبنائه دون غيرهم مثل أحية وأقدر القادرين على امتلاك ناصية الدولة بعده وهو العادل الذي عينه صلاح الدين على أطراف مبعثرة مثل الكرك والشوبك ومثل أبناء العادل كذلك .

على أن عوامل الانقسام ما لبثت أن دبت بين أبناء صلاح الدين أنفسهم مما جعل للعادل بينهم مدخلا سهلا ولم يمض على وفاة صلاح

الدين سوى سبع سنوات حتى طوي العادل معظم أولئك الأبناء فحل محلهم على رأس دولة موحدة وتظهر لنا سياسته الميكافيلية بوضوح في تصريحه الخطير الذي القاه على من حوله من أمراء الدولة بمصر مسرراً خلع الملك المنصور بن العزيز بن صلاح الدين : إنه قبيح بى أكون أتابك صبي مع الشجوة والتقدم والملك ليس هو بالارث وإنما هو لمن غلب .

وقامت طوائف المماليك الصلاحية والأسدية بدور كبير في تلك الحوادث اذ ناصرت الصلاحية العزيز بن صلاح الدين وأبى الملك المنصور وحاربت العادل وأطماعه . وكان مقدم الصلاحية الأمير فخر الدين جهار كس الناصري مملوك الناصر صلاح الدين ، أما الأسدية وكبيرهم سيف الدين يار كوح ، مملوك شيركوه أصلاً فان العادل استعمل ما بينهم وبين الصلاحية من تخامد وتنافس واستطاع في مكر ودهاء ووعود خلافة أن يستعملهم إليه ما عدا الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي بقي ثاباً مخلصاً للملك العزيز في القاهرة . وظل النزاع بين هاتين الطائفتين قائماً ما ظل الحلاف بين الملوك الأيوبيين حتى تعلب العادل ووجد كلمة بى أيوب فكان نصراً للأسدية وقد حلع عليهم الملك العادل ورد اليهم أقطاعاتهم أما طائفة المماليك الصلاحية فانها آلت الى ما آل إليه أبناء صلاح الدين وأحفادهم من الضعف وزادها ضعفاً وفاة بعض زعمائها أمثال جهار كس ^(١) في ٢٠ رجب سنة ٦٠٨ هـ (ديسمبر سنة ١٢١١ م) وعز الدين سامة فضلاً عن اضطهاد العادل لمن بقي من أولئك الزعماء باستيلائه

(١) دفن جهار كس بجبل الصالحية عند جبل فاسيون في شمال غرب دمشق ونقش على قبره المعروفة بقباب شركس العبارة التالية : هذه الثروة المباركة للأمير الكبير العازي المجاهد فخر الدين حافظ ثور المسلمين قاتل الكفرة المشركين إياهم جهار كس الناصري توفي عقب عودة المرأة في العشرين من رجب سنة ثمان وثمانمائة رحمة الله عليه وعلى جميع الأموات المسلمين أم

على حصونهم واقطاعاتهم .

وهكذا نجح العادل في توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت سلطانه ولقد اقتدى السلطان العادل بأخيه صلاح الدين في تحصين ثغور مملكته ولا سيما ثغر دمياط الذى كان المجاز المفضل لدى الصليبيين لهذا شيد سنة ١٢١٧ م مدينة العادلية جنوب دمياط على الضفة الشرقية لليل وشحنها بالمقاتلة والآلات الحربية حتى أصبحت مد ذلك الحين جهادية لحماية دمياط ومنع الصليبيين من دخولها وبالإضافة الى ذلك كان عند مدخل فرع دمياط برج عال مسمى فى وسط الليل ومشحون بالمقاتلة ويعرف ببرج السلسلة اذا كانت تمتد منه سلسلتان : أحدهما تتجه على النيل الى دمياط على الضفة الشرقية والأخرى تتجه الى حيزة^(١) دمياط وهى الشاطئ العربى المواحه لدمياط فاذا وثقت السلسلتان أمتنع على المراكب المرور من فرع دمياط لهذا كان السرج هو مفتاح دمياط أو قفل الديار المصرية كما يسميه المؤرخون المعاصرون ومن يقاده حائلا اسمه الذى يطلق على قرية فى شمال دمياط على الضفة الشرقية وهى عردة السرج ويقابلها على الضفة العربية مصيف رأس السر .

على أن هذه الحصانة التى تميزت بها دمياط وغيرها من الثغور لمصرية لم تغير من عزم الصليبيين على غزو مصر خصوصا بعد أن تبين لهم أن معظم المقاومة التى أبدوها صلاح الدين وأخوه العادل كان مصدرها مصر .

على هذا الأساس بدأ الصليبيون فى تعيد ما عزموا عليه بمعاودة الهجوم على مجازهم المفصل دمياط سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) وكانت هذه الحملة وهى المعروفة فى كتب التاريخ بالحملة الصليبية الخامسة قد

(١) الحيز فى اللغة الناحية ولعلها سميت كذلك لأنه يجاز إليها من دمياط

تجمع في عكا ثم أبحرت في أسطول صحم إلى دمياط بقيادة جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس التي لم يكن في يده منها سوى ثغر عكا وشاركه في القيادة نائب عن البابا اسم الكاردينال بلاحيوس وكان يحكم مصر في ذلك الوقت الملك الكامل محمد الأيوبي نيابة عن أية السلطان العادل الذي كان يحارب الصليبيين في الشام .

ثم نزل الصليبيون في الر العربي لمدينة دمياط (جيزة دمياط) وشرعوا في مهاجمة برج . مياط وقطع سلاسل لتعمر مراكبهم في بحر النيل .

وبعض الملك الكامل فأرسل الأساطيل إلى دمياط وصار يركب كل يوم عدة مرات من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وأعمال الحيلة في مكابدة الفرنج واستمر برج السلسلة يقاوم هجمات الصليبيين أربعة أشهر ثم تمكن الفرنج آخر الأمر من الاستيلاء عليه بعد أن أقاموا برجا ضخما على بطسة كبيرة ، سهل لهم التعلب على المقاومة المصرية .

وقد كان لهذا الحادث وقع أليم في نفوس المسلمين حتى أن العادل حينما بلغه خبره وهو بهرج الصفير بالقرب من دمشق تأوه وتأوها شديدا ودق يده على صدره أسفا وحزا ومرض من ساعته ثم مات بعد أيام قليلة .

السلطان الكامل محمد (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م)

استقبل الملك الكامل بملك مصر بعد وفاة أبيه وأخذ يعمل على عرقلة تقدم الأسطول الصليبي في النيل بعد أن حطمت سلسلة البرج فنصب عوضا عن السلاسل جسرا من السفن في عرض النيل ولكن الفرنج قاتلوا عليه قتالا شديدا حتى نجحوا في قطعه واختراقه عند ذلك أمر الكامل بتفريق عدة من مراكبه في النيل فاستحال بذلك على السفن الصليبية التقدم جنوبا .

واحتال الفرنج على هذا الاجراء بأن حفروا فرعا قديما من فروع النيل يسمى الخليج الأزرق كان يأخذ مياهه من فرع دمياط عند بلدة بورة^(١) ويصب في البحر المتوسط شمالا فأعاد الصليبيون حفره من الرمال التي طمرته وصارت مراكسهم تجرى فيه من البحر الى بلدة بورة التي تواجهها على الضفة المقابلة منزلة العادلية حيث يعسكر السلطان الكامل وبهذا اصبح الجيشان الأيوبي والصليبي وجها لوجه لا يفصل بينهما الا ماء النيل ودارت بين الفريقين معارك بحرية استطاع المصريون خلالها اسر مرمة (سفينة كبيرة) للفرنج كانت من عجائب الدنيا لا تعمل فيها النار لأنها مصفحة بالحديد وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا^(٢) .

واسمر الحال على هذا الوضع بضعة أشهر كانت دمياط خلالها في مأس من العدو اد كان النيل يعصل بينهما والامدادات تصلها بسهوله من العادلية ولكن الظروف سرعان ما تغير الأحوال اد وقعت مؤامرة في معسكر السلطان كان هدفها حلع الكامل وتولية أحية الفائز واكتشف الكامل المؤامرة في حينها ولكنه حشى على نفسه مهافترك معسكرة ليلا واسحب حوفا الس أشموم طنناح وهي أشمون الرمان حاليا بمركز دكرنس وحينما علم الجند بأسحاب قائدهم لحقوا به تاركين خيامهم وأثقالهم بالعادلية وانتهاز الصليبيون هذه الفرصة فعبروا النيل الى البر الشرقى

(١) بورة بلدة مدرسة على الضفة الغربية جنوب غرب دمياط يسب اليها السمك البورى ، ومكانها اليوم قرية كفر الطيخ والظاهر أنه لكثرة زراعة الطمح بأراضيها اشتهرت به فتلعب اسمة عليها واختفى اسم بورة (محمد رمري القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ج١ ص ١٧٦ ، ١٧٩) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ، ص ١٩٥

واستولوا على معسكر العادلة وما فيه من دحائر ثم صعدوا شمالا الى مدينة دمياط وأحرقوا بها من البر والبحر فى يناير سنة ١٢١٩ م.

وأستطاع السلطان الكامل فى ذلك الوقت أن يتغلب على المؤامره التى قامت ضده وأن يطرد رعماء المتآمرين من بلادة أمثال أخيه الفائز والأمير الكردي عماد الدين بن المشطوب ثم نهض لمحاربة الصليبيين وفك الحصار عن دمياط .

وحاول السلطان الاتصال بأهل دمياط ليرفع من روحهم المعنوية فعهد ابن جدى من رجال حرسه بسمى شمال أن يقوم بهذه المهمة الخطيرة فكان يسبح فى النيل بعيدا عن أعين الصليبيين الذين أمتلا الليل بمراكبهم فيدخل الى مدينة دمياط ويقوى قلوب أهلها ويعددهم بوصول النجديات ثم يعود الى السلطان بأخبارهم^(١) .

وطلت دمياط تقاوم بما يقرب من سنة حتى أستبد الجوع بأهلها وتفتشت الأمراض والأوبئة فيهم ، فانهارت مقاومتهم واستولى الصليبيون على المدينة وعاثوا فيها فسادا فى نوفمبر سنة ١٢١٩ م (شعبان ٦١٦ هـ) .

وكان السلطان الكامل فى ذلك الوقت محيما عند رأس بحر أشمون طناح (البحر الصغير حاليا) فى المرة التى عرفت بعد ذلك باسم المنصورة تيمنا بانتصاره^(٢) وكانت النجديات والأمدادات تصل اليه باستمرار بقيادة اخوته وأقربائه امراء الأيوبيين فى الشام الى جانب المصريين والعربان من

(١) المقهزى : السلوك ج ١ ق ١ ، ص ١٩٨ وقد كامأ السلطان هذا البطل الفيلانى بولاية القاهرة بعد ذلك ، والية تنسب لخزانة شمائل .

(٢) تقع مدينة المنصورة على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط وكانت فى أيام مؤسسها السلطان الكامل رولدة محاطة بالأسوار والآلات الحربية والمستأثر ثم أخذت تنمو حتى صارت من أهميات المدن المصرية .

أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي حتى أسوان ونودى بالفير العام بالآ
يقى أحد فاجتمع من المسلمين المجاهدين عالم لا يقع عليه حصر^(١).

كذلك وصلت إلى الصليبين في دمياط امدادات وفيرة من اوربا
والأمارات الصليبية في الشام فلما تكامل جمعهم تقدموا من دمياط
بجيوشهم وأساطيلهم وزلوا جنوبا تجاه بلدة طلخا شمالي المعسكر
الإسلامي بحيث صار لا يفصل المعسكرين سوى قناة أو بحر أشموم
طناح. ثم التحم الفريقان في قتال عنيف بالبر والبحر وقامت البحرية
الأيوبية النيلية بدور هام في تلك المعارك اذا يروى المقرئى أن الأسطول
المصرى بقيادة الأمير بدر الدين ابن حسون تقدم في مائة شينى وحراقة
كبيرة في بحر المحلة - وهو مزرع قديم كان يحرق وقت ذاك من النيل
قرب بنها ثم يتصل بالنيل ثنية شمالي طلخا والمصورة أى قرب ميدان
القتال وأستطاع أن يقطع الطريق على السفن الصليبية القادمة من دمياط بالميرة والدحائر إلى
ميدان القتال وأن يستولى على عدد كبير منها يرجالها وأسلحتها وميرتها^(٢).

ويصيف المقرئى أن السلطان الكامل استغل فرصة ريادة النيل في
ذلك الوقت ، وأمر جماعة من المسلمين بمسور بحر المحلة في الأرض التى
يعسكر عليها الفرنج ويفتحوا هناك مكانا عظيما في النيل فلم يشعر الفرنج
إلا والماء قد غرق الأرض التى هم عليها وحال بينهم وبين الرجوع إلى
دمياط وأصبحوا وليس لهم جهة يسكنونها سوى جهة واحدة ضيقة عند
بحر أشموم طناح ، سدها الكامل بعدد من جنوده فأنحصر الصليبيون من
سائر الجهات ، وأدركوا أنهم خسروا المعركة فلابوا إلى طلب الصلح

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ - ص ٢٠٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٧ .

وبعثوا الى السلطان الكامل يطسود الأمان لأنفسهم وأنهم يسلمون دمياط بدون قيد أو شرط وقبل السلطان هذا العرض وقد كان في مقدوره ابادتهم ودخلت الجيوش الأيوبية دمياط سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) ^(١).

وفي عهد السلطان الكامل كانت الحملة الصليبية العجيبة على بيت المقدس التي قادها امبراطور المانيا ومملكة الصقليتين (صقلية وبابولي) فردريك الثاني وهي الحملة المعروفة بالسادسة وكان قوامها مئاة حدى فقط ولم ترق فيها قطره من الدماء وذلك لأن الامبراطور فردريك توصل الى عقد معاهدة مع السلطان الكامل سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) استولى بمقتضاها على بيت المقدس بدون قتال .

وفي خلال هذه الزيارة توطدت الصداقة بين الامبراطور فردريك وبين السلطان الكامل وعدد من الأمراء و كبار رجال الدولة وعلمائها مثل الملك الأشرف موسى شقيق السلطان الكامل والأمير فخر الدين بن شيخ الشرح والقاضى شمس الدين قاضى العسكر الذى صحب الامبراطور أثناء اقامته فى الشام .

وبعد عودة الامبراطور الى بلاده أهدى الى الملك الأشرف موسى دبا أبيض فأرسل له السلطان الكامل جملة من الحيوانات الغريبة من بينها غيل أثار اعجاب الناس أما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فقد سافر الى الامبراطور كرسول للملك الكامل وتوطدت بينهما صداقة وثيقة وقد حفظ لنا المؤرخ الحموى محمد بن نطيف فى كتابه « التاريخ المنصورى » (نشر فى موسكو ١٩٦٠) عددا من الرسائل التى أرسلها الأمبراطور الى الأمير فخر الدين وهى تتضمن معلومات هامة عن أحوال الأمبراطور وأخبار دولته .

وكان فردريك الثانى شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وكثيراً ما كانت تعترضه

(١) روى المقريزى أن ألف مركب صليبية قدمت نجدة الى دمياط بعد أن تسلمها المسلمون فكان ذلك سبباً من الله سبحانه وتعالى ودليلاً على ذكاء السلطان الكامل وبعد نظرة السياسى .

فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلاً شافياً لها فكار يرسلها إلى اصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والأجابة عليها من ذلك مثلاً المسائل الرياضية والفلسفية التي أرسلها إلى الملك الكامل والتي أجاب عليها العالم الرياضي المصري علم الدين قيسر الاسفوني (نسبة إلى اسفون وهي قرية بالصعيد فبعث بها إليه الملك الكامل مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية كذلك أرسل فرديك الثاني مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف المتصوف الأندلسي ابن سبعين وهي مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهي . . . الخ أجابة عليها ابن سبعين وقد عرفت هذه الاسئلة بالمسائل الصقلية لأن الأمبراطور كان مقيماً في صقلية. هذا ولم تقتصر عظمة الكامل على الانجازات الحربية والسلمية التي حققها مع الغرب المسيحي ، بل تجده يسارع إلى ارسال عشرة آلاف جندي من مصر إلى بغداد سنة ٦٣٥ هـ للمساعدة في صد التتار بناء على طلب الخليفة العباسي المستعصر . وهو بهذا العمل يبين لنا مدى اهتمام مصر بالدفاع عن بلاد قبل سقوطها في ايدي التتار بواحد وعشرين سنة (١)

ثم توفي الكامل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) وحلقة على عرش مصر ابنه الأصغر وهو العادل الثاني وبقي ابنه الأكبر وهو الصالح ايوب على ولايته بالبلاد النصرية لأن أم العادل أرادت أن يكون ابنها سلطاناً فكان لها ما أرادت غير أن المماليك الكاملية لم يرضوا عما تم فحالفوا الأشرقية ومقدمهم عز الدين أيبك الاسمر وما زالوا حتى أنهزوا فرصة خروج العادل الصغير لمحاربة قريه صاحب الكرك فقتلوا عليه في بلييس وحلوه سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) ولم يتحرك لصرة العادل الصغير الا الأكراد الذين سرعان ما أنهزموا على يد المماليك الكاملية والأشرقية من الأتراك (٢)

(١) المقريزي : الملوك ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، قريال قطان . الحجاز في ظل الدولة الأيوبية ص ٢٥١

(٢) المقريزي : الملوك ج ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

ومن هذه الحادثة يتبين مدى تفوق القوة المملوكية التركيه على القوة الكردية في دولة بنى أيوب .

ولم تكن اصبح الصالح أيوب صاحب الحق في العرش بعيدة عن تلك الحوادث غير أن الكاملية والأشرفية الذين اتفقوا على خلع العادل الصغير اختلفوا بينهم حول خلفه ومال الأشرفية الى سلطنة اسماعيل ابن العادل الأول صاحب دمشق وعم الصالح أيوب على حين مال الكاملية وهم أقوى شوكة الى الصالح أيوب ، فلم يسمع الأشرفية الا موافقتهم وأستدعى الصالح أيوب أحييرا لتولي السلطنة في مصر فدخلها سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) ^(١) .

وكيفما كان الأمر فالملهم هنا هو أن المماليك بلغوا من القوة في الدولة الأيوبية ما جعلهم يخلعون سلطانا ويقيمون آخر .

السلطان الصالح أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ - ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م)

وعنى الصالح أيوب منذ تبوءة عرش مصر بالأكثر من شراء المماليك الاترك الى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم ^(٢) ، بعد أن ظل عنصر الأكراد الأحرار عدة الدولة الأيوبية منذ نشأتها والسبب في ذلك يرجع الى خوف الصالح أيوب من اجتماع الملوك الأيوبيين ضده بزعمامة عمه اسماعيل وخشية من انقلاب الكاملية والأشرفية عليه اذا رجعت لديهم كفة أعدائه ^(٣) هذا ، ويدل ان الصالح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٣٧ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٦

(٢) ابو الفداء ك المختصر فى أخبار البر ج ٢ ص ١٨٨ ابن الجوزى : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

أيوب لم يستكثر من المال فحسب بل أنه اباح لهم الحرية دون غيرهم من الطوائف الأخرى حتى ضج الأهلون من عيشتهم واعتداءاتهم على النفس والمال^(١).

عندئذ رأى الصالح أيوب أن يبعدهم عن العاصمة فابتنى لهم سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤١ م) قلعة خاصة بحزيرة الروضة قرب المقياس وأسكنهم بها كما اتخذها مقرا للملكه وزودها بكثير من الأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج اليه من العلال والمؤن وعرف هؤلاء المماليك الجدد بأسم المماليك البحرية الصالحية^(٢) والماليك البحرية مثل غيرهم من المماليك السابقين واللاحقين أنعد ما يكونون من الححل من أصلهم أو فصلهم أو شأتهم بل طالما افتحروا بأنهم مماليك لأن علاقة المملوك بسيده في الشرق عامة علاقة عائلية أكثر منها علاقة عبيدية ولم يحل ذلك الأصل دون تربيتهم تربية طيبة وأعدادهم أحسن أعداد لوطائف الحكومة والأدارة والحيش غير أن المراجع المعاصرة لا تشرح طرق التربية التي سار عليها الأيوبيون في نشئة المماليك بل ليس لديها في ذلك الصدد سوى ما كتبه المقرئ في وصف ما حرت عليه الدولة المملوكية نفسها في تربية ممالكها بعد ذلك. على أن الاعتماد ها على مبدأ تطبيق المتأخر على المتقدم يدعو الى الاطمئنان إذا المعروف أن الدولة المملوكية وليدة الأيوبيين ونظمها من

(١) قال في ذلك أحد الشعراء المعاصرين (أبو الهاس الحوم الراهرة ج ٦ ص ٣١٩) .

الصالح أيوب أكثر من ترك بدولته يأسر مجلوب

قد أخذ الله أيوبا بفعله فأنس أصبحوا في صر أيوب

والضرها اشارة الى قوله تعالى وأيوب اد نادى ربه انى منى الضر ولنت أرحم

الرحيم (سورة الأنبياء)

(٢) المقرئ : المخطوط ج ٢ ص ١١٦ ، ٢١٧ .

نظمهم ، ولا محل للتردد في القول بأن الصورة التي أوردتها المقرئ في شرح تربية المالك على عهد الدولة المملوكية لا يمكن أن تخرج عن الصورة التي درج عليها الأيوبيون في تربية ممالكهم ، ماعدا ما يكون هناك من التعديلات التفصيلية التي أدخلها سلاطين الممالك أنفسهم ، فإذا قدم بالمملوك قاجره ، عرضه على السلطان فيشتريه ويجعله في طبقة جنسه ، ويسلمه إلى المختص برسم الكتابة فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ولكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الحظ والتحريم بآداب الشريعة الإسلامية وملازمة الصلوات والأدكار وصار الرسم إذ ذاك لا تجلب التجار إلا الممالك الصغار فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه فنون الحرب في رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ العاية من معرفة ما يحتاج إليه ، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنومهم عند ذلك ينقل إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذا إلا وقد تهذبت أخلاقه ، وكثرت أدابه وأمتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه ، وأشد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل وقد كان لهم خداما وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحفا شافيا ويتواخذونه أشد المؤاخذة ، ويتناقشونه على تحركاته وسكناته فان عشر أحد مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس التوبة الذي هو حاكم عليه ، على أنه اقترف ذنبا ، أو أخل برسم أو ترك أدبا من آداب الدين أو الدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمة فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في

سبيل الله وأهل سيامة يبالغون في تطهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى^(١) .

ويعمل القلقشدي سبب قوة هذا النظام المملوكي لكوبة خلاصة الأنظمة المملوكية السابقة وحصيلة تجاربها فيقول ودأبت سلطنة الممالك في مصر على أن تنقل عن كل مملكة سقتها أحسن ما فيها فسلكت سبيله وسجت على مواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب وهاقت سائر الممالك^(٢) .

وللممالك الصالحية الجمية بالقاهرة حانات ودروب وحمامات ومدارس على عرار شات الممالك الأسدية والصلاحية بذكر منها المدرسة العرنوية التي بناها حمام الدين فأبهر الصالحى الحمى^(٣) والحنفاء السقندرية التي بناها الأمير علاء الدين السقندرى الصالحى الحمى^(٤) ومطبخ سكر الأمير فارس أنطاكي الصالحى الحمى^(٥) ، وحمام الرومى بجوار حانة برحوان سنة الى الأمير سقر الرومى الصالحى^(٦) . . . الح وكل هذا يدل على أن الدولة الأيوبية استخدمت الممالك الأتراك استخداما واسعا بدليل كثرة الماني والعمائر التي شيدها هؤلاء الممالك .

بقيت مسألة التحقق التصحيح في موضوع الممالك البحرية هي أن معظم المؤرخين السابقين والمحدثين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم

(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢١٣-٢١٤

(٢) القلقشدي : صبح العنى ج ٤ ص ٦

(٣) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٣٩٠

(٤) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٤٢٠

(٥) ابن ديمق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٤٤

(٦) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٨٣

الدين أيوب هو أول من رتب الممالك البحرية وأول من سماهم بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بشكنتهم في جزيرة الروضة ، غير أن هذا الرأي لا يستند على أساس صحيح للأسباب الآتية :

أولاً : المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل وإبى شامة لم يثيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية . هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين أمثال المقرئ وأبى المحاسن^(١) .

ثانياً : من المعروف أن الفاطميين من قبل ، كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالغز البحرية كذلك كان للسلطان العادل الأول ، جد الصالح فرقة من المماليك أسماها البحرية العادلية وهذا يدل على أن الملك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ .

ثالثاً : يروى الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت ٦٤٧ هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر ، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسبون من القروسية والرمي ما لا يحسنه ممالك مصر وكان معه من المماليك الصغار قريب منهم في العدد خارجاً عن حلقة وعساكر امرأة^(٢) .

هذا النص يدل على أن لفظ بحرية أستخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل .

رابعاً : أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم الفرنج الغرب البحرية فيروى أبو شامة أنه في سنة ٥٩٣ هـ فتح الملك العادل يافا

(١) محمد مصطفى وهبه: بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة للملك . مجلة كلية أدب القاهرة ١٩٣٦

(٢) راجع : (الخزرجي العقود الثلاثة في تاريخ الدولة الرسولية ج ١ ص ٨٢)

ومن عجيب ما بلغنى أنه كان فى قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية فلما تحققوا نقب القلعة وأخذوا دخلوا كنيستها وأغلقوا عليهم بابها وتجالدوا بسيوفهم بمعصم لبعض الى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج متمسكون فالفروهم قتلى عن آخرهم فعجبوا عن حالهم^(١).

فلفظ بحرية اذن لم يكن جديداً على مصر حتماً أنشأ الملك الصالح أيوب فرقة البحرية ، بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء كما استخدم فى مصر وفى خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب وهذا يؤيد القول بأن سمة هذا اللفظ الى بحر النيل أمر مشكوك فى صحته . على أن المشكلة الأخيرة فى هذا الصدد هى لماذا سميت هذه الفرق بالبحرية ؟ للأمانة على هذا السؤال يجب أولاً أن نشير الى ما قلناه آنفاً عن خطأ الفكرة الشائعة بأن لفظ بحرية يرجع الى بحر النيل الذى أحاط بثكنات فرقة البحرية الصالحية بجزيرة الروضة فهذه السمة لم يذكرها المؤرخون المعاصرون بتاتاً ، فضلاً عن أن وجود هذا الاسم مد العهد الفاطمى فى مصر يتفق هذا الرعم أيضاً

وأغلب الظن أنهم سموا بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار إذ جاء فى جوائفل أنهم يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحر^(٢) وجوائفل الذى حارب المماليك البحرية الصالحية فى حملة لويس التاسع وأمر عندهم

(١) ابو شامة الدليل على الرومانيين ، بشرة عرت القطار الحسبى تحت عنوان (تراجم ورجال القرنين السادس والسابع الهجرى) ص ١٠-١١، ٥٢، ١٥١- هذا ويلاحظ أن كلمة الغرب البحرية قد تقرأ أيضاً « العرب البحرية » أى أنهم كانوا غير متزوجين .

(٢) انظر (Joinville. History Of Saint Louis, Tr. Joan Evans P, 84)

وتحدث إليهم رواية لها قيمتها بصفته رجلا معاصرا وشاهد عيان وإذا علمنا أن الممالك البحرية رعى الأيوبيين والممالك عبارة عن فئة من العرباء الذين جلبوا من أسواق الحامسة بالقومار وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط حيث يسرون فيه إلى مباءة المكدونية أو دمياط تأيدت لدينا عبارة جواتفيل (١) .

غير أن فضل جواتفيل لا يقتصر على تفسيره لفظ بحرية التي لصقت بدولة الممالك الأولى بل يتعداه إلى تسجيله حوادث الحملة الصليبية السابعة التي حاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا للأستيلاء على مصر . ففي تلك الحملة وصحت قيمة الممالك البحرية وحوادثها هي التي مهدت لهم ولدولتهم في مصر والشام ذلك أنه بينما تستقر الأمور للصالح أيوب في مصر والشام إذا بالأساء بصله بأن حملة صليبية في طريقها إلى مصر وأن قائدها العرنييس (أي ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس) ويقول ابن واصل والمقرئ أن أحوار تلك الحملة بلغت السلطان الصالح أيوب عن طريق الأمير طور فردريك الثاني هوشتاوفر أمير طور المانيا وصقلية وأن رسوله تنكر في زى تاجر قصد إلى حصرة السلطان الصالح أيوب فوجده مربعا بدمشق (٢) .

وإذا كان سقوط بيت المقدس في أيام صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) هو الذى بعث إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة فإن سقوطها في سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤) في يد الملك الصالح أيوب

(١) القلقشندي : صبح الأشي ج ٤ ص ٤٦٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٢١ ، المقرئ ، السلوك ج ١ ص ٢٣١ حاشية ٢ وكذلك King . The Knights Hospitallers in The Holyland P.240

وحلفاء الخوارزمية^(١) كان السبب الذى أدى الى الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة بقيادة لويس التاسع على مصر^(٢) إذ أن أنباء الهزائم التى منى بها الصليبيون عند غزوه ، وتسليمهم بيت المقدس والنفطائع التى ارتكسها الخوارزميون وصلت أوروبا فى كثير من المبالغة المعهودة ، فكان لابد لتلك الأنباء أن تثير الروح الصليبية فى قلب لويس التاسع .

غير أن تلك الحملة تختلف عن الحملة الثالثة وغيرها من الحملات الصليبية عموما فى أنها لم تكن شاملة لمختلف الأوربيين ، بل فرنسية أغلبها من الفرنسيين لأنصاراف ألمانيا وإيطاليا وقتذاك الى النزاع الامبراطورى البابوى وفشل لويس التاسع فى إزالة الحلف بين البابا ابوست الرابع والامبراطور فردريك الثانى . ففى مجمع ليون الدينى وهو المجمع الذى

(١) ويلاحظ ان الجود الخوارزمية هاهم فى الأصل جنود جلاد الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية التى قضى عليها جنكيز خان المغولى وشرد جنودها فصاروا ماسر حربية تحاول الدخول فى طاعة من يريد استعادتها وقد صاهر الصالح أيوب زعيما من رحماء تلك الماسر واسعة بركة خان لاد روجة اخوة من أمة واستعان به ضد الصليبيين واسترداد القدس (٢) الواقع ان استرداد بيت المقدس تم أولا على يد الملك الناصر دواود بن الملك المعظم ابن العادل صاحب الكرك سنة ١٢٤٠م أى بعد اثنتى عشرة سنة من تسليم الكامل له لفردريك الثانى وقد مدحه الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح بقولة .

المسجد الأقصى له عادة سارت فسارت مثلا سائرا

اذا غدا به الكفر مستوطنا ان يث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا وناصر طهره آخر

ولكن الصليبيين استولوا عليه مرة أخرى سنة ١٢٤٢ بمساعدة الناصر دواود نفسه نظير تحالفهم معه ضد الملك الصالح أيوب فما كان من هذا الأخير الا أن استجد بصهره بركة خان وجنود الخوارزمية الذين هزموا القوات المتحالفة فى غزة واستردوا بيت المقدس سنة ١٢٤٤ كما هو فى المتن

عقد سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) للنظر فيما وصل الى البابوية من أخبار الشرق وأعلنت فيه الحملة بقيادة لويس التاسع دعا البابا الى حملة سماها صليبية ضد فردريك الثانى باعتباره خارجا على الكنيسة مقطوعا من رحمتها .

وكانت الفكرة السائدة فى أوروبا المسيحية منذ أواسط القرن الثانى عشر الميلادى أنه ما دامت مصر باقية على ماهى عليه من القوة والبأس فان مشاريع الصليبيين فى الشام فاشلة لا محالة ، ولا بد من حرمان الجبهة الاسلامية من تلك القاعدة الحربية الهامة . وأصل تلك الفكرة عمورى الأول صاحب الحملات المشهورة التى مهدت للدولة الأيوبية فى مصر واتخذها حنا برين Jean de Brienne ملك بيت المقدس محورا لسياسة وحملته الفاشلة التى دهمت الشواطىء المصرية سنة ٦١٥هـ (١٢١٨) زمن السلطان الكامل كما جعلها لويس التاسع وسيلة لتحقيق غاياته واحلامه الصليبية ولم تخف تلك الحقيقة على المؤرخ ابن واصل حينما قال . . . ان ملك فرنسا ريذا فرانس حدثت نكسة بأن يستعيد البيت المقدس الى الفرغ . . . وعلم أن ذلك لا يتم الا بملك الديار المصرية .

ثم أبحر الأسطول الفرنسى من ميناء مرسيليا فى خريف سنة ١٢٤٨م الى جزيرة قبرص التى كانت تحت حكم آل لوزجنان Lusignan وهم مسيحيون لاتينيون وهناك أقام لويس التاسع مدة الشتاء أجرى خلالها بضعة اتصالات مع المخول بغية تحويلهم الى المسيحية والاستفادة من جهودهم فى تطويق العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى^(١) وأخيرا ابهرت الحملة من قبرص فى مايو سنة ١٢٤٩م متجهة الى مصر

(١) لم ينفذ الخان المغولى هذه الحملة حتى إن لذلك لويس التاسع ندم فيما بعد على حسن ملكه لرسلة .

بعد أن بلغ عدد رجالها حوالي الخمسين ألف محارب وصحب الملك
أخوه شارل دي أنجوا Anjou وروبرت دي أرتوا Artois.

وعلم الملك الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون مجاز
الصليبيين المفضل في غزو مصر فعسكر بجيوشه جنوبها في بلدة أشمون
طناح وهي أشمون الرمان بمركز دكرنس في العصر الحاضر وأمر
بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من عرب
بني كنانة كما أرسل جيشا إليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف وأمره أن
يرل بساحلها العربي ليحول دون نزول العدو إلى الشاطئ فنزل هناك تجاه
المدينة وأصبح النيل بينه وبينها .

ثم وصل الاسطول الصليبي إلى المياه المصرية قبالة دمياط في تاريخ
٤ يونية سنة ١٢٤٩م وفي اليوم التالي نزل الصليبيون إلى البر العربي لليل
حيث وقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات ، انسحب بعدها الأمير فخر
الدين بجيشه وبحامية المدينة إلى المعسكر السلطاني بأشمون طناح وجفل
أهل دمياط على أثر ذلك خائفين مدعورين وتركوا حرس السفن الذي
يصل بين البر الغربي ودمياط قائما فعبر عليه الصليبيون واحتلوا المدينة
بسهولة واستشاط السلطان الصالح أيوب غضبا لما وقع فأمر بشنق الكتائبين
الذين أرتدوا عن دمياط دون قتال كما تعير على الأمير فخر الدين واشتد
في تأنيبه لدرجة أن بعض الأمراء هموا بقتل السلطان لولا نصيحة فخر
الدين لهم بالترث لأن السلطان مريض بمرض خطير وصائر لأجله عن قريب .

ويعمل المؤرخ الفرنسي المعاصر جوانفيل ، ذلك الاستحباب بأن
الأمير فخر الدين راسل السلطان ثلاث مرات بالحمام الزاجل يخبره بنزول
الفرنج إلى الساحل ولكنه لم يلق ردا فظن أنه مات وأثر الرحيل بسرعة . ويفهم

من كلام ابن واصل والمقريري أن الأمير فخر الدين كان يطمع في سلطنة مصر لنفسه «وأن همة كانت تترقى إلى الملك» فلعل انسحابه كان سبباً لتحقيق أمنية اعتقاداً منه بأن السلطان قد مات .

وكيفما كان الأمر فإن السلطان اضطرب أمام هذه الأحداث إلى الارتداد بمعسكره إلى مدينة المنصورة حيث نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل ورابطت السفر الحربية في الليل تجاه المدينة ، كما أحدث جموع العربان والجنود المطوعة نفد إلى تلك القاعدة الجديدة لمواجهة الخطر الداهم .

وصارت العمليات الحربية في تلك الاثناء مجرد عارات يشنها الفدائيون المسلمون على معسكرات الصليبيين واحتطاف كل من تصل أيديهم إليه ، فادا شعر بهم الفرنج ، القوا بأنفسهم في الماء وسحوا إلى أن يصيروا في بر المسلمين وكانوا يتحلقون في اختطاف الفرنج بكافة الطرق التي تثير الدهشة والأعجاب مثال ذلك أن مجاهداً من المسلمين قوربطيحة خضراء وأدخل رأسه فيها ثم عطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنه بعضهم بطيحة سائنة في الماء ولما نزل لأخذها حطفت ذلك الفدائي وأتى به أسيراً إلى معسكر المسلمين .

واستمر الحال على ذلك المنوال ستة أشهر من يونيو إلى نوفمبر سنة ١٢٤٩م ولويس التاسع ينتظر في دمياط قدوم اخيه الثالث كونت دي بواتيه فلما وصل هذا الأمير عقد الملك مجلساً للتشاور في أحسن طريقة تسلكه الحملة فأشار البعض بالذهاب إلى الاسكندرية^(١) لأنها مرفأ طيب

(١) انظر Oman : History Of Art of War In The Middle ages Vol. I .P.54

يمكن أن تأوى إليه السفن ويكون التموين فيه سهلا ولكن الكونت دى
أرتوا عارض ذلك رأى قائلا بضرورة الذهاب الى أهم مدينة بالقطر
المصرى وهى القاهرة ، فمن يريد قتل الثعبان فليحطم رأسه أولا ووافق
لويس التاسع على رأى أخيه^(١)

وبينما يستقر رأى على الرحى صوب القاهرة توفى الملك الصالح
أيوب فقامت زوجة شجر الدر^(٢) بتدبير شئون الدولة بعد أن أخفت خبر
موتة خوفا من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين وفى الوقت نفسه
أرسلت الى ابن زوجها وولى عهده تورانشاه تحية على الرحيل من ولايته
فى حصن كيفا بأطراف العراق والقدوم الى مصر ليعلى السلطنة بعد أبيه .

ثم علم الفرنج بوفاة الصالح أيوب ، فانتهزوا الفرصة وتركوا دمياط
زاحفين جنوبا على شاطئ النيل الشرقى لفرع دمياط وسفهم تسير
حذاءهم فى النيل وبعد عدة وقفات فى فارسكور وشارمساح وقارامون ،
وصلوا الى بحر أوقناة أشموم^(٣) طاح فى ١٦ ديسمبر سنة ١٢٤٩م
فصار على يمينهم النيل وأمامهم قناة أشموم التى تفصلهم عن معسكرات
المسلمين القائمة عند مدينة المصورة ولمواصلة التقدم جنوبا تعين على

(١) Joinville . History Of saint Louis tr by Evans P.54

(٢) المصادر المعاصرة وشدة المعاصرة تذكر الاسم كما ورد ها فى المتن: شجرة الدر أما المراجع
المتأخرون فتدكر بصيغة شجرة الدر ومن الواضح أن تسمية المعاصرين وأشباههم هى الأصح
وقد ايد المؤرخون الأوربيون صحة تسميتها بشجر الدر أشال دائرة المعارف الاسلامية ولين
بول وجاستون ميت وكنج وغيرهم .

(٣) هو المصروف اليوم باسم البحر الصغير احد مروع الرى الشهيرة بمحافظة الدقهلية وكان
يسمى بحر اشوم نسبة الى مدينة اشوم طاح الواقعة على راح : ابو الحسن النجوم
الزاهرة ج ١ ص ٢١١-٢٢٢ حاشية رقم ٥ .

الفرنسيين أن يعبروا إما فرع دمياط أو قناة أشموم فاختار لويس التاسع القناة وما زال حتى دله بعض الحوة على مخائضها مقابل مبلغ من المال فعبرت الخيالة الصليبية دون أن تدق مقاومة أثناء عبورها^(١) ولم يشعر المسلمون إلا والفرغ معهم في المعسكر فانتشر الدعر بين الجند وخرج الأمير فخر الدين يوسف قائد الجيوش المصرية من الحمام وامتنطى صهوة جواده دون أن يلبس درعه ، وحاول أن يلم شمل الحنود القارين بالهجوم هو وبعض مماليكه على العدو المتقدم ولكن السيوف اعتورته من كل جانب وسقط قتيلاً بعد أن تفرق عنه فرسانه واقتحم الصليبيون بقيادة روبرت أرتوا أحد أبواب المنصورة وواصلوا محومهم في غصائل صغيرة مبعثرة الى داخل المدينة يقتلون المصريين يمينا وشمالا حتى وصلت طلائعهم الى أبواب قصر السلطان فتمككهم وانتشرت حودهم في أزقة المنصورة حيث أخذ السكان يرمونهم بالحجارة والطوب والسهام ويحما الكل على ذلك حتى فرقة الممالك الحرة الصالحة قواها خارج المدينة ثم أطلقت على الفرغ بقيادة الأمير بيمرس السندقاري فانقلب نصر الصليبيين الى هزيمة ، وأوسعهم المماليك قتلا حتى أهلكوهم عن آخرهم تقريباً بما في ذلك الحوب أرتوا نفسه الذي لقي بذلك حراء تهويزه وأنداعه^(٢) .

وبعد ذلك بقليل وصل ملك فرنسا الى ميدان القتال ونجح في إقامة جسر على بحر أشموم لتعبر عليه الرجالة ، غير أن الروح المعنوية الجديدة

(١) المقرئى : لا أدرك جـ ١ ص ٣٤٩ حيث ترد الأقوال الخاصة بـس دل العرج على المعبر

(٢) بلغ عدد قتلى الفرحيين في تلك الموقعة حوالي ٥٠٠ فارس

Oman : Op . Cit I p356

راجع :

التي أثارته موقعة المنصورة (٨ فبراير سنة ١٢٥٠م) في صفوف المسلمين قد طغت على هذا النجاح المؤقت الذي أحرزه الفرنسيون .

وفي اليوم التالي عقد قائد الجيش الأمير فارس الدين أقطاي الصالحى مجلس حرب عرض فيه على المسلمين كزاغند^(١) الكونت أرتوا قائلاً بأنها مشرة الملك نفسه وأن شعاعاً بدون ملك ، جسم بلا رأس ولا يخنس منه خطر، وعلى ذلك سوف نهاجم الفرنسيين فى يوم الجمعة . اذا طاب لكم ذلك ، وفى فجر يوم الجمعة وهو الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠م أمر أقطاي أربعة آلاف من فرسانه بالتقدم حتى أحاطوا به عسكر الفرنج ، وهذا خلاف فرق الاحتياطى الرابطة عن كتب مستعدة للدوراء وبعد أن أنتهى أقطاي من ترتيب جيوشه تقدم بمفرده راکباً فرساً لبشده صفوف الصليبيين ومراكز القوة والصعب فيها حتى يحرك قواته على أساسها . وشعل هذه العمليات وقت أقطاي حتى منتصف النهار ثم أمر بفرع القنارات^(٢) ومن ثم بدأ الحياة والمشاء فى الهجوم من جميع النواحي كما لو كانوا يلقون الشرط على حد قول جوازيل^(٣) واستخدم المماليك النار الاعرفية فى هجومهم ولكن الملك لويس تمكن من الشات واعاده حط القتال إلى ما كان عليه بعد أن تكبد حشائر فادحة وبذلك تنتهى موقعة المنصورة الثانية ، التي أيقض الصليبيون بعدها أنهم لا يستطيعون البقاء فى

(١) الكراعد المعطف القصير فوق الزردية ويلاحظ هنا أن المسلمين احتلظ عليهم الأمر حيناً وجدوا على المعطف الشعار الملكى العربى وهو رهرة الرنق Fleur de Lis منقوشة معطف الملك نفسه وأن الذى قتل هو لويس التاسع .

(٢) القنارات هى من الآلات الخاصة بمركب السلطة منذ عهد الفاطميين تحمل فى ركاب السلاطين الى ساحة الحرب تستخدم فى إصدار الأوامر وفى الايمان بدء القتال وكانت تحمل على عشرين بعلاً ، على كل بعل ثلاث مها مشى راجع (القلقشدى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٧٥ .

(٣) لعل جوازيل يقصد بلعة الشرطخ فى زمان المسلمين كانوا على شكل درج en echelon

مراكزهم ، وأن عليهم الاسحاب الى دمياط قبل فوات الفرصة ^(١) .

ثم لم تمض أيام على هذه الموقعة حتى قدم نورانشاه الى مصر (٢٧ فبراير سنة ١٢٥٠ م) فأعلنت وفاة الصالح أيوب وسلطته شجر الدر مقاليد الأمور وما لبث السلطان الجديد حتى تولى قيادة الحيوش بنفسه وأخذ في تدبير خطة لاجبار لويس التاسع على التسليم وخلاصتها أن يقطع خط الرجعة على الفرنسيين ، لذا أمر نورانشاه بنقل عدة سفن مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وانزالها في الليل وراء الخطوط الفرنسية ^(٢) وبهذه الوسيلة تمكنت اساطيل المصريين من مهاجمة كثير من السفن الفرنسية المحملة بالمواد والأقوات والأستيلاء عليها وأسر من فيها ونجح عن ذلك حلول المحاربة بالمعسكر الفرنسي ونهش الأمراض والأوبئة بين الجنود فساء حالهم واضطر الملك الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد الساحل الشامي ، ولكن المصريين رفضوا هذه الشروط علما منهم بسوء حاله المرع فعزل الملك على الأسحاب تحت حج الظلام وأمر بأزالة الجسر الذي على قناه أشمون غير أن الصليبيين تعطلوا أمرهم فسهاوا عن قطع الجسر فعبر المصريون في الحال وركبوا أعناق الصليبيين وبذلوا فيهم سيوفهم واستمرت المطاردة حتى فارسكور حيث أهدقوا بالصليبيين من كل جانب فقتلوا وأسروا منهم عددا كبيرا ^(٣) وغنموا معظم حيولهم وعتادهم وأموالهم وأبلى الماليك

(١) انظر Joinvil : cit. P.80

(٢) هذه الخطة أتمها من قبل جده السلطان الكامل بعد حملة جلال الدين على مصر سنة ١٢١٨ م كذلك أوصاه بها أبوه الصالح أيوب في وصيته التي تركها له قبيل وفاته والتي أوردتها التويري في كتابه نهاية الارب في مول الأدب ج ٢٧ لوحة ٨٩ - ٩٣ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارض علمة

(٣) يقال ان عدد القتلى في موقعة فارسكور بلغ ثلاثين ألفا وقد كتب نورانشاه نفسه هذا العدد في خطابة الى جمال الدين بدمشق نالفة في دمشق وان كان يبدو أن هذا التقدير مبالغ فيه

البحرية الصالحية ولا سيما أقطاي ويسرس البند قدارى بنى فارسكور بلاء
حسنا حتى أطلق ابن واصل عليهم «دلاوية الاسلام» اشارة الى ما صار لهم
من قوة تشبه فرسان الدلاوية عند الصليبيين^(١).

أما على الصعيد الشعبى فقد كانت الروح المعنوية عالية والمشاركة
الحرية شاملة وقد سبقت الاشارة الى صور منها ويعطيا هنا المؤرخ
السكندري ابو القاسم، النويرى صورة حية من أعمال المقاومة الشعبية فى
ذلك الوقت فيقول :

حدثنى أحمد الدمياطى عن والده المعروف بابن طهليش قال :
كنت أصطاد السمك بدمياط ، فلما كانت وقعة دمياط ، كنت ابن
خمس عشرة سنة فكنت أجهد الجماعة من العرغ على ساحل البحر
(النيل) شائرين من الجوع فطرح عليهم الشبكة وأبادرهم بالذبح
وأحمل رؤوسهم فى الشبكة وأتى بها السلطان وكان السلطان رسم بأن
من أتى برأس أفرنجى يأخذ ديناراً ، فأخذت بعدد مامعى أول مرة من
الرؤوس عن كل رأس ديناراً ثم أعطيت بما حثت به ثانى مرة عن كل
رأس درهما وكان عيرى قد أتى بالرؤوس فأعطى كما أعطيت فقلت
أخذت أولاً بكل رأس ديناراً وأخذ الآن لكل رأس درهما ؟ فقلت
الرؤوس لكثرتها من ذبح المسلمين لهم فصار لكل رأس بدرهم ، وكان
دبحهم هيناً على المسلمين بسبب جوعهم ، لأن المسلمين قعدوا لهم
على طريق ميرتهم متى يأتونهم بها من عند أصحابهم بدمياط فيقتلونهم

(١) فرسان الدلاوية أو المبد أو الهيكل Tempers من أشهر جماعات الفرسان الدينية ابان
الحروب الصليبية التى جمعت بين مبادى الرهينة ومبادى الصروسية وهذه الطائفة مشهورة
بسلحتها وشدة بلائها فى الحروب فلا عروان شبه بها ابن واصل فرقة للملك البحرية الصالحية .

ويأخذون الميرة منهم فجاءت الفرنج الذين يقاتلون المسلمين واتحلت عزائمهم عن القتال ، وكسرت الخولة عليهم الجسور ففرقوا بماء النيل وأسر منهم نحو سبعين ألف نفر حتى ملكهم الفرنسيين (١) .

ولم يشأ لويس التاسع أن ينجو بنفسه رغم الحاح الدونستاريا عليه ، بل قرر الإقامة مع المؤخرة كى « يحمى أصحابه » على قول ابى المحاسن ولذلك تمكن المصريون من أسره وأسر من معه من الأشراف والفرسان فى قرية منية أبى عبدالله (٢) شمالى المنصورة بضعة أميال ثم سرق لويس التاسع الى مدينة المنصورة حيث سجن بدار القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان (٣) .

وهكذا وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالسابعة الى نهايتها الفاشلة بفضل الممالك البحرية ولم يبق الا المفاوضات من أجل الصلح .

ولا شك أن فشل هذه الحملة الصليبية يدل دلالة واضحة على جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية ، فقد كان الأحرار بهم اتباع طريق الصالحية - بلبس الذى سار فيه أكثر غزاة مصر مثل قمييز

(١) راجع (محمد بن قاسم الورى السكندرى - كتاب الامام بالاعلام فيما جرب به الأحكام والأمر المقضية فى وقعة الاسكندرية) مخطوط رقم ٦٦٧ بكلية الآداب جامعة

الاسكندرية . وقد نشره الدكتور هزيم سوريال فى ٧ أجزاء فى حيدر أباد سنة ١٩٧٦

(٢) منية أبى عبد الله قرية لا تزال موجودة الى اليوم على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط وهى التى تعرف بأسم بيت الخولى عبدالله إحدى قرى مركز قنطرة بمحافظة الدقهلية

(٣) قال الشاعر المعاصر جمال الدين يحيى بن مطروح مطروحا الفرنسيين بعد هذا الفشل :

وقل لهم إن اضمروا عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على حالها والتقى باقى الطواشى صبيح

انظر (ديوان ابن مطروح ص ١٨١-١٨٢ هنا ولا تزال دار ابن لقمان معروفة بالمنصورة بجوار جامع الشيخ الموائى .

والاسكندر وعمرو بن العاص ، وسليم الأول ، بدلا من هذا الطريق
المعقد الذى قادهم الى وسط الدلتا حيث كان عليهم عبور النيل بفروعه
وقنواته المتعددة .

على أن الشئ الذى يؤسف له حقا هو أن شعور المسلمين بزوال
خطر الفرنج قد حول بأسهم فيما بينهم بعد أن كان على عدوهم
فأضطربت المنازعات الداخلية وحيكت المؤامرات السياسية التى أدت الى
زوال دولة وقيام أخرى . ذلك أن تورنشا كره المماليك البحرية لأمر لم
تشرحه المراجع شرحا وافيا ما عدا أن تورنشا كان قى عيف الأهواء ورث
عن أبيه الكآبه والكبرياء مما نمر به أمراء المماليك وأنه ارتاب فى المماليك
البحرية الصالحية وتوجس حيفة من نفوذهم فأعرض عنهم وقرب اليه
مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من الشرق واحلهم محل البحرية الذين
صاروا موضع اضطهاد ووعيد . فكان إذا سكر بالليل جمع أمامه
الشموع وضرب رؤوسها أسيف حتى تقطع ويقول هكذا أعمل
بالبحرية ويسمى كل واحد منهم باسمه ولنا نفموا عليه وأصمروا له سوء

ثم وعد تورنشا الأتابك أقطاي بولاية الإسكندرية ولكنه لم يف
بوعده بل قيل أنه عزم على إرساله بشيرا بالنصر الى بدر الدين لؤلؤ
صاحب الموصل ، وأنه أراد بذلك أن يقبض عليه بدر الدين ويعتقله فى
بعض القلاع ، فتنكر أقطاي لتورنشا وصار يترصد به الدوائر وقيل كذلك
أن السلطان أراد أن يرسل جماعة من المماليك بأحبار النصر الى ملوك
البلاد المجاورة ليعدهم عن القاهرة ففطت المماليك الى حيلته وعلموا أنه يريد التخلص منهم .

ولم يقتصر تورنشا على مناوأة أمراء جيشة وكبار دولته بل تنكر
لشجر الدر التى يدين لها بعرشه فبعث اليها بتهدها ويطلبها بمال أبيه

فكانت تجيية بأن الأموال صرفت كلها فى شئون الحرب وشئون البلاد العامة ويقال إنها داخلها منه خوف شديد فمضت الى القدس حينما من الزمن مخافة غدره ، كما كتبت الى البحرية تشكولهم من مسلكه الخشن نحوها رغم الخدمات الجليلة التى أدتها له وقت غيابه عن مصر ، وكان الممالك البحرية الصالجية يخلصون لشجر الدر لأنها من حريم استاذهم الذى اشتراهم ، وبحكم الزمالة التى تربطها وأياهم وهى المعبر عنها فى المصادر المعاصرة بلفظ الخشداشية ، وهى من أقوى الروابط التى كان لها أثر فى تطورات التاريخ المملوكى .

كل هذه الأمور جعلت الممالك يحنقون على السلطان تورنشاه ويجمعون على قتله والتخلص منه من قل أن يبطش بهم وقام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من الأمراء منهم فارس الدين أقطاي وبيرس البندقدارى وفى صباح يوم الاثنين الموافق ٢ مايو سنة ١٢٥٠م - (٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ) بعد فراغ تورنشاه من طعام افطاره فى خيمته بفارسكور تقدم اليه ببيرس البندر قدارى وضربه بسيفه صريرة تلقاها يده فقطعت أصابعه والتجأ تورنشاه الى البرج الخشبى الذى أقامه على النيل ليمضى فيه بعض وقته أثناء اقامته بفارسكور واحتشى بأعلاه ، وأغلق على نفسه الباب فتبعه ببيرس وأقطاي وغيرهما من زعماء البحرية وقالوا :

« بعد جرح الحية لا ينبغى الا قتلها » وأحاطوا البرج وأضرموا النار فيه فنزل منه تورنشاه وهو يصيح مستنجدا : خذوا ملككم ودعوني أعود الى حصن كيقا فلم يفتة أحد فأخذ يركض نحو النيل ونبال الممالك تأخذ من كل جانب حتىلقى بنفسه فى الماء على أمل أن يسبح الى إحدى سفنه الراسية ليعتصم بها ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله

ومما يدعوا الى الالتفات هنا أن مقتل تورنشاو وقع أمام رجال الجيش دون أن يحرك منهم أحد ساكنا لأنفاذة . مما يدل على أملاك المماليك زمام الموقف ، وكان ابو عز الدين رسول الحيفة العباسي موحودا في المعسكر فعارض في مقتل السلطان ويقال ان تورنشاو أخذ يستغيث به من أعلا البرج فيقول : يا أبا عز الدين أدركنى وتكرر ذلك فركب ابو عز الدين فى أمره وكلمهم فيه فقص عليه المماليك البحرية وهددوه بالقتل اذا تدخل فى الأمر وروى أبو شامة أن المماليك هددوه بأخراق حرمة الخلافة ولا يدري ماذا بعنى أبو شامة من وراء هذه العبارة ^(١) ولعله يعنى احراج مصر عن دائرة النفوذ الدينى لحليفة بغداد ، والدعاء لخلافة أخرى غير الخلافة العباسية كخلافة الموحدين مثلا فى المغرب .

ثم انتقلت حشة السلطان من النيل ومركت على شاطئه ثلاثة أيام حتى تقرر دفعها فى مكانها (٢) وتيموت تورنشاو انتهى عصر دولة الأيوبيين فى مصر .

بعض المظاهر الحضارية فى عصر الدولة الأيوبية

رأينا مما تقدم كيف كانت الدولة الأيوبية دولة اسلامية مجاهدة من بدايتها الى نهايتها فقد اقترنت بدايتها بمصر حطيم الذى استردت فيه بيت المقدس ، كما اقترنت نهايتها بنصر المصورة الذى طردت فيه المستعمرين الفرنسيين بقاء ملكهم لويس التاسع من الأراضى المصرية غير أن هذا الجانب العسكرى المتصمر كان يواكبه جانب آخر حصارى مزدهر فى شتى

(١) أبو شامة : الدليل على الروصتين ص ١٨٥ .

(٢) روى أبو شامة نقلا عن كلام والى القاهرة أنه بعد مقتل السلطان تورنشاو رمى فى جوف على حافة البحر (النيل) ودم عليه الخراب فبقى هالك ثلاثة أيام ، لم تكشفه الماء فجوه مراكبى فى الماء بعبارة كأنه صوت إلى أن وصل إلى الشاطئ الآخر فدفنه هناك

ميادين العلم والمعرفة .

من المعروف أن الأيوبيين كانوا أكرادا بأصلهم ونسبهم ولكنهم في الواقع كانوا عربا يشققتهم وتربيتهم ونشأتهم فقد نشأوا نشأة عربية اسلامية وأمتزجوا بها ولهذا شغفوا حبا باللغة العربية وآدابها وعلومها وقربوا اليهم الشعراء والعلماء والكتاب وشملوهم بمطعمهم وكرمهم وهباتهم وخلعهم فأكتظت مجالسهم بأهل العلم والأدب .

ولقد تميز العصر الأيوبي بطابع خاص وهو طابع الجهاد والكفاح ضد الصليبيين ومن ثم كان من الطبيعي أن تعكس تلك الصورة في نفس الشعراء والكتاب في جميع أنحاء الشرق العربي ، فانطلقت الستهم واقلامهم تشيد بالانتصارات وأعمال البطولة وتمدح أبطالها المدافعين عن حوزة الاسلام وتعبر عن آمانيها وآمالها بمستقبل أفضل .

وكان صلاح الدين نفسه يتفوق الشعر ويردد بعضه في محاسنه ويميز الجيد من الرديء منه . كذلك كان ملما الماما كبيرا بأحكام الشريعة وأصولها وله مساجلات أيضا مع الفقهاء والعلماء في هذا الصدد .

وما يقال عن صلاح الدين يقال أيضا عن أفراد أسرته فأخوه العادل كان يميل الى العلم والعلماء ونحصر بالذكر منهم العالم الفيلسوف فخر الدين الرازي الذي صنف له بعض كتبه وأرسلها له من خراسان وهناك الملك المؤيد مسعود بن صلاح الدين صاحب اليمن الذي كان مفرما باقتناء الكتب حتى اشتملت مكتبته على آلاف الكتب كذلك الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذي وهب لكل من يحفظ كتاب المفصل للزمخشري مائة دينار وخطعة كما أنه طلب من الأديب الفارسي قوام الدين الفتح بن محمد البنداري الأصفهاني ترجمة كتاب


الشهامة لأبي القاسم الفردوس (والشهامة ملحمة شعرية فارسية تقص أخبار ملوك الفرس القدماء وأساطيرهم حتى الفتح العربي) .

والى جانب الملوك والأمراء هناك طبقة الوزراء والكتاب فى ذلك العصر نذكر منهم القاضى الفاضل أبو على محى الدين اللخمى (ت ٥٩٦هـ) وزير صلاح الدين وصاحب الطريقة الفاضلية فى الأشاء وهناك العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) كاتب صلاح الدين ومؤرخة الحربى وصاحب المصنفات الأدبية والتاريخية العديدة مثل : دولة آل سلجوق (مطبوع) والرق الشامى (مخطوط) وخريدة القصر وجريدة العصر (مطبوع) والفتح القسى فى الفتح القدسى (مطبوع) كذلك نذكر الأمير الفارس أسامة بن منقذ (ت ٥٨٣هـ) أحد أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شبرز الذى لارالت أطلاله باقية الى اليوم باسم ميجر على بعد خمسة عشر ميلا الى الشمال من حماة على صفة العاصى الغربية وبحكم جواره للصليبيين كان لأسامة معهم مشاكل وحروب وصداقات وبواردونها فى كتابه على شكل مذكرات خاصة تحت عنوان كتاب الاعتبار (بشر فيليب حتى) والكتاب يتمضن صوراً مقارنة بين عادات المسلمين والفرجة شاهدها وعابنها أسامة بنفسه . وهناك أيضا المؤرخ بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢هـ) صاحب كتاب البوارد السلطانية والمحاسن اليوسفية (مطبوع) وتناول سيرة سلطانه صلاح الدين وينبغى أن نفرق بينه وبين سمية عز الدين ابن شداد (ت ٦٨٤هـ) الذى عاش بعده بخمسين سنة وفى مدينته حلب والى كتابا فى سيرة سلطانه الظاهر يبرس بعنوان الروض الراهر فى سيرة الملك الظاهر (مخطوط) وهناك الأديب العالم ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٢٨هـ) وزير الملك الأفضل ابن

صلاح الدين الذى ألف كتباً عديدة فى البلاغة وعلم البيان وهو الأخ الأصغر للمؤرخ عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) صاحب كتاب الكامل فى التاريخ كذلك نذكر القاضى شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١هـ) صاحب كتاب وفيات الأعيان (مطبوع) والمؤرخ الحموى جمال الدين بن واصل (ت ٦٩٦هـ) الذى كتب موسوعة عن العصر الأيوبي بعنوان مفرج الكروب فى أخاير بنى أيوب (مطبوع) الذى كان يريد أهداءه الى الملك تورنشاخ آخر ملوك الأيوبيين ولكنه لما علم بمقتله عدل عن فكرته . كذلك نذكر ابن أبى أصيعة (ت ٦٦٨هـ) صاحب كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (مطبوع) وهناك المؤرخ الدمشقى شهاب الدين أبو شامة (ت ٦٦٥هـ) الذى كان معاصراً لابن واصل والذى كتب تاريخاً هاماً لهذا العصر بعنوان كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والعلائية وما وقع من الحروب الصليبية (مطبوع) .

أما شعراء هذا العصر فهم كثيرون ونكتفى بالإشارة الى الشاعر الصوفى المعروف عمر بن القارظ المصرى (ت ٦٣٢هـ) ومن قصائده تائيتان كبيرى وصغرى وفيها من أغراض الصوفية الشراء الكثير وهناك الشاعر البهاء زهير (ت ٦٥٦هـ) الذى عاش فى خدمة الملك الصالح أيوب والشاعر جمال الدين يحيى بن مطروح (ت ٦٤٩هـ) وهو من آل صعيد مصر وكانت بينه وبين البهاء زهير مساجلات شعرية وله قصيدة مشهورة يهاجم فيها الفرنسيين ولويس التاسع . كذلك نذكر الشاعر المصرى ابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ) الذى ألف كتاباً عن فنون الشعر المختلفة ولا سيما فن الموشحات تحت عنوان دار الطراز (نشر جودة الركابى)

وهذه النهضة العلمية والأدبية كان لها مراكز حضارية يشع منها نور العلم والمعرفة مثل مجالس الملوك فى قصورهم وهو ما يعرف ببلاط الأمير

أو السلطان ومثل ديوان الأنشاء أو ديوان المكاتبات السلطانية الذي لا يعين فيه إلا دور الكفاءات والثقافة العالية والصناعة اللفظية ومثل الرباطات والخوانق (جمع خانقاه) وهي أماكن العبادة والتصوف التي صدرت منها القصائد الصوفية المشهورة ومثل المارستانات أو المستشفيات حيث الطب والأطباء والمؤلفات الطبية ومثل المدارس التي كانت تدرس فيها العلوم العقلية والشرعية وقد سبق أن قلنا أن نظام المدارس نظام استحدثته السلاجقة لنشر المذهب السني ومكافحة المذهب الشيعي وتهيئة عقول المسلمين لفكرة الجهاد المقدس ثم سار على هذه السياسة نور الدين محمود زكي ثم صلاح الدين وحلفاؤه في مصر والشام مع فارق بسيط هو أن نور الدين محمود كان يميل إلى المذهب الحنفي بينما كان صلاح الدين يميل إلى المذهب الشافعي بصفة خاصة  ومن المدارس التي أنشأها صلاح الدين في مصر :

(١) المدرسة الصلاحية : التي بناها بجوار مقام الإمام الشافعي وكانت تقوم بتدريس أصول المذهب الشافعي ومكانها اليوم جامع الإمام الشافعي .

(٢) مدرسة ابن زين التجار . وهي مدرسة أخرى للشافعية بناها صلاح الدين بجوار الجامع العتيق أو جامع عمرو بن العاص وعرفت أولا بالمدرسة الناصرية ثم اشتهرت بمدرسة ابن زين التجار نسبة إلى العالم الشافعي أبي العباسي أحمد بن المطهر المعروف بابن زين التجار الذي عكف على التدريس بها مدة طويلة إلى أن مات سنة ٥٩١ هـ ففرت بأسمه .

(٣) المدرسة القمحية : بناها صلاح الدين بالقرب من جامع عمرو لتدريس الفقه المالكي وأوقف عليها الضياع المعلقة للقمح وكانت

مرتبات الأساتذة والمعيدين وجسرات الطلبة تدفع قمحا ولهذا سميت بالمدرسة القمحية .

(٤) مدرسة السيوفية : بناها صلاح الدين لكي يدرس فيها مذهب الامام أبي حنيفة وكانت في الأصل دار لوزير فاطمي يدعى عباس وكان سوق السيوفيين على بابها فعرفت بمدرسة السيوفية .

(٥) بني صلاح الدين مدارس مبنية في حارج مصر في كل من القدس ودمشق والحق بكل منها مارستانا .
وقد لحص ابن حنكاه هذه الأعمال بقوله :

« وكان السلطان صلاح الدين لما ملك الديار لم يكن بها شيء من المدارس فان الدولة المصرية (يعنى الدولة الفاطمية) كان مذهبها الامامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء فعمر صلاح الدين بالقرافة المدرسة المجاورة للامام الشافعي رضي الله عنه - وبني مدرسة محاوره للمشهد المنسوب للحسين بن علي - رضي الله عنهما بالقاهرة وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه ووقف عليها وقفا هائلا كذلك وقف على كل مدرسة عمرها وقفا جيدا وجعل دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية وأوقف عليها وقفا جيدا أيضا وهي بالقاهرة وبني بالقصر داخل القاهرة بيمارستانا وأوقف له وقفا جيدا وله بالقدس مدرسة ومارستان وخانقاه ولقد فكرت في نفسي في أمر هذا الرجل وقلت : إنه سعيد في الدنيا والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس شيء منسوب اليه في الظاهر منها ، فان المدرسة التي بالقرافة ما تسمى الا بالشافعي والمجاورة للمشهد الحسيني لا يقولون الا المشهد والخانقاه لا يقولون الا سعيد

السعداء والمدرسة الحنفية لا يقولون الا السيوفية والتي بمصر لا يقولون الا مدرسة ابن زين التجار والتي بمصر أيضا مدرسة المالكية وهذه صدقة السر على الحقيقة . وكان صلاح الدين مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللفظ قريبا من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداواة وكان يحب العلماء ويقربهم ويحسن اليهم وكان يستحسن الأشعار الجيدة ويردها في مجالسة ومثال ذلك أنه كان يمجبة قول الشاعر ابن المنجم المغربي الأصل المصري الدار والوفاء في وصف خضاب الشيب :

وما خضب الناس البياض لقحه واقبح منه حين يظهر باصله
ولكنه مات الشباب فموت / على الرسم من حزن عليه منا زله
قل فكان صلاح الدين عند سماعه مات الشباب بمسك كريمته
وينظر اليها فيقول : أي والله مات الشاب .

واستمرت عملية انشاء وتعمير المدارس السنية مستمرة في زمن الأيوبيين سواء في مصر أو الشام ومثال ذلك المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل للشافعية بمصر وكذلك المدرسة التقوية التي بناها الأمير تقي الدين عمر الأيوبي للشافعية بمصر ثم هاك مدرسة الظاهر عازي بن صلاح الدين بمدينة حلب وقد دفن بترتبة الملاصقة لها وهناك المدرسة العادلية التي بناها الملك العادل ، أحو صلاح الدين ، بدمشق ، ودفن بها أيضا وهي من أعظم مدارس الشافعية بدمشق ودرس وسكن بها جملة من العلماء نذكر منهم ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وهي الآن مقر المجمع العلمي العربي بدمشق .

وهناك بدمشق أيضا مدرسة المعظم عيسى بن العادل والمدرسة

العزیزة اتى بناها الملك العزیز محمد بحوار مقام والده صلاح الدین
بالکلامه شمالی الجامع الأموی بدمشق

کذلك بذكر المدرسة الکامیة التي بناها السلطان الکامل محمد بن
العادل فی القاهرة بین القصرین ، وكانت تسمى أيضا بدار الحدیث
الکاملية لأنها اهتمت بدراسة الحدیث النبوی بصفة خاصة وكان شیخها
زمن الملك الصالح العالم الأندلسی اما الخطاب عمر بن دحیة البلسی
(ت ٦٣٢هـ) ، صاحب کتاب المطرب فی أشعار المغرب (مطبوع) .

وأخيرا وليس آخرا بذكر المدارس الصالحة التي بناها السلطان الصالح
أيوب سنة ٦٤١هـ بحط بین القصرین أيضا ولأول مرة فی مصر كانت
هذه المدرسة تدرس المذاهب السنية الأربعة معا ، ولهذا سمیت بالمدارس
والزائر لهذه المدرسة الآن لا یحلم بها سوى الوجهة العربية ، وهي حافلة
بالقوش والکتابات ويتوسطها باب خشبی تعلوه مئذنة أما بقية المدرسة فقد
اندرست واغتصب العامة أرضها وبحوار هذه المدرسة توحد قرية الملك
الصالح أيوب التي بنتها له زوجته شجر الدر ، وهي تمتاز بدقة وجمال
الصناعة الحشیة فيها^(١) .

الی جانب المدارس هناك القلاع والحصون التي بناها الأيوبيون وهي
کثيرة جدا^(٢) ویکفی أن نشیر الى أن کل مدينة فی العصور الوسطی
تتكون من مدينة ومن قلعة قائمة بذاتها ومستقلة بنفسها عن المدينة التابعة
لها حتی أنه فی كثير من الأحيان كانت المدينة تستسلم للفاتحين وتمتع

(١) راجع (الحمی : المدارس فی تاریخ المدارس ، نشر جعفر الحینی) .

(٢) راجع (لمن جیر تذکرة بالأخبار عن اتفاقات الأسعار المعروفة برحلة ابن جیر نشر حسن
نصار الجزء الخاص بالمنشآت الممراتية علی عهد الأيوبيين)

القلعة عليهم لقدرتها على الدفاع عن نفسها ولا تعتبر المدينة قد سقطت تماما الا بسقوط قلعتها .ومن أهم القلاع التي بناها الأيوبيون قلعة الجبل التي بناها صلاح الدين على ربوة جبل المقطم تشرف منها على القاهرة والقسطنطين والنيل والقراقة وكان غرض صلاح الدين أن يتخذها حصنا له ولأسرته من خطر الثورات الداخلية ومن مؤامرات الفاطميين وخلفائهم وكان بدء البناء منه ٥٧٢هـ (١١٧٦م) وكان المشرف على بنائها وزيره بهاء الدين قراقوش الأسدي الناصري الذي أحاط القاهرة والقسطنطين وما بينهما بسور كبير استغل في بنائه بعض أحجار الأهرام الصغيرة بالحجارة كذلك استعان صلاح الدين بعدد كبير من أسرى الحروب الصليبية في عمليات الساء ولا سيما في حفر الخندق المحيط بسور القلعة وهو خندق نقر نقرا في الصخور بالمعاول وقد أسدي الرحالة المعاصر الأسدي ابن حبير (ت ٦١٣هـ / ١٢١٧م) أعجابه بهذا العمل ولقد استمرت أعمال البناء في القلعة في عهد الحكام الذين جاءوا بعد صلاح الدين مثل الكامل محمد بن العادل الذي زاد في مساحتها وبني فيها قصورا وهو أول من جعلها مقرا للملكه من الأيوبيين

ولا يزال يوجد نقش من أيام صلاح الدين باقيا على أحد أبواب القلعة (الباب المدرج) يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة القاهرة بالعزلة التي جمعت نفعا وتحسنا وسعة على من التجأ الى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ابو المظفر يوسف أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد ، خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله المالكى الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسمائة . »

وبلاحظ أن هذه الكتابة مكتوبة بالقلم الصحيح الأيوبي وهذا يؤيد ما هو معروف من استعمال الخط النسخي بدلاً من الكوفي في عهد صلاح الدين أي عند قيام المذهب السني مقام المذهب الشيعي ولا سيما في الأبنية .

ومن القلاع الهامة أيضاً قلعة دمشق وهذه القلعة قديمة جداً ، ولكنها خربت ثم حياء الملك العادل فأعاد بناءها من حديد وهرق أبراجها علي أمراء بني أيوب فعمروها من أموالهم ، وجددوا مواقع الدفاع فيها علي أحدث الطرق الحربية في زمانهم . وما زالت هذه القلعة رابضة بأبراجها ومنشأتها العسكرية إلي الآن . هذا وقد حرت العادة أن يوضع علي هذه المنشآت الأيوبية رسم الشعار الذي اتخذه صلاح الدين وهو عبارة عن نسر منفرد الجناحين (مثل شعارنا الآن) . أما العلم الأيوبي فكان من حرير أصفر اللون ومطرز بالذهب وعليه القاب السلطان واسمه . وفي ذلك يقول الشاعر الحسن بن علي الشافعي :
سبة إلى شاتان بديار بكر
بالجزيرة) يمدح صلاح الدين :

أرى النصر مقروناً برايتك الصغرى فسر وأملك الدنيا فأنت بها أخرى
وكانت هذه الراية الصفراء العظيمة تتقدم الجيش وفي رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش وهي عادة تركية انتقلت إلى الأيوبيين والمماليك بعدهم عن طريق السلاجقة . ومن الطريف أن هذه العادة أنتقلت أيضاً إلى أقصى المغرب مع الجنود الترك والغز الذين دخلوا في خدمة الموحدين وبنى مرين . وقد أعطانا الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب وصفاً لهجوم قام به الجيش المريني بقوله :

« ثم أردفوا بالناشبة ورماء القسي العربية ، فزحفت راياتهم علي شأن

غز المشاركة من المزمار والطبل وحمل جمعة الشعر في أعلا سنان الراية .
لم يقتصر فضل الأيوبيين على الانتصارات العسكرية والمنشآت
العمرائية بل شمل فضلهم أيضاً النواحي الاقتصادية بصفة عامة .

فالزراعة نمت وازدهرت نتيجة للقنوات والمصارف التي حفرت في
أيامهم بمصر فروت مساحات شاسعة من الأراضي التي لم تكن تصلها
مياه من قبل . أما في الشام فقد ازداد عدد النواحي (السواقي الضخمة)
التي كان نظام الري يقوم عليها هناك زيادة كبيرة على عهد الأيوبيين .
وقد انتقلت كلمة ناعورة الى اللغات الأوربية بأسم Nona .

وكانت النتيجة أن ازداد انتاج بعض المحاصيل الزراعية في مصر
والشام وصار يصدر ما يفيض منها الى الخارج مثل السهم والأرز والسكر
الذي دخل أوروبا لأول مرة وصار يسمى بنفس الأسم تقريباً . ويقال أن
الامبراطور فردريك الثاني هو أول من أدخل صناعة السكر في أوروبا عن
طريق صقلية ١٢٢٩ م ، وأن كما لا شك أيضاً في احتمال انتقال السكر
الى أوروبا عن طريق المغرب والأندلس حيث عشر الأثريون هناك علس
مصانع عديدة للسكر يرجع تاريخ أقدمها الى عهد المرابطين في القرنين
الخامس والسادس الهجري - (١١ ، ١٢ ميلادي) كذلك ازدهرت
التجارة في عهد الأيوبيين ، وقد ساعد على نموها الحروب الصليبية
نفسها التي كانت لها طبيعة اقتصادية الى جانب طابعها الديني والحربي .

ومن ثم قام التجار المسيحيون ولا سيما تجار الجمهوريات الإيطالية
مثل جنوا وبيزا والبندقية بدور الوسيط في نقل البضائع الشرفية في سفنهم
الى الموانئ الأوربية . ولقد استفادت مصر والشام من هذه العمليات
التجارية لوقوعهما في الطريق التجاري القادم من الهند وقارس والعراق وشبه

حزيرة العرب . فكان الحكام الأيوبيون يتقاضون رسوماً على الصادر والوارد من البضائع المارة في بلادهم .

ولقد أذن الأيوبيون لبعض التجار المسيحيين بالأقامة في بعض المدن والثغور المصرية والشامية فكانت هناك حالة عد قطرة الموسكى بالقرب من القاهرة منذ أيام صلاح الدين ، كما كانت هناك جاليات في الاسكندرية ودمشق وبيروت وحلب . وكان لهذه الجاليات فادق خاصة ينزلون فيها مع دوابهم وبضائعهم . وكذلك كان لهم قاصل في هذه المدن الاسلامية لحماية مصالحهم أمام السلطان الأيوبي حسب المعاهدات التجارية المبرمة بين الطرفين . وكان التجار المسيحيون بدورهم يرون أن من مصلحتهم عدم مصايقة التجار المسلمين ، فسمحوا لهم أيضاً بدخول الموانئ الصليبية في الشام ، كما ضربوا عملة خاصة مثل الدينار الصوري^(١) . الذي نقشوا عليه آية قرآنية باللغة العربية كي يقبل المسلمون على التعامل به . ويقال أن البابا أنوسنت الرابع حرم استعماله لهذا السبب وعندما زار الملك لويس التاسع لامارات الصليبية في الشام بعد حملته الفاشلة على مصر ، تدخل في هذه المسألة واستطاع بنفوده أن يعير الآية القرآنية بعبارة مسيحية تكتب باللغة العربية على الدينار الصوري كي يقبل المسلمون على التعامل به في الشام والعراق .

ومن أهم السلع التجارية التي كان الشرق يستوردها من أوروبا الخشب والمعادن والرقيق ، بينما كان الشرق يصدر البضائع التي أشرنا إليها آنفاً

(١) الدينار الصوري عملة ذهبية سكها البنادقة في مدينة صور التي كانت مركزاً تجارياً هاماً للصليبيين ، بينما يسميه القلندي الديار الصوري (بفتح الواو أي الشخص) لنقش صور أصحابها من ملوك الفرنج على وجه هذه العملة .

وكذلك تجاره التوابل أو البهار التي عرفت بأسم الكارم وكان لها تجار تخصصوا في بيعها وعرفوا بتجار الكارم أو الكارمية أو الأكارم . وقد اختلف الرأي حول أصل هذه الكلمة فالبعض يرى أنها تعني العنبر الأصفر ، والبعض الآخر يرى أنها تحريف لكلمة كام وهي اسم إحدى بلاد جنوب أفريقيا شمال شرق بحيرة تشاد وتنسب إليها جاليات تجارية في مصر واليمن . وقال فريق ثالث أنها تعني أكارم التجارة في عدن . وكيفما كان الأمر فإن هذه الكلمة أطلقت على تجارة التوابل أو البهار .

ولقد بلغ من شدة اندماج التجار المسيحيين في الحياة الشرقية أنهم قلدوا المسلمين في حياتهم الخاصة ، فأطلقوا لحاهم ، ولبسوا الملابس الشرقية ، ونوا منارلهم وكنائسهم على الطراز الشرقي ، واتخذوا الحريم والجواري والراقصات ... الخ .

كل هذا كان يحدث حتى في أوقات الحروب بين الطرفين ، قالتشار كانوا يروحون ويحيثون ولا يمس أحد منهم بأذى وقد نص على ذلك الرحالة ابن جبير عند قوله : واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الفرغ غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك ، وتجار البصاري أيضاً لا يمس أحد منهم ولا يعترض ... وأهل الحرب مشتعلون في حربهم ، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال مسلماً أو حرباً .

وهكذا ازدهرت التجارة والصناعة في عهد الأيوبيين ، واستفادت أوروبا الشيء الكثير من هذه النهضة . فمن دمشق والموصل وصل الى أوروبا المتسوجات الحريرية التي عرفت هناك بأسم Damask (دمشق) ، - musu in (تحريف لموصل) . ومن فارس وصل الى أوروبا السجاجيد العجمي

(أى الفارسية أو الإيرانية) ، ولعل كلمة Tapis أو Tapiz مشتقة من كلمة تبريز وهى من أشهر المدن الفارسية .

وصفوة القول إن الدولة الأيوبية تعتبر من الدول الايجابية الفعالة التى قامت بجليل الأعمال فى مختلف الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية ولهذا خلدها التاريخ .

الفصل الرابع

انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالمية

يروى جوافيل قصة عرية خلاصتها أن أمراء المماليك بعد أن قتلوا سلطانهم تورانشاه اقترحوا في مجلس المشورة أن يمنح الملك لويس التاسع سلطنة مصر ، وأنه لولا علمهم بمعصه للديانة المسيحية وخوفهم من أجباره لهم على اعتاقها ، لفقدوا هذا الاقتراح ولوجدوا قولاً من الملك نفسه ^(١) . ومن الواضح أن هذه القصة محتلفة من أساسها ، ولعلها مستوحاة من الاضطراب الذي حل بالمعسكر الاسلامي ، وحيرة أمراء المماليك فيما عساه يكون سلطاناً بعد أن قتل تورانشاه في سرعة مفاجئة . وكان من الطبيعي أن يطمع كل أمراءهم في سلطنة مصر ، ثم هناك أيضاً ملوك الأيوبيين بالشام وعلى رأسهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر عارى بن صلاح الدين الأيوبي ، وقد تولى مملكة حلب بعد وفاة أبيه سنة ١٢٢٧م (٦٣٤هـ) . إذ أصحى من الصعب على أولئك الملوك الأيوبيين أن يقللوا استئثار مماليك آبائهم بمصر بعد قتلهم سلطانها الشرعي ، ومن الطبيعي أن يرى كل منهم في نفسه الشرعية الكافية لأن يلي السلطنة بعد تورانشاه .

وكيفما كان الأمر فيبدو أن المماليك قرروا حل العقدة التي شجعت عن شغور العرش المصري في فجأة بأقامة شجر الدر أم خليل بن انصالح أيوب في السلطنة ، مبالغة منهم في احترام الأسرة المالكة الذاهبة ، وحرصاً على عدم الظهور بمظهر الخارج عليها . ثم عرضوا الاتابكية أو نيابة

Joinville: History of saint. Louis tr. by Evans p 109

(١) أنظر .

السلطنة على عدد من الأمراء ، ولم يرد اسم الاتابك السابق فارس الدين أقطاي من بين أسماء المرشحين ، ولعل مرجع ذلك أنه أصبح من المفضوب عليهم ، أو أن الممالك حشوا قوته وشوكته واستشاره بأمر السلطنة اذا قام في الاتابكية الى جانب شجر الدر . وانجلي الموقف بتعيين أليك التركمانى ^(١) أحد أمراء البحرية الصالحية لمنصب الاتابكية . وروى ذلك بطبيعة الحال الى عداء بين أقطاي وأليك سوى تفضيل احد على الآخر .

وأخذت البيعة للسلطنة الجديدة في مايو سنة ٢٥٠ م ١٠ صفر سنة ٦٤٨ هـ باعتبارها أم ولد هو خليل شجرشاه ^(٢) الذى تولى فى حياة أبة . وحرصت شجرة الدر على اظهار ذلك فى علامتها على الأمور والمراسيم ، فكتبت « والدة خليل » ، وجعلت صيغة الدعاء على المنابر : « احفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل ، المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . كذلك نقش اسمها على السكة بالعبارة الآتية : « المستعصية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين » ^(٣) .

(١) لفظ أليك بترك من كلمتين تركيتين هما آى ومعناها القمر ، وبك ومعناها الأمير فمضى الاسم الأمير القمر (أبو الحساس النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩) وأليك كان فى الأصل مملوكا لأولاد التركمانى وهم بوزرسل الدين استقلوا باليمن ، ولهذا عرف بأليك التركمانى ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح أيوب وبوزرسل عسائى أتوا من بلاد التركمان إلى بغداد فى خلافة المستجد (ت ٥٦٦ هـ) فسيبهم من يهرهم إلى عسك ، ونسيبهم من لا يهرهم إلى التركمان راجع (الخرجى : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية ج ٢٧ - ٢٨)

(٢) أبو شامة : الدليل على الروضتين ص ١٩٦

(٣) توجد بالمتحف البريطانى عمل ذهبية ضربت فى القاهرة على عهد شجر الدر بتاريخ ٦٤٨ هـ تحمل القاب الملكة التى ذكرناها .

ويروى المؤرخ الانجليزى لين بول فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى أن كلمة المستعصميه السالفة الذكر ، تدل على أن شجر الدر بدأت جارية للخليفة العباسى المستعصم (١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب . غير أن صمت المراجع العربية من هذه المسألة يحمل على الاعتقاد أن شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة فى سكتها وخطبتها ترضية للخليفة العباسى كى يعترف شرعية حكمها . وثمة مسألة أخرى تدعو الى الانتباه فى هذا الصدد ، وهى أنه كانت توجد بالعراق جارية أخرى تسمى شجرة الدر ، كانت جارية للخليفة العباسى الناصر لدين الله (١١٨٠ - ١٢٢٥ م) ، مقربة إليه ، وكانت تكتب خطأ حيداً وتقرأ له المطالعات الواردة عليه لما تعبر نظره ، ويملى عليها الأجوبة ، ونوفيت سنة ١٢٣٦ م (٦٤٤ هـ) ، ودفنت فى تربة الحلاطية ببغداد^(١) . فلعن المؤرخ لين بول قد التمس عليه الأمر بين شجر الدر المصرية وشجرة الدر العراقية

ومهما يكن من شىء فقد قصت شجرة الدر على زمام الأمور فى مصر بيد من حديد ، ولم يكن ابن اياس معاليا حين وصفها بأنها امرأة صعبة الخلق ، شديدة العيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة رائدة ، وحرمة وافرة ، سكرانة من خمرة التيه والعجب ، . وحق لها أن تكون ذلك كله فهى صاحبة الفضل فى احفاق حملة صليبية كبيرة على مصر ، وهى قد أتت الى العرش اعترافاً من المعاصرين بذلك الفضل . وادا استشيا رصية الدين سلطنة دلهى (١٢٣٦ - ١٢٤٠ م) ، تعتبر شجر الدر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكة اسلامية . والواقع أن ابن اياس اعترها جزءاً من الدولة الأيوبية ، ولكن مما لاشك فيه أن الدولة الأيوبية انتهت بمقتل تورانشاه ولو كان هناك أى رغبة فى الابقاء على الأيوبيين ، لما

(١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٩٢ .

تعسر على المماليك أن يجدوا من رجال البيت الأيوبي بالشام من يصلح للقيام بالسلطنة في القاهرة .

وأول عمل أهتمت به شجر الدر هو تصفية الموقف مع الفرنج ، وأثناء المفاوضات التي بدأت معهم على عهد تورانشاه لترحيلهم عن البلاد المصرية . فلم يلبث المفاوض المصري وهو الأمير حسام الدين أبو على الهذيانى ، أن اتفق مع الملك لويس التاسع على تسليم دمياط ، وإخلاء سبيله وسبيل من معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل رحيله ، ويدفع النصف الآخر بعد وصوله عكا . وقامت ملكة فرنسا مرجريت دى بروفاس التي رافقت زوجها فى تلك الحملة ، وبقيت بدمياط مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية ، يجمع المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية . ثم أبحرت إلى عكا ومعهما ابنها الذى ولدته فى دمياط وأسمته جان ترستان أى وليد الأحرار ، وهرى جوانفيل أن مدينة دمياط سلمت للمصريين فى ٦ مايو سنة ١٢٥٠ وأن بعض المماليك قاموا بأعمال السلب والنهب فى معسكر الفرنج مما حمل لويس التاسع على أن يرسل راهبا اسمه راءوول إلى الأمير أقطاي يحتج لديه عما ارتكبه المماليك من فظائع ، وأن أقطاي أجابه قائلا : أيها الأخ راوول ، قل للملك أنتى لا يمكننى اصلاح ما فسد ، وأن قلبى لمضم بالأسى ، وحذره بالنيابة عن نفسى بالأيدي أى تدمر عما يجيش فى نفسه ما دام من أيدينا والا كان مصيره الموت . وهذه العبارة تدل على أن أقطاي لم يكن راضيا عما تطور اليه الموقف من سلطنة شجر الدر وأتابكية أيلك ، ثم أنه لم يكن مبالغا فيما قال ، لأن حزبا من الأمراء وعلى رأسه الأمير حسام الدين أبو على الهذيانى ، رأى منذ البداية أن من المصلحة للمسلمين أن تحتفظ مصر بالملك لويس وألا تطلق سراحه نظرا لاطلاعه على عورات

المسلمين ، ولمركزه الدينى العظيم فى الصراية ، ولأن دمياط قد صارت فعلا فى أيدي المسلمين ولكن شجر الدر وبعض قادة الجيش أقنعوا ذلك الحزب المعارض بضرورة احترام العهد الذى أخذوه على أنفسهم .

ثم أبهر لويس التاسع وأتباعه إلى عكا فى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ م (صفر سنة ٦٤٨ هـ) ، وبذلك انتهت الحملة الصليبية التى اقتربت حوادثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك الأولى فى مصر .

أخذت شجر الدر تتقرب إلى الخاصة والعامة ، وتعمل على إرضائهم بشتى الوسائل ، ولأسيما المماليك البحرية الذين أعدت عليهم الأموال الطائلة والاقطاعات الواسعة والرتب العالية ولكن على الرغم من ذلك ، فإن المصريين عموما انفروا من قيام امرأة فى السلطة ، وقاموا بمظاهرات واضطرابات عديدة فى القاهرة حتى اضطرت الحكومة إلى علق أبواب المدينة مما لتسرب أباء الاضطرابات إلى بقية البلاد . ويبدو أن رجال الدين كانوا من وراء هذه الحركة المعارضة بدليل ١٠٠هـ السيوطى من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام وهو أكبر زعيم ديبى فى ذلك الوقت كتب كتابا حول ما قد يتلى به المسلمون بولاية امرأة . وهو يستند فى هذا إلى حديث نبوى يقول : « لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة »^(١) .

(١) السيوطى حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ص ٣٤ . والشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعى ولد سنة ٥٧٧ هـ ودرس بدمشق على أئمة عصره مثل ابن عساكر ، وولى الخطابة والإمامة بالجامع الأموى بدمشق ، وتلمذ له أبو شامة وظل بدمشق إلى أن استعان صاحبها الملك الصالح اسماعيل بالفرنج فأبكر عليه الشيخ عز الدين هذا الفعل وتوجه إلى مصر سنة ٦٣٩ هـ فتلقاء سلطانها الملك الصالح أيوب وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص ولما بنى الصالح أيوب مدرسته بين فقصرين بالقاهرة ، عرض إليه لتدريس المذهب الشافعى بها ، وظل متمتعا بالمنزلة الرفيعة حتى وماته بمصر سنة ٦٦٠ هـ وقيل أنه لما مرت جنازته تحت القلعة وشاهد السلطان الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها قل =

واتهز الملك الناصر يوسف صاحب حلب وحفيد صلاح الدين ،
هذه الفرصة السانحة وزحف بجيوشه نحو دمشق فاستولى عليها وعلى
غيرها من المدن الشامية بدون حرب ثم واصل زحفه جنوبا نحو مصر .

وخاف المماليك على دولتهم الناشئة من مافسة الأيوبيين فكتبوا إلى
الخلافة العباسي المستعصم يطلبون منه تأييد سلطته شجر الدر ، وكان
غرضهم من وراء ذلك تدعيم سلطانهم بسياج من التأيد الشرعي . غير أن
الخلافة عاب عليهم اقامة امرأة في السلطنة ، وكتب اليهم قائلا : « أن
كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا » . ولما
وصل خطاب المستعصم إلى القاهرة ، اقتنع امراء المماليك بخطأ تصرفهم
وقالوا : « لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة ، ولا بد من اقامة رجل
للمملكة تجتمع الكلمة عليه » . فأشاروا على شجر الدر بأن تتزوج
الأتابك أيلك التركماني ، وتنازل له عن العرش ، فقبلت ذلك وحلّت
نفسها من السلطة في يوليو سنة ١٢٥٠م بعد أن حكمت ثمانين يوما .

والواقع أن سلطنة شجر الدر على مصر كانت وليدة للظروف التي
أحاطت بمصر في ذلك الوقت ، ونتيجة لموافقة جماعة من زملائها أو
خشدا شتتها المماليك ، وليست نتيجة لموافقة الشعب أو رجال الدين أو
الخلافة العباسية ، هذا فضلا عن أنها كانت مسألة لا يقرها الشرع ولا
تستيفها التقاليد الإسلامية .

= لبعض غوامض : اليوم استقر امرى في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس انخرجوا عليه
لاقتزع الملك مني . راجع (تاج الدين السبكي : طبقات النخاضية الكبرى ج ٥ ص ٨٠
أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٢٤ ، السيوطي حسن المحاضرة في أخبار
مصر والقاهرة ص ٣٤)

تولى عرش مصر السلطان أيك التركمانى وتلقب باللقب السلطانى
 « الملك المعز » . ولم يكن أيك فى الواقع أكسر أمراء المماليك منا ، أو
 أقدمهم خدمة ، أو أقواهم مكانة ونفودا ، إذ كان يوجد من هم أكبر وأقدم
 وأقدر منه مثل فارس الدين أقطاي والظاهر يبرس . وهذه الحالة الاستثنائية
 فى نظام التدرج المملوكى جعلت بعض المؤرخين مثل أبى المحاسن فى
 كتابه النجوم الراهرة ، يتهم أيك بضعف النفود والشوكة ، وأن الأمراء لم
 ينتخبوه الا لكى يتمكنوا من عرثه متى شاءوا . كذلك يذهب المستشرق
 بلوشيه Blochet إلى أن أيك ظل يحكم رغم اعتزال شجر الدر ، بصفة
 زوج الملكة مع أنه صار سلطانا يحكم عن نفسه غير أن الحوادث دلت
 على أن أيك رجل ممتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة ، ولم يكن
 ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين . ويبدو أن أبى المحاسن نفسه
 قد شعر بالخطأ الذى وقع فيه حينما وصف أيك بالضعف فى كتابه
 النجوم الراهرة ، إذ أنه عاد واستدرك ذلك فى كتابه الآخر : المهمل الصامى
 « ، فمدح أيك فيه ، ووصفه بالديانة والصيانة والعقل والسياسة ، وأنه
 أنقذ دولة المماليك من خطر محقق^(١) .

وإذا تناولنا المشاكل والصعاب التى واجهت السلطان أيك ، نجد أنها
 تتمثل فى تهديدات الأيوبيين والصليبيين فى الخارج ، وفى ثورات الأعراب فى الداخل ، ثم
 فى خطر زملائه المماليك فى داخل البلاد وخارجها .

١ - الخطر الأيوبي والصليبي :

كان الخطر الأيوبي ممثلا فى الشام وفى الأمراء الأيوبيين هناك

(١) أبو المحاسن : المهمل الصامى والمستوفى بعد الرافى ج ١ لوجه ٢ (مخطوط بنار الكتاب
 المصرية)

وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق . وحاول أيك هدم هذه المعارضة الأيوبية باقامة أمير من ذرية بني أيوب إلى جانبه ، واستقر الرأي على تولية المدعو الأشرف موسى ^(١) ، وهو طفل في نحو السادسة ، ليكون شريكاً أيك في السلطة ، فصار يحطب باسمهما على على منابر مصر وأعمالها ، وصريت لهما السكة على الدينار والدراهم . غير أن هذه الحيلة لم تدخل على الأيوبيين لأنهم يعلمون تماماً أن الأشرف موسى لم يكن له عبر الاسم ، على حين كانت الأمور جميعها بيدأيك . عندئذ أعلن أيك أن البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم عليها ، وأنه نائب الخليفة المستعصم بها . وبهذه الحيلة الثاية حاول أيك هدم المقاومة الأيوبية غير أنه لم يكتف بذلك علماً أنه أن الناصر يوسف لن يرجع عن عزمه في سهولة ، فأخذ يستعد لمحاربه .

أما الملك الناصر يوسف فإنه رأى لكى يضمن النجاح لحملته على مصر ، أن يضم إلى جانبه الملك لويس التاسع المقيم في عكا ، وعرض عليه مقابل ذلك تسليمه بيت المقدس الذى كان تحت أمره الأيوبيين في ذلك الوقت .

وعلم أيك بأنباء هذه المفاوضات ، فأرسل إلى الملك لويس تهديداً بقتل أسرى الصليبيين المقيمين بمصر إن قام بأى عمل عدائى ضده . وفى الوقت نفسه أبدى له استعداداً لتعديل معاهدة دمياط ، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة ، إن تحالف معه ضد الناصر يوسف . غير أن الملك لويس التاسع فضل أن يقف بين الفريقين موقف الحياد ، وأن

(١) وهو الأشرف موسى بن يوسف بن المسعود بن الكامل ، وكان حده المسعود صاحب اليمن المعروف بأقيسوس المتوفى سنة ١٢٢٨ م ، وعاش أبوه في كنف الصالح أيوب حتى توفي عن هذا الطفل الصغير موسى (المرقوم : السلوك ج ١ ص ٣٦٩) .

يستغل نزاعهما لصالحه .

ولما بش الناصر يوسف من مساعدة لويس التاسع ، زحف بجيوشه نحو مصر ، وسارع إليك للقاءه ، ولكنه خشى في الوقت نفسه أن يقوم الصليبيون بهجوم مفاجيء على مصر ، فأمر بهدم ثغر دمياط مجازهم المفضل ، فوقع الهدم في أسوارها يوم الاثنين ١٨ شعبان سنة ٦٤٨ هـ (أواخر سنة ١٢٥٠ م) حتى خربت كلها ولم يبق منها سوى الجامع وأخصاص من القش على شاطئ النيل يسكنها جماعة من الصيادين وضعفاء الناس وسموها المنشية ^(١) .

ثم التقى المماليك بالأيوبيين في معركة عامة عند بلدة العباسية بين مدينتي بليس والصالحية ، في ٣ فبراير سنة ١٢٥١ م ، انتصر فيها الملك الناصر أول الأمر ، ولكن فرقة من مملوكيه ، وهم العزيزة ^(٢) ، حذلوه وانصموا إلى المماليك السحرية لعلّة الحشية على قول المراجع المعاصرة ، ففر الناصر ومن معه من أبناء البيت الأيوبي إلى الشام منهزمين ، بعد أن نفقوا عددا كبيرا من القتلى والأسرى . وقرر إليك أن يواصل زحفه نحو الشام للقضاء على مراكز المقاومة الأيوبية ولكي يضمم النجاح لمشروعه ، حاول أن يصم لويس التاسع إلى حابه ، ووعدته بيت المقدس بمجرد استيلائه عليه من الملك الناصر يوسف وفضل لويس التاسع ، بعد أن رأى انتصار الجانب المصري أن يستحيب لعروض إليك ويترك سياسة الحياد .

(١) المقرئى - السلوك ج ١ ص ٣٧٢ واستمرت دمياط على هذا الحال حتى عمرها السلطان يبرس الهند قلبرى من جديد سنة ١٢٧١ م (٦٦٩ هـ) راجع (ابن ايلس - المراجع السابق ج ١ ص ٨٧ ، ١١١) .

(٢) العزيزة نسبة إلى العزيز محمد والد الناصر يوسف ، وقد انتقلوا إلى طحمة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٣٦ م .

وفى أوائل مايو سنة ١٢٥٢م أتمق أيك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من الشام . وكانت الخطة المتفق عليها هي أن يستولى لويس التاسع على يافا ، بينما يحتل أيك غزة ، ومن هناك يتم الاتصال بين الحيتين في منتصف مايو سنة ١٢٥٢م ، للقيام بهجوم عام مشترك على ولايات الأيوبيين ^(١) . وتنفيذا لهذه الخطة ، احتل الملك لويس مدينة يافا دون مقاومة ، بينما تقدم المماليك بقيادة أقطاي نحو غزة ، غير أن الملك الناصر يوسف ، الذي علم بأخبار هذا التحالف ، سقهم إلى احتلالها بقوة حرية كبيرة ، فاستطاع بهذا العمل الحريء أن يحول دون اتصال المماليك بحملاتهم الصليبيين ، ويفسد عليهم خططهم المشتركة .

واستمرت جيوش المماليك في الصالحية ، وجيوش الأيوبيين في غزة ، كل منهما تتحمر بالأخرى ، إلى أن أنقذ الموقف أخيرا الخليفة العباسي المستعصم عندما توسط لدى العريقين ، وتمكن رسوله نجم الدين البادراني ^(٢) من عقد الصلح بينهما في أبريل سنة ١٢٥٣م (٦٥١ هـ) على أن يكون للمماليك مصر وجنوب فلسطين بما في ذلك غزة وبيت المقدس ، بينما تظل السلاطنة الشامية في أيدي أصحابها من أبناء البيت الذويبي . وهكذا مثل لويس التاسع في تحقيق آماله بامتلاك بيت المقدس ، ولم يستطع بعد ذلك البقاء في الشام خصوصا بعد وفاة والدته الملكة بلاش Blanche (القشتالية) التي كانت تحكم فرنسا في غيابه كوصية على العرش ، فاضطر لويس التاسع إلى الرجوع إلى بلاده سنة ١٢٥٤م .

King op. cit. p. 250

(١) راجع :

(٢) البادراني نسبة إلى قرية بادران بأصبهان .

على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أن تدخل الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، لم يكن هدفه إيقاف التدخل الصليبي في شئون الشرق العربي فحسب ، بل كان غرضه أيضا توحيد الجهود لتكوين جبهة اسلامية أمام خطر جديد أشد من الخطر الصليبي ، وهو الخطر المغولي الذي كانت جحافلها قد اجتاحت الحدود الاسلامية الشرقية بقيادة جنكيزخان وقصت على الدولة الخوارزمية التي كانت بمثابة الترس المانع الحامي لجميع الدول الاسلامية في غرب آسيا والشرق الأدنى من هجمات المغول وغيرهم من الآسيويين . وهكذا انتهت العقبة الأولى في تأسيس الدولة المملوكية الناشئة وهي النزاع بين المماليك وملوك البيت الأيوبي .

٢ - ثورة الاعراب ضد حكم المماليك :

العقبة الثانية التي اعترضت السلطان أيك ، هي الثورة الشعبية التي قام بها الاعراب أو العربان في مصر وذلك في سنة ١٢٥٣م .

من المعروف أن القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح العربي ، أخذت تتحول تدريجيا إلى شعب رراعي مستقر ولاسيما في اقاليم الصعيد والشرقية ، وأطلق عليهم اسم العرب المزارعة . وكان هؤلاء الاعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أمالي البلاد . غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الاعراب كانوا يتمتعون بمركز اجتماعي أعلا مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولاسيما ابان الحروب الصليبية . وكان مسايح العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف ، كذلك كانت مساهمتهم في الانتاج الزراعي ودفع الخراج كبيرة نسبيا .

وكان تعسف امراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها والتلاعب في أسعارها أحيانا ، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طوال العصر المملوكي . وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم « فساد العربان » ، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب نظرا لبراعة المماليك في فنون القتال .

واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي على القسوة والقهر مثل : التوسيط ، والتسمير ، والمعاصر ، ونشر الأحسام ، وسلح الحلود ، ودفن الأحياء ، وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نساءهم ، إلى غير ذلك من وسائل القتل والتعذيب المعروفة في العصور الوسطى شرقا وغربا .

وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بعية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المازعات والاضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك . وهؤلاء كانوا يسمون بالحرافيش وبالزعر أو زعر العامة ويبدو أن هذه الألفاظ كانت مشرقة بحثة بدليل قول المؤرخ الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب في سب أحد ملوك غرناطة : « وكان حرقونا على عرف المشاركة »^(١).

على أنه يلاحظ كذلك أن هذه الثورات العربية ، إلى جانب دوافعها الاقتصادية ، كانت لها أيضا أهداف سياسية وهي إلغاء حكم المماليك وإعادة إلى العرب الأحرار أصحاب السيادة القديمة على البلاد .

ويبدو أن هذا الهدف السياسي هو الذي أثار مخاوف المماليك

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، ص ٢٠ نشر أحمد مختار العبادي.

ودفعهم إلى اتباع سياسة العنف والقسوة في قمع تلك الثورات خوفا على سلطاتهم . وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك ، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيلك التركماني سنة ١٢٥٢م (٦٥١هـ) وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل سياسة واقتصادية كما أسلفنا فالمماليك منذ أن انتصروا على الأيوبيين في موقعة العباسية وتدخلت الخلافة في صالحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا مزارع فبالغوا في الفساد والأستهثار وزيادة الضرائب إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقرئزي وأبي المحاسن فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا إن الفرغ لو ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم .

والظاهر أن حركة الاستياء والتذمر لم تقتصر على العناصر العربية فقط بل صارت حركة شعبية (عامة مدليل) قول أبي المحاسن : أن أهل مصر لم يرضوا بسلطان مسه الرق ، وظلوا إلى أن مات السلطان أيلك وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومرت بالطرقات ويقولون لا يريد إلا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة .

وتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوى وهو حصن الدين بن ثعلب الذي ظلم في السلطة وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للمغرب وليس للمسيح الأرقاء ، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى وفي منطقة الشرقية بالوحد البحرية وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذرورة سريام أو دروة الشريف (نسبه إليه) وتقع بين النيل وترعة المنهى التي هي الآن بحر يوسف .

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيلك ولكن الناصر يوسف لم يكن في

وسعه محاربة أيك في ذلك 'وقت اد كانت رمل الحليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما .

وكان العرب يومئذ في كثرة من الرحال والحيل والمال بفضل مشاركتهم في حرب الصليبيين فكونوا جيشا كبيرا والتفوا حول زعيمهم حصن الدين وحلفوا له وأضطر السلطان أيك أن يرسل حملة تأديبية على هذه الثورة . ومن العجب أن يسد قيادتها الى منافسه أقطاي ، وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية .

وخرج أقطاي من القاهرة بحملة آلاف فارس من خيرة المماليك ، وتوجه الى الشرقية حيث كانت أكر مظاهر العصيان وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس الى العرب تغلب المماليك بفضل تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم اقطاي ونهضت المقاومة العربية في بليس سنة ١٢٥٣ غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى ، حيث ظل حصن الدين طليقا ، وأقام حكومة مستقلة هناك ، ولم يتمكن أيك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه الى أن خدعة السلطان يسرس البندقداري وقبض عليه بعد أن أمنه وشقه بالاسكندرية ^(١) وكيفما كان الأمر في نهاية الأمير حصن الدين فالمهم هنا أن أيك تغلب على أحد العناصر المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر .

(١) راجع (شهاب الدين العمري) التعريف بانصالح الشريف من ١٨٨ وروى المقريري (السوك ج ١ ص ٢٨٨) رواية أخرى تختلف عن رواية العمري يقول فيها أن الشريف حصن الدين طلب من أيك الأمان فأمنه ووعدته باقطاعات له ولأصحابه فأتخذه الشريف وانجته هو وأصحابه الى القاهرة فشق الجميع ويمت بالشريف الى الاسكندرية فحبس بها وقد علق بوليالك على هذه الرواية بقوله ويظهر أن الرواية التي سردها المقريري عن استئصال شاعة العرب في عهد أيك لم تكن الا طعنا للحقيقة كانت غايته منها تمجيد الأتراك المماليك لأن خطر العربان ظل باقيا حتى نهاية حكم المماليك .

راجع : Poliak: Les Revoltes Populaires en Egypte, R.E.I., 1934

٣- خطر زملائه المماليك :

أما العقبة الثالثة التي اعترضت حكم أيك وهددت كيان الدولة الناشئة فهي خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي وكان أيك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها ، ومن ثم أخذ يحمل على تقوية نفسه ، فأشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه (الملك المعز) كما عين مملوكه قطز المعزى نائبا للسلطنة بمصر ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة وعزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه الاسمي في الحكم وانفرد بالسلطنة .

على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن الا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر اقطاي وزملائه البحرية ، فبجمع المؤرّحون على أن أقطاي وصل إلى قمة المنجد حصوفا يعلم كغلبه على ثورة العرب وأصبح لا يظهر في مكان الا وحوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه ملك متوج وكانت نعمة ترى أن ملك مصر لا شيء عنه وكان كثيرا ما يذكر الملك المعز في مجلة ويستقصه ولا يسميه الا أيكا وقد بلغ ذلك المعز فكان يحصى عنه لكثرة حشدا شتية البحرية وبعمارة أخرى أخذ أقطاي يربو علانية نحو السلطة كما أخذ حشدا شتية (زملاؤه) يسعون في تحقيق بغيته فلقبوه فيما بينهم بالملك الجواد وعملوا على ترويضه من إحدى أميرات البيت الأيوبي وهي أبة الملك المظفر نقي الدين ملك حماة ، بل اتهم تأمروا على قتل أيك ليحلو الجولا قطاي ، ثم حدث أن طلب أقطاي من أيك أن يأذن له في الإقامة مع عروسه بقلعة الجبل (المقطم) لكونها من بنات الملوك فلم يبق بعد ذلك لدى أيك أي شك في نوايا أقطاي فصمم على قتله وفي يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) طلب أيك إلى أقطاي الحضور إلى قلعة الجبل لاستشارته في أمر من الأمور بعد أن اتفق مع ممالكه المعزية على اغتياله وركب أقطاي إلى القلعة في عدة من ممالكه فما كاد يدخل

من باب القلعة المؤدى الى قاعة العواميد أو القاعة الكبرى حتى أغلق خلفه ومنع ممالিকে من اللحاق به ثم انقض عليه المتآمرون ومنهم الأمير قطز المعزى وقتلوه بسيوفهم وأشيع خبر مقتله فى القاهرة فهرع لانقاذ سبعمائة من حشداشيته ومنهم الأمير يبرس البندقدارى والأمير قلاوون الالفى وفى منهم أنه لم يقتل بعد وإنما قبض عليه فلم يشعروا الا ورأس أقطاى قد رمى بها اليهم من سور القلعة . ولقد أفزع هذا الحادث كبار المماليك وخشوا من أن تدور الدائرة عليهم فهرب من استطاع الهرب^(١) الى ملوك البيت الأيوبى فى الشام مثل الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، والمعبث عمر ملك الكرك كما التحأ مائة وثلاثون منهم الى سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيخسار وصيدا بن كيخسار وصاحب قونية بأسيا الصغرى .

والواقع أن مقتل أقطاى قد شغل المماليك الى حربين متواترين وهما البحرية والمعزية مما عرض قيام دولة المماليك لاشد الأخطار اذ أخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبى على عزو مصر ، ولم يخف ذلك على أيك فعمد أولا الى مصادرة أموال المماليك البحرية ، كما قبض على من بقى منهم فى مصر وشت نمل من وآلهم من طوائف المماليك الأخرى .

ثم كتب أيك إلى الملوك الذين لجأ اليهم البحرية وحذرهم منهم ومن غدرهم وشهرهم فأجابه الناصر يوسف بأن طلب اليه اعادة البلاد التى أخذها من فلسطين وهى مدينة القدس وساحل فلسطين ، ليقم بها المماليك البحرية لأنها من انقطاعهم وبذلك يكون قد أراضاهم وأبعدهم عن مصر .

(١) يلاحظ أنه فى أثناء فرار المماليك كانت أبواب القاهرة مغلقة فاصطروا الى حرق أحد أبوابها الشرقية وهو باب القراطين فسمى بالباب المحروق منذ ذلك الوقت .

غير أن أيك ظن أن هي تلك الأجابة خدعة وإن الناصر يزعم
 الزحف على مصر مرة أخرى بعد أن صارت البحرية في جانبته فرأى أن
 يستجيب إلى طلبه واعاد البلاد المذكورة فعلا إلى أصحابها ولكه تجهز
 للخروج بجيوشه إلى الحدود المصرية وعسكر بالقرب من بلدة العباسية
 مدة ثلاث سنوات تقريبا ولم يعد إلى القاهرة الا بعد أن تقرر الصلح بينه
 وبين الناصر سنة ١٢٥٦م (٦٥٤م) بوساطة رسول الخليفة المستعصم نجم
 الدين البادرائي على أن يكون لأيك الديار المصرية وساحل الشام وعلى الأ
 يأوى الملك الناصر عنده أحدا من البحرية واضطر المصاليك عندما علموا
 بما تم إلى الرحيل إلى المغيث عمر ملك الكرك^(١) وهو الأيوبي الآخر
 الطامع في مصر وكان بعض أحوالهم قد لحأوا منه أول أمرهم إلى سلطان
 سلاجقة الروم فكتب إليه ايك كتابا يقول : فيه البحرية قوم ماحيس
 أطراف لا يقفون عند الإيمان ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم
 وأن أستاذتهم حابوا وأن استحلصهم كذبوا وإن وثقت بهم غدروا عنحرر
 منهم على نفسك فأنهم عذارون مكاررون حوافون ولا امن أن يمحروا
 عليك فحاف سلطان الروم منهم فاستدعاهم وقال : يا أمراء مالكم
 ولاستاذكم ؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يا مولانا
 من هو استادنا : قال الملك المعز صاحب مصر فقال الباشقردى : بحفظ
 الله مولانا السلطان ان كان الملك المعز قال في كتابه انه استادنا فقد أخطأ
 انما هو خشناسا ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر سنا وقدرنا
 وأحق بالمملكة ونحن التجأنا إليك فاعجب السلطان بهم وأستخدمهم عنده .

(١) أطراف جمع طرف ، وهو الرجل الذى لا يثبت على صفة احد

غير أن أيك لم يخش شيئا من سلاجقة الروم لبعد المسافة بينه وبينهم بل خاف أن يقوم المغيث عمر بمثل ما قام به الناصر من قبل فكتب الى الخليفة المستعصم بلمصر تشريفة بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدم من ملوك مصر وسمى في نفس الوقت في تعطيل حلعة الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق رغم ما بينهما من حلف اذ خشي ان تتحرك أطماع الناصر من جديد بعد وصول الخلعة الحليفية اليه . ويظهر أن أيك أخذ يشعر بما بين زوجته شجر الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات فعزم على الزواج من غيرها وأرسل منه ١٢٥٦ ميلادية الى بدر الدين لؤلؤ^(١) الانابكي صاحب الموصل يطلب اليه حلعا زواجيا لم يعلم عنه الا ما تداولته المراجع من خطبة أيك لابنة بدر الدين وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج اذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات الموصل عن طريق صاحب الموصل وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيك ، لأن مضارة امرأة مثل شجر الدر وهي التي دلت على مهارة وقوة شخصية أيام الصليبيين كان أسوأ من اللعب بالدار ذلك أنه لما علمت

(١) هو لؤلؤ بن عبدالله السورى الملك الرحيم بدر الدين أبو المعاتل الأرمي الانابكي صاحب الموصل كان في الأصل مملوكا لبدر الدين أرسلان شاه زنكي وترقى عنده حتى صار استاذارة والخلافة في دولة وبعد موت نور الدين سنة ٦٠٧ هـ استقر في الملك بعده ولده القاهر مسعود وقام بدر الدين بتدبير منكة وبعد موت القاهر ثم ولديه الصغيرين استقل بدر الدين بالملك سنة ٦٢١ هـ وسمى نفسه بالملك الرحيم وأخذ يتقرب للخليفة المستعصم بالله حتى بعث له الخلع والتقليد بالسلطة وقد رأى ابن واصل نفسه فوصفه قائلا ورأيت من تجمله وعنايته بالمرسل والواردين عنه مالا رأيت عند ملك من الملوك ولم يزل بدر الدين مائلا للموصل وبلادها الى أن ملك التتر بخسلا وأستولوا على العراق والجزيرة سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) فتوجه بدر الدين الى هولاكو ملك التتر فالتزمه على ولايته ثم رجع الى الموصل فمات بها سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ).

شجر الدر بما يته لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية
 لسلطنة فقام بعض من بقى فى مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج
 فقبض أليك على عدد كبير منهم أيد كى الصالحى وسيرهم لقلعة الجبل
 لسجنهم فى الجب فلما وصلوا الى قرب قاعدة القصر السلطاني حيث
 سكنت شجر الدر أحنى الأمير ايد كى رأسه احتراماً وقال بالتركية والله
 يا حوند^(١) ما عملنا ديا وحب مسكنا ولكه لما سير يحطب بت صاحب
 الموصل ما هان علينا لأجلك فاما تربية نعمتك وبعمة الشهيد المرحوم
 الصالح ايوب فلما عتبناه تغير علينا وفعل ما ما ترين فأومات اليه شجر الدر
 بمنديلها بما معناه قد سمعت كلامك .

وعندما نزلوا بهم الى الجب ، قال ايد كى : ان كان قد حبسنا فقد
 قتلناه ، ومعنى هذا أن شجر الدر كانت بتت هي الأخرى لأليك جزاء
 وفاقا وأن قضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم فى الرواح ، بل لأنه
 علم بمؤامرتهم فأراد أن يقضى على الحركة كلها بالمفصل بين أمراء
 المماليك وزعيماتهم . غير أن شجر الدر كانت قد دبرت مالم يكن فى
 الحسبان إذ أرسلت سرا أحد المماليك العزيزة الى الملك الناصر يوسف
 بهدية ورسالة تحميه فيها أنها عرمت على قتل أليك والتزوج منه وتمليكه
 عرش مصر ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً من أن يكون فى الأمر خدعة
 ولم يجيبها بشئ وعلم بدر الدين لؤلؤ بأخبار هذه المقارضات السرية فبعث
 الى أليك ينصحه أن يأخذ حذرة وخاف أيبك على حياته فترك القلعة
 وأقام بمناظر اللوق وصمم على قتل زوجته قل أن تقضى عليه ويقال فى

(١) الحوند لفظ تركى أو فارسى واصله خيلوند بضم الحاء ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به
 الذكور أو الأنثى نظراً (المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ٢٢٤ حاشية رقم ٢٢) .

هذا الصدد أن منجما أخبر أليك بأنه سوف يموت قتيلا على يد امرأة ولا شك أن المنجم كان عليما ببعض ما يجرى من وراء ستار اذا المعروف أن الزوجين أخذوا يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة وأنتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها اذا أرسلت شجر الدر الى أليك رسالة رقيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور اليها بالقلعة فاستجاب لدعوتها وصعد الى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجر الدر خمسة من الفلمان الأشداء لاغتياله منهم محسن الجرى ونصر العزيزى وسنجر وكان آخرهم من ممالك اقطاي وقد قام هؤلاء الفلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريل سنة ١٢٥٧م (٦٥٥هـ) وأرادت شجر الدر أن تتفادى عواقب هذه الجريمة بأن تولي السلطة أميرا يقبض على زمام الموقف وتحقق خلقه في الحكم ~~فعرضت~~ السلطنة على جمال الدين بن أيدعدى العزيزى وعز الدين أليك الجلبى ولكنهما لم يجسرا على ذلك وأمتعا وفي اليوم التالى ذاع الخبر في المدينة فأمسح الممالك المعزية الى القلعة وقبضوا على الحدم والحريم وتعذيبهم اعترفوا بحقيقة ما حدث وعندئذ حاول الممالك المعزية قتل شجر الدر ولكن الممالك الصالحية حالوا بينهم وبينها وسعوا الى أنقاذها باعتقالها في برج الأحمر^(١) بالقلعة فأحاط الممالك المعزية بالقلعة وأخذوا يتحينون الفرص لقتلها وكان من المحتمل انقاذ شجر الدر من الموت في ذلك الوقت نظرا لحماية البحرية لها ، ولخدماتها الجليلة التى لم تس بعد لولا أنها جلبت على نفسها حقد امرأة المعز الأولى وأم ولدة على التى أخذت تتحرق شوقا للانتقام

(١) كان بالقلعة عدة أبراج منها البرج الأحمر الذى به الملك الكامل ويعرف اليوم باسم برج المقطم في الجهة الجنوبية من القلعة .

من شجر الدر التي منعت زوجها من ريارتها وأرعمته على طلاقها فأخذت
هي وأبناها يلحان في تحريض المعرية على قتلها الى أن صغفت معارضة
الصالحية في النهاية وحملت شجر الدر اليها فأمرت حواربها بقتلها وهما
يقول المقرئى فضربها الحوارى بالقياقب الى أن ماتت والقوها من سور
القلعة الى الخندق وليس عليها سوى سروال وقميص فقيت في الخندق
أياماً وأخذ بعض أراذل العامة نكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام وقد شنت
وحملت في قفة بتريتها قرب المشهد النفيسى .

ولقد نعصب الماليك المعزية لابس سيدهم المدعو نور الدين على
فأقاموه سلطاناً في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) ولقبوه بالملك
المنصور وكان عمره وقتئذ خمسة عشر عاماً واعتزى الماليك الصالحية
على سلطنة وانفقوا على سلطنة ائبلك العسكر الأمير عام الدين منجر
الطبي وحلفوا له ولكن مبرعان ما قبض عليه المعرية وسجنوه في الحب
بالقلعة عندئذ اضطرب حشداً شتته من الصالحية وحذروا ان تدور
الدائرة عليهم فأمعنوا في الهرب الى الشام ، وحرص الماليك المعرية في
أثرهم وقبض على عدد كبير منهم وأثار مملك المعرية استياء بعض
الطوائف المملوكية الأخرى مثل الأشرفية حتى أشنع أبهم انفقوا على ازالة
نفوذ المعزية من الدولة ، مما كان من المعرية الا أن قصصوا على الأشرفية
وهبوا دورهم ولجأت الطوائف المملوكية من بحرية وعير بحرية التي
سئمت الوضع في القاهرة الى ملوك الأيوبيين بالشام ولا سيما المنفيث
عمر صاحب الكرك حيث أخذوا يحرصون على أخذ مصر ملك آباءة
وأجدادة حتى استجاب لدعوتهم وسعى بمعاونتهم في الاستيلاء على مصر
وحاول ذلك مرتين في سنة ١٢٥٧ م (ذ القعدة ٦٥٥ هـ) وفي سنة

١٢٥٨م (ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ) ولكفة رد في كليهما خائباً مهروماً
بفضل شجاعة نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز المعزى.

وهكذا بدت الدولة وسلطانها صبي وهى لم تنزل فى دور التكوين
ولم تكن بحاجة الى ما يترقب على قيام الصغار من منافسات ومؤامرات
داليلية فضلاً عما خفى وقتذاك من عوامل الخطر الخارجى مما كان
أدهى وأعظم وهو الخطر الممغولى .

* * *



الفصل الخامس

خطر المغول أو التتار على قيام الدولة المملوكية

الأولى في مصر

لم يتعرض الإسلام لأوقات عصيبة مثل التي تعرض لها زمن الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي أي السابع الهجري ، اذ دمرت الجيوش المغولية مدن المسلمين ، وأتت على كثير من الناس قتلا أو أسرا أو تعذيبا ، وقوضت معالم المدنية بكل مكان في غير شفقة أو رحمة . ومن سوء حظ آسيا الاسلامية انه لم يوجد بها وقتذاك قوة تستطيع مواجعة مثل ذلك الغزو العنيف الذي قاده جنكيزخان ^(١) وأولاده وأحفاده ، فالخلافة العباسية سادرة في الاضعلال ، ودولة السلاجقة في بغداد تبدو كأنها أثر بعد عين ، أما في غرب بغداد ، فتوجد دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى وهي الأخرى آخذة في الضعف والتدهور ثم الدولة المملوكية الناشئة بمصر والشام ولما تلغ من العمر سوى بضع سنين ، وكيانها لا يزال في كفة الميزان ، وأخطار حداتها لا تزال محدقة بها من كل جانب داخلي وخارجي . ثم زحف هولاكو حفيد جنكيز خان غربا نحو فارس في فبراير سنة ١٢٥٤ . فقتل على قلاع

(١) جنكيزخان - يعني أقوى الحكام - وهو الذي اختار هذا الاسم لنفسه ، أما اسمه الحقيقي الذي عرف به في صلبه فهو تيموجين ومعناه في اللغة الصلبة الصلب الخالص . وقد تمكن تيموجين بعد حروب وسراعات مع أبناء جنسه أن يصل إلى عاتق وهي زعامة الممولى سنة ٦٠٩ هـ وأن يجعل منهم قوة يضربها المعاصرون لأنها لا تهزم ، وبهذه القوة المخلقة استطاع هذا الاسكتنر الاسبوى أن يكتسح البلاد شرقا وغربا حتى ترك لأولاده امبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الاسود ، وكنت وفاته في سنة ١٢٢٧ م (٦٢٥ هـ) .

الشيعة الاسماعيلية الباطنية بها ثم قصى على الخلافة العباسية وجميع ولايات غرب آسيا ، ولم يسق أمامه سوى الدولة المملوكية بمصر والشام^(١) ويرجع السرفى انتصارات المغول إلى تفوقهم فى الأسلحة وإلى سرعة اطباقهم على العدو ثم إلى سرعة الرماية وإحكامها ، فأعمالهم الحربية قائمة على السرعة ، والقدرة فى السق وهى المعبر عنها اليوم بالحرب الحاطنة ، ومعظم أسلحتهم هى البال ذات الأطراف القولاذية أو العظمية أو القربية ، ولا تخلو جعبة الجندى المغولى من عدد كبير من أوتار القسى ومعها ابرة ، وشمع لإصلاحها ، ومبرد لسن أطراف النبال . ثم كانت سيوف المغول مدبة حادة أصلح للطعن منها للضرب ، ودروع خيولهم من حلد مقسى مطلى . ويضع المغول أسلحتهم وأمتعتهم فى جعبات من الجلد يمكن نفحها ليستمعوا بها على اجتياز الانهار . وتيألف الجيش المغولى من العناصر الأصلية كالمغول والتتار ثم من عناصر أخرى ملحقة به من الشاقرد والقرغيز والترك ، التركمان وغيرهم ، وتوامها جميعا فصائل من الفرسان كل منها عشرة أو مائة أو ألف أو عشر آلاف من الجنود . وفيه فصلا عن المقاتلة فصائل اضافية من مهندسين واحصائيين فى فن قذف المجانيق وآلات الحصار وإصلاح مختلف أدوات القتال . ويقضى النظام التترى بالطاعة التامة ، وينكر أن يهرب واحد من صفوف الجند أو يترك زميلا عاجزا أو أسيرا فى يد الأعداء دون أن يقدم على انقاذه ، ونساء المغول يتمتعن بحرية كبيرة ، ويحاربن مثلما يحارب الرجال ، وكثيرا ما كن يحملن أطفالهن حول أعناقهن^(٢) ، صفوة

(١) راجع Howorth: History of the Mongols Vol . I. p.193 وكذلك D'Hosson : Histoire des Mongols III p. 134.

(٢) لاحظ ذلك الرحالة الطنجى اس بطوطة فقال والنساء كالرجال سافرات يحضرن=

القول إن الأمة المعولية كلها عملت في صفوف الجيش المعولي لتوفر له ما يحتاج اليه من طعام ومعدات .^(١)

وتعتبر سنة ١٢٥٨م (٦٥٦ هـ) سنة مشئومه في تاريخ الدولة الاسلامية ، اذ أستولى المغول في فربار منها على بغداد قلعة الاسلام وحاضرة العاسيين ، وأعملوا فيها معاول التحريب والسياف والنار بصعة أيام ، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته واهتز المسلمون فرقا لتلك الكارثة ، لأن الخلافة العاسية طلت رغم ضعف سلطانها السياسي ، محتفظة بمركز الرعامة الروحية إلى درجة تفوق مركز البابوية في روما ، فلا عجب اذا اذ حيل للمسلمين أن العالم على وشك الاسحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة عل أنها تعبير عن سخط الله ، وأنحدوها أدلة على ما سيحدث في العالم من انقذاب سي لحطوه من خليفة .^(٢)

وتتح عن سقوط بغداد في أيدي التتار آثار ونتائج عديدة في الحياء الاسلامية : فالوحدة السياسية للمسلمين أصححت من الأمور التي يستحيل تحقيقها ، أضف إلى ذلك أن الثقافة الاسلامية منيت على أيدي التتار بخسارة كسبة حين أئلف المعول ألاف من الكتب القيمة والمخطوطات السادرة ، وقتلوا كثيرا من العلماء والأدباء ، وشتتوا شمل من بقي منهم في مختلف البقاع الإسلامية . وجذبت مصر عددا كبيرا من هؤلاء العلماء ، مما أدى إلى انتقال مركز الزعامة الفكرية إلى القاهرة التي

= مجالس الرجال . وكان سلطان المغول يصدر أوامره باسمه وأسم خواتمه (زوجاته) .
Cambridge Medieval History vol .Ivp.637 (١)

(٢) السبوطي - تاريخ الخلفاء - ص ٣٠٩ .

أضحت بحكم وضعها الجغرافى أقرب من بغداد إلى أوروبا ، مما ساعد على اقتراب العالم الغربى من الحضارة الشرقية ^(١) وما يقال بصدد هجرة العلماء والأدباء يقال كذلك على أهل الحرف والصناعات وغيرهم من أهالى بلاد المشرق الاسلامى ، مثال ذلك أن مصر استقبلت إبان الغزو المغولى عددا كبيرا من المشاركة الذين بنوا لأنفسهم بيوتا على ضفاف الخليج وحول بركة الفيل ^(٢) . وقد جلب أهل الحرف منهم بعض أساليب بلادهم الفنية وتأثر المعمار المصرى نتيجة ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ببعض المؤثرات الفارسية والعراقية ، ومن المحتمل جدا تكون خطة بناء مسجد الطاهر ييسر مأخوذة من رسم مسجد ميفارقين الذى أنشئ فى سنة ١٢٢٣ م ^(٣) ، وعلى الرغم من أن هذه الأساليب والمؤثرات الفنية ، قد وجدت فعلا فى مصر قبل القرن الثالث عشر ، إلا أن تلك الهجرات الأخيرة كانت مدعاة لطهورها وأحيائها ^(٤) ، والواقع أن سقوط بغداد وقيام دولة ايلخانات مارس على عهد هولاكو ، قد فصل أراضى شرق دجلة عن غربه ، ففى الشرق اتسعت دائرة الحضارة الفارسية ، وفى الغرب قامت البقية الباقية من الثقافة العربية ،

Caml . Med . Hist , Vol4 p.641.

(١)

(٢) المقرئى : الحطط ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥

Creswell: The works of Sultan Baibars, Bulletin de l' Institut Francais D'archeologie Orientale tome 26 P. 181

(٤) الواقع أن هجرات أهل الحرف نتيجة المرور لمصر لم تكن جديدة على مصر والإسلام ، فهناك أمثلة عديدة من هذا النوع تذكر منها حادثة المهندسين الأرمن الثلاثة الذين هاجروا من الرها إلى مصر ، وأشرقوا على بناء حصون الفاطميين بالقاهرة سنة ١٠٨٧ م (٤٨٠هـ) فى عهد المستنصر بالله ، ومن المحتمل أن مجيئهم إلى مصر كان نتيجة لهروبهم من مدينة الرها التى أحلتها السلاجقة قبل ذلك بعام .

بعد أن كانت حضارة العالم الوسيط من ممرقد إلى اشبيلية قائمة على التعاون الفكري والتبادل العلمي ولأدبى بين الفرس والعرب فى ظل الخلافة العباسية . حقيقية إن الفارقة بين اللغتين الفارسية والعربية ظهرت قبل ذلك بقرون نتيجة لسهو القومى الفارسى ، إلا أنه مد سقوط بغداد قلت أهمية اللغة العربية بين الفرس وأصبحت قاصرة على البحوث الدينية والفلسفية ^(١) وترتب على سقوط بغداد أيضا الاتجاه فى إعادة ترتيب العالم السياس مثل وجوب تعيين حدود جديدة وعقد محادثات مختلفة ، كما ترتب عليه تغيير سلاطين الماليك فى مصر سياستهم نحو الخلافة أد جعلهم يفكرون فى احياؤها من جديد ، وفى الوقت نفسه أعطاهم فرصة قصيرة من الرمن يستعدون فيها لصمد هذا السيل المعولى الجارف المدفع بحوهم ومع أن سقوط بغداد بين للمسلمين ضرورة توحيد الجهورل ازاء ذلك الحظر العام ، ظل النزاع بين السنة والشيعة قائما مستمرا ، فاستغل المعول ما هنالك من تنافس لصالحهم ، ورحفوا نه العرب يعيشون فسادا وتحريبا يساعدهم فى ذلك انقسام المسلمين ، وأيد هولاءكو حزب الشيعة واتخذ الاحتياطات التى تكفل سلامة قبر الامام على بالسجف من التدمير .

ومن الطبيعى أن يتلو ذلك غزو الشام ، وما يليها عربا ، حيث أضحت الامبرطورية التى أسسها السلطان صلاح الدين الايوبى منقسمة إلى قسمين ، وهما مصر التى رال عنها حكم الأيوبيين وصار سلاطينها من عماليكهم ، ثم الشام وقد سيطر على مدنها عدد من ملوك بتي أيوب على رأسهم الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، الذى أوجس خيفة

من التقدم المغولي، وقدر أن هولاءكو وجنوده سوف يستولون على الشام بين عشية وضحاها ، وأن الشام لن يجد من يحميه من ملوك الايوبيين أوماليك القاهرة سواء ، لذا أرسل ابنه الملك العزيز محمد سنة ١٢٥٨م إلى هولاءكو يطلب وده ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من أيدي المماليك ، وكان حريا بهولاءكو أن يقبل الطلب لو أن أمير دمشق أحاطه بشئ من العناية وذهب بنفسه يطلب حلف الايلخان المغولي ويعرض عليه ولاءه وتبعيته، ولكن الناصر لم ير فيما يبدو أن يرتبط بعهد وثيق ، ففضل البقاء بعيدا عن حضرة هولاءكو ، حتى إذا أصيبت القوى المغولية بالهزيمة أمام المسلمين استطاع أن يجد لنفسه بعض المماذير . وغضب هولاءكو من هذا الوفد الذي لم يناسب مقامة ، فأرسل إلى الملك الناصر رسالة يأمره فيها بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط ^(١) وعندما رأى الملك الناصر حوط مسماء ، وأن محاولته هزيمة ^(٢) جعلته مريضا محمد المسلمين ، رد على رسالة هولاءكو برسالة كلها قذو وساب ، ودفع ثمن ذلك عاليا فيما بعد

وفي ستمبر سنة ١٢٥٩م (٦٥٧هـ) عرا هولاءكو الشام بحيش قوى، وحاصر ابنه يشموط ميافارقين ، وأدرك الناصر استحالة الوقوف وحده في وجه التتار ، فقرر أن يطلب من المماليك معونة حرية تسمح له بوقف سبل المعيرين . وكان سلطان مصر في ذلك الوقت الملك المظفر سيف الدين قطز وهو من الحوارزمية ^(١) النقاقمين على التتر والعارقين بما

(١) كان قطز شابا أنقر كبير اللحية يقال أن اسمه الاصلى محمود ابن مودود ، وأنه ينسب إلى بيت الملك مي خوارزم - ابن أخت جلال الدين خوارزمشاه - ولما قصى المول على ملك هذه الأسرة كان قطز من السفهاء الذين حملوا إلى دمشق ، وهناك بيع ببيع الرقيق للسلطان أليك التركماني ويؤثر عن قطز أنه قال لأحد المجسمين : لما أكسرهم - أي التتار - وأخذ بشار خاني خوارزم شاه وسقال أن كلمة قطز معناها بالتركية =

يسفكوه من دماء في أى بلد يحلون فيه . وعلى الرغم من سوء العلاقات بين قطز والناصر ، فإن خطورة الموقف جعلت السلطان المملوكى يتناسى الأحقاد ويقبل طلبه الحاصر بإرسال نخدات عسكرية إليه . ويظهر دهاء قطز بوضوح فى الرسالة التى أرسلها إلى الناصر لهذا الغرض ، اذ يحبره فيها بأنه يقل كل عروصه عن طير حاطر ، ولا يقتصر على ذلك بل يعتر الناصر أيضا - بصفته سليل صلاح الدين ملكا على جميع الممالك التى خضعت لسلطان الايوبيين ومنها مصر ، ثم يضيف بأنه - أى قطز - ليس إلا أحد قادته على صفاف الليل ، وأنه بتعهد أن يعطيه السلطنة العليا اذ أراد القدوم إلى القاهرة . كما يعرض عليه أن يرسل له جيشه إلى دمشق ليحبه عاء القدوم بنفسه إلى القاهرة إذا كان يرتاب فى صدق بواياه . وسواء أكانت هذه الوعود آتية من الفرع من هولاكو أو آتية من أن قطز يريد أن يحدد أمير دمشق ليأخذ أملاكه فيما بعد ، فإن الممول انتهزوا فرصة سكون الناصر وتابعوا السير إلى الشام ، فاستولوا على حلب فى ٢٥ يناير سنة ١٢٦٠ م . صفر ٦٥٨ هـ) بعد سبعة أيام مروعة من السفك والتحريب . ثم سقطت ميفارقين بعد ذلك بعدة شهور فى يد يشموط ابن هولاكو ، بعد أن دافعت حاميتها دفاعا باسلا لم يشهد الممول مثله ، واستشهد صاحبها الملك الكامل محمد الإيوبي .

وأمام ذلك الخطر الداهم رأى بعض أمراء الايوبيين فى الشام أن يخضعوا للغزاة حرصا على كياهم ، ومن هؤلاء الملك الأشرف موسى

=الكلب الشرس - راجع (الكنى سوان الترمذيات - ج ٢ ، ص ١٣٢ - ١٩٣) ويلاحظ أنه فى تلك السنة عزل قطز المنفذ على بن أليك وأعلن نفسه سلطانا مبرا ذلك بقوله : لا بد من سلطان قاهر يقاتل العدو وينصير على من لا يعرف تدبير المملكة .

سليب أسد الدين شيركوه الذي لم يكن يملك في ذلك الوقت إلا قرية تل باشر الصغيرة قرب الرها . وكأفله ، هولاكو على ذلك بأن رد إليه إمارة حمص التي أخذها منه الناصر يوسف قبل ذلك باثني عشر عاما (٦٤٦هـ) ، وجعله قائده العام في الشام ، أما الناصر فإنه خرج بجيوشه من دمشق ومعه مماليكه الناصرية والعززية وعدة من البحرية وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري ^(١) ، وخيم على يرزه ^(٢) ، على مسافة يسيرة من دمشق شمالا . غير أن تعدد عناصر جيشه وقديم التناقربين ذلك العناصر فضلا عن اختلاف قلوب امرائه ، وتأمر مماليكه الناصرية على قتله ، وخوف الأمراء من هولاكو وحنوده ، سرعان ما جعل ذلك التعص أن ينسحب إلى عزة حيث يكون على مقربة من النجدة التي وعده بها سلطان مصر وكانت هذه الحطة المتقلبة موافقة إلى أقصى حد لطبيعته فإنه لم يفكر مطلقا في حماية عاصمته وتعرض حياته للخطر بها ، بل أسرع بتركها لوزيره زين الدين الحافظي ^(٣) ، الذي سلمها للمعول في مارس

(١) سبق أن اشرنا إلى مقاومة الممالك البحرية للملك الناصر والتجائهم إلى الملك المميت الأيوبي صاحب الكرك ونصيب إلى ذلك بأن هؤلاء الممالك لجأوا إلى الاعارة على املاك الملك الناصر الأمر الذي جعله يرحف بجيوشه نحو الكرك ويحاصر المميت بها سنة ٦٥٧ هـ لحماية لهم واضطر المميت إلى قبول شروط الناصر التي منها تسليم ما عنده من البحرية إليه ولما علم بيبرس بذلك هرب في جماعه من البصرة إلى املاك الناصر طالين منه المعفو معنى عنهم وأدخلهم في خدمته ، وقص المميت على من بقي عنده من البحرية وحث بهم إلى الملك الناصر فاعتقلهم بقلعة حلب ، وغلوا بها إلى أن استولى التتار عليهم فأخذهم هولاكو مع من أسر إلى بلاده ، راجع (ابن واصل - مفرج الكروب = ج ٢ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١) ، أبو الفدا ج ٣ ، ٢٠٣ ، المقري : الملوك ، ج ١ ص ٤١٤ - ٤١٥ ، أبو الحسن النجم الزاهرة : ج ٧ ، ص ٥٣ .

(٢) هي قرية بالخطوة - (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٦٣) .

(٣) الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر المقرباني المعروف بالزين الحافظي كان =

سنة ١٢٦٠م (ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ) ، وحاولت قلعستها
 الحصينة المقاومة دون جدوى ، واستسلمت الحامية في ٣ يونيو من نفس
 السنة ^(١) . ونجت دمشق من التدمير ^(٢) ، بفضل وساطة أعيانها ،
 واقتدت انطاكية بدمشق في التسليم ولكنها لم تسلم من التدمير ^(٣) .
 وفي ذلك الوقت علم هولاكو بموت أخيه الخان الأعظم منجوقان ، فأسند
 قيادة جيوشه في الشام إلى كتبغاوين ورحل مسرعا إلى القورلتاي -
 مجمع زعماء التتر - في العاصمة قرة قورم ^(٤) ، حيث تجرى الانتخابات
 لاختيار خاقان المغول الجديد . وقدر هولاكو أنه سوف يعين خاقانا

= أبوه خليب عقرها من قرى دمشق ، واشتعل هو بالطب حتى مهرمه ، ولقب بالحافظي لأنه
 خدم المحافظ نور الدين أرسلان شاه بن العادل أبو بكر بن أيوب صاحب قلعة جعبر ، ثم
 انتقل إلى خدمة الملك الناصر يوسف بن طغرل ، فصارت له عدة مرلة رفيعة ، وكثرت
 أمواله ، وصار مكينا في دونه ويوصل عنه إلى هولاكو ، فصارج التار وأطعمهم في البلاد ،
 وعاد مهول بهم على الناصر حتى هرب ، فقام هو بأمر دمشق للتار ودعوه بالملك دين
 الدين ، وبعد هزيمة التار في عبي جالوت فرح بواب التار من دمشق خوفا من الملك
 المنقذر وقد قتل دين الدين المحافظ بيد المغول سنة ٦٦٢هـ .

(١) نقش على جدران قلعة دمشق عبارة تذكارية من حملة المغول عليها تبين أن سقوط القلعة
 في أيدي المغول كان في ٢١ جمادى الآخرة ٦٥٨هـ (٣ يونيو ١٢٦٠م) وأن
 استعادة الجيش المصري والشاسي لها كان في ٢٧ رمضان من نفس السنة (٥ سبتمبر)
 أما المدينة نفسها فسلمت قبل سقوط قلعتها بسو شهرين

(٢) كان المؤرخ المعروف بأبي شامة موجودا بدمشق أثناء الاحتلال المغولي لها ، وقد وصف
 هذا الفرو مفصلا في كتابه : الدبل على الروضتين ، ص ٢٠٤ وخمسة بقوله : والحمد لله
 الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا .

(٣) Cambridge Medieval History Iv p.643.

(٤) قرة قورم مدينة في منغوليا على نهر زخود في وسط آسيا ولم يبق منها الآن سوى الأنقاض ودير بوذي .

للمغول لأهمية فتوحاته واتساعها ، ولكنه علم في تبريز ^(١) ، أن الاختيار وقع على أخيه قوبيلاي ^(٢) ، (١٢٦٠ - ١٢٩٤) ، وأن الاختيار تقرر بصفة غير شرعية بوساطة أمراء مغول الشرق الأقصى الذين أرادوا افساد الانتخابات قبل مجئ أمراء الغرب ، وكان ذلك منافيا لقواعد الحكم التي قررها جنكيزخان ، ولكن هولاكو قبل تلك النتيجة احتراما لأخيه قوبيلاي .

أما الناصر فإنه ما كاد يصل إلى عرة على رأس جيشه حتى أخذ قطز في اغراء وحدات ذلك الجيش واحتذابها إلى ناحيته ^(٣) ، وذلك لأن قطز لم يكن يحشى شيئا حشيه من وصول أمير أيوبى على رأس قوة حربية إلى حدود مصر . ونجحت اغراءات قطز حتى ألمى الناصر نفسه وحيدا في غزة ، فخرج منها فى بعض أقاربه وحاشيته وهو لا يدري بالضغط ماذا يفعل ، فاتحه إلى قطيا ^(٤) بجنوب فلسطين لعله يجد فيها ماوى أو نجاة من الممول من ناحية والمماليك من ناحية أخرى . وبينما هو على تلك الحال

(١) حلت تبريز منذ ذلك الوقت محل بغداد في الجاه والشراف ، وأصبحت العراق تحكم حكما مغوليا من هناك

(٢) صار قوبيلاي الحان الأعظم على بلاد الشرق حتى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) وأستولى على أنشاء حكمه على البقية من بلاد الصين ، ونقل عاصمة الشرق من قراقورم إلى خان بالق وهي بكين الحالية ، وأصبحت دولة قوبيلاي منذ ذلك الوقت بصفة صينية من دون سائر دول الشرق وعرفت الأسرة الحاكمة بها باسم يوان Yuen

Blochot : Histoire des Sultans Mamlouks I., P377.

(٣) يروى أبوشامه فى هذا العدد العبارة التالية : . . . فترجعه الترك إلى مصر مع الأنفال ، وتوجه هو - أى الناصر - مع خواصه إلى وادى موسى ثم نزل بركة ريزى وكبسه نائب التار بها . راجع (النيل على الروضتين - ٢٠٥) .

(٤) وتكتب أيضا قطية وهي قرية من نواحي الجعمار فى الطريق بين مصر والشام فى وسط الرمل قرب القرماء بها جامع ومارستان (مستشفى) وبها وإلى طلخانة مقيم لأخذ العشر من التجار ، وبها قاض وناظر وشهود ومباشرون . لا يمكن أحدا من الجواز من مصر =

افشى أثمان من رجاله إلى كبتغايوس^(١) - نائب هولاكو بدمشق - سر ارتداد الناصر عن الحدود المصرية ، فأرسل القائد المغولي ثلة من الفرسان قصت على الأمير الأيوبي عند بركة زبراء^(٢) وحملته إلى هولاكو وأختار هولاكو أن ينسى خطاب السب الذى أرسله إليه الناصر ردا على خطابه ، أولعله - لأن للمغول لا ينسون شيئا - رأى أن أمير دمشق أنفع له وللמسياسة التى يرى اتباعها مع المسلمين من أمير حمص الشاب الملك الاشرف موسى ، ولهذا لقيه لقاء طيبا ، ووعد به بأحياء الامبراطورية الأيوبية الممتدة من أطراف الشام إلى النوبة ومن بركة إلى الفرات ، كما وعده بأنه سوف يجعل له السيادة الفعلية فى تلك البلاد كلها بما فى ذلك مصر بشرط أن يعترف بسلطان المغول وسيادة الحان الأكبر ، وهذا تنضح لنا حقيقة لها



- إلى الشام أو بالعكس إلا بحوار معروف . وكان بها مكان أحد المكس من القادمين إلى مصر (ياقوت - معجم البلدان ، ج ١ ص ١٤١) ، وقد اختلفت هذه القصة الآن ولم يبق الا أطلالها فى الطريق بين القطرة والعريش فى الجنوب الشرقى من محطة الرمانة (الرومانى قديما) وعلى بعد عشرة كيلو مترات منها - راجع - (أبو المحاسن - النجوم - ج ٧ ص ٧٧ حاشية رقم ٢)

(١) بر د أسم هذا القائد على صيغ مختلفة مثل كتبوا وكتبوا وكتبوا نون ، وهو من قبيلة نيرة اعتنقت الدين المسيحى منذ قرون وقد يكون هذا من الأسباب التى جعلته يضطهد مسلمى دمشق ويعظم قسوس الصارى ويرى كتابهم بما يشجع نصارى دمشق على الاستطالة على المسلمين (أبو شامة - الذيل على الروضتين ص ٢٠٨ ، المقرئى - السلوك - ج ١ ص ٤٢٥) ومن - حسب ضبط صبيح الأعشى - ج ٦ ص ٣٣ - لفظ قلسى كثيرا ما يقرن بأسماء قواد التترومناه مقدم ألف وقيل عشرة آلاف - (أبو المحاسن - النجوم - ج ٧ ص ٧٨ حاشية ٢) .

(٢) قرية من قرى البلقاء الكبيرة ، والبقاء كورة من أعمال دمشق - بطونها الحاج ويقام بها لهم سوق - وفيها بركة عظيمة (ياقوت - معجم البلدان - ج ٢ ص ٩٦٦) .

أهميتها فيما يتعلق بسلامة دولة المالك في مصر ألا وهي تواطؤ ملك الأيوبيين مع المغول في القضاء على الدولة المملوكية الناشئة ، وهذه الحقيقة أن دلت على شي فإنما تدل على مدى ما تعرضت له الدولة المملوكية من الأخطار المهددة لحياتها . كما تدل على أن قيام دولة الممالك ظل ناقصا مادامت تلك الأخطار ماثلة .

ورأى هولاء أن تتابع جيوشه زحفها نحو الغرب ، غير مقتصر على الفتوحات الهامة التي تمت له بالاستيلاء على حلب ودمشق ، فأخذ بعد العدة للهجوم على بيت المقدس والتعقيب على ذلك بغزو البلاد المصرية ، فأرسل رسله إلى مصر بكتاب كله وعيد وتهديد وأتذار بالويل والثبور لسلطان مصر المملوكي أن هو لم يخضع له ويعترف بسلطان المغول . وقد أوردنا - كصميحة في آخر الكتاب - نص هذا الخطاب الذي يدل على مبلغ اعتداد المغول بأنفسهم ومدى ما أحدثوه في البلاد التي فتحوها من قتل وتخريب .

وامام هذا الخطر الداهم عقد السلطان قطز مجلسا من كبار الأمراء ، واستقر الرأي على مقابلة وعيد التتر بالاستعداد للحرب . وحوالي ذلك الوقت أخذ كثير من أمراء الممالك البحرية ، الذين هربوا من القاهرة أيام أيك خوفا من أن ينالهم ما نال أقطاي ، ويقروا في منتصف الدويلات الشامية الأيوبية ، وفي بلاط دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، أخذوا يفتدون إلى القاهرة بعد أن أنتشر للمغول بأكبر مدن الشام وهددوا آسيا الصغرى نفسها ، ونسى أولئك الممالك مخاوفهم بونسى قطز مخاوفه كذلك ، فرحب بمقدمهم ومنحهم الاقطاعات الجيلة الواسعة ، فصار

الممالك بذلك كتلة واحدة متحدة ، وتلك الظاهرة تتكرر كثيرا في صفوف الممالك أبان الأزمات التي تعرضت لها دولتهم في تاريخها الطويل ومن ضمن الممالك الذين رحلوا إلى القاهرة والقائلين بوجوب مقابلة التتر ، الأمير يبرس البندقدارى ^(١) ، الذي استقبله قطز مرحبا سنة ١٢٦٠م (٦٥٨ هـ) ، وأمره بدار السوزارة ^(٢) وأقطعته قليوب وأعمالها ^(٣) .

وكان رد قطز على تهديد هولاء وواضحا ، اذ قضى على رسل المغول وأعدمهم توسط ^(٤) وعلق رؤوسهم على باب رويلة ، ونودى في القاهرة وسائر الأقاليم بالخروج إلى الجهاد ^(٥) وهي نفس الوقت أخذ

(١) يقال إن يبرس طلب من الناصر عندما كان مقبلا عليه ، أن يقدمه أو يحرقه على أريكة آلاف فارس ليسوجه بهم إلى ~~خط الفرات~~ ^{خط الفرات} التتر من عبوره ، فلم يسكه الناصر من ذلك ، معارقه وقدم إلى مصر ~~الكتبي~~ ^{قرأت الوثائق} ، ج ١ ص ٨٦ . ويقال كذلك أن يبرس سب الوزير ~~الذي~~ ^{الذي} الحافظي حينما أشار على الملك الناصر بعدم معاملة التتر ، وصاح به قائلا : اسم سب هلاك المسلمين - راجع : المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) كانت دار الوزارة بجوار القصر الحلامي الماطى المعروف بالقصر الشرقي الكبير ، بها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ويقال أن بدر الجمالي نفسه هو الذي بها . وكان يسكنها الوزراء الدولة العاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل إلى أن زالت الدولة ، وكانت تعرف بالنار الأفضل . ثم استقر بها صلاح الدين الأيوبي وابنه المنصور ثم الملك العادل وحصاروا يسمونها بالدار السلطانية وأول من انتقل عنها من الملوك وسكن قلعة الجبل الملك الكامل بن العادل الذي جعلها منزلا للرسول ، فلما ولي قطز ملك مصر وحضر إليه الممالك البحرية من الشام خرج قطز للقائهم وأنزل الأمير يبرس دار السوزارة ، راجع (المقرئى : الخطط ، ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢) .

(٣) الكتبي : فوات الوفيات ، ج ٨٦ ، المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٤) التوسيط هو أن يضرب الشخص بالسيف صرية لقطعه نصفين بوكان هذا النوع من الاعدام شائعا بمصر في العصور الوسطى .

قطر يعمل على حشد الجيوش وجمع الأموال اللازمة للاتفاق بفرض ضرائب جديدة مختلفة على سكان مصر والقاهرة^(٢). ولقى قطر في جباية تلك الضرائب معارضة شديدة من جانب القضاة ورجال الدين ، اذ اشترطوا عليه أولا احضار ما عنده وعقد حريمة ، وما عند الأمراء من الحلوى وضربها سكة وقدا ، وتفريقها على رجال الجيش ، فإن لم تقم بكفائتهم جاز أن يفرض ضرائب جديدة على الرعية ، وأن يقترض من أموال التجار ليستعين بذلك على مجاهدة أعداء الدين. وامثل قطار لرأى رجال الدين ولم يشرع في جمع الأموال من المصريين إلا بعد أن أحضر هو والأمراء ما عندهم من الحلوى والأموال بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام أقوى رجال الدين مكانة في ذلك الوقت^(٣) ولم يقتصر الأمراء على ذلك بل لقي قطر لصعوبة أخرى في اقناع كثير من الأمراء بوجوب الرحيل معه من مصر للاقاة النصارى ، فأحد يعمل على إثارة حقوتهم واستنهاض هممتهم بقوله : يا أمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن احتار الجهاد

(١) المقري : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٩

(٢) وضع لما بن اياس (بدائع الزهور ج ١ ص ٩٦ - ٩٧) هذه الضرائب فقال أن قطر (أخذ في أساليب جمع الأموال فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أعيان الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث ، من المال ، وأخذ على الفبطان والسواني أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة فبلغ جملة ما جمعه من الأموال في هذه الحركة سنحاة ألف دينار . والمقصود بالترك الأهلية عناصر الترك للقيمة بمصر من زمن طوبى السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٧ حاشية ٥)

(٣) تاج الدين السبكي - طبقات الشافعية الكبرى - ج ٥ ص ٨٣ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٩٢

يصحني ، ومن لم يحسر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه ،
وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين ،^(١) . وكان لهذه الخطبة أثرها في
تقوية روحهم المنهارة فتحالفوا جميعا على الجهاد في قتال العدو ودفعه
عن البلاد .

يتضح لنا مما تقدم أنه فضلا عن الصعوبات الخارجية التي واجهت
دولة المماليك من جراء انضمام الأيوبيين إلى الممولى في غزو مصر ، واجهتها
صعوبات أخرى داخلية لا تقل عنها خطرا ، عندما أعلنت النعبة العامة من
مال ورجال لصد ذلك الخطر الممولى الداهم . وفي أغسطس سنة ١٢٦٠م
(رمضان سنة ٦٥٨ هـ) خرج قطر من مصر على رأس الجيوش المصرية
ومن أنصم إليه من الحدود الشامية وغيرهم ، وأمر الأمير بيسرس أن يتقدم
بقطعة من العسكر ليكشف أحبار التتار ، فسار بيسرس حتى لقي الممولى
عند غزة ، وتمكن بيسرس من أن يخلق بطلائع الممولى هزيمة كانت
الأولى في تاريخ الممولى غير أنها لم تكن حاسمة ، وأحد بيسرس يناوش
العدو ويرأوه ليخفى عنه تحركات الجيش الرئيسي بقياده قطر . ثم
نقدم قطر عن طريق الساحل ، فخرج أولا نحو عكا لكي يتسنى نيات الفرنج
الذين ارتبطوا مع الناصر سلطان حلب ودمشق بمعاهدة منذ ٢١ فبراير
سنة ١٢٥٤م وتستمر عشرة أعوام ، وقد اندمجت مصر في تلك المعاهدة
بعد عقدها في سنة ١٢٥٦م ، ويقول بعض المؤرخين في ذلك الصدد
أن الفرنج عرضوا وقتذاك على قطر أن يمدوه بقوات من عندهم ، ولكنه
أكتفى بأن طلب منهم التزام الحيدة التامة وإلا قاتلهم قبل أن يلقي التتر .
غير أن أحوال الصليبيين ببلاد الشام لم تكن تسمح لهم بتقديم أية

(١) القرطبي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢١ .

مساعدة للسلطان قطز أو المغول ، ولم يكن السلطان قطز في الواقع بحاجة إلى خشيتهم أو تهديدهم لأن أحوال مسيحي الشام جميعا ولاسيما في عكا بلغت أقصى درجات السؤ حيث قام نزاع بين الجنوة والبنادقة سنة ١٢٥٦م ، وسرعان ما تطور ذلك النزاع إلى حرب أهلية دخلت فيها كل العناصر المسيحية ، فانضم البيازنة ، وفيلب دي مونتفورت أمير صوّر إلى الجنوة وانضم بوهمند السادس أمير انطاكية إلى البنادقة ، ولم تستطع جماعات الفرمان الحربية المعروفة أن تقف مكتوفة الأيدي ، فانضم الاستاريون إلى الجنوة وانضم الداوية والتوتون وهبة القديس توماس أكون لازارس إلى البنادقة ، وامتدت الحرب على طول ساحل الشام برا وبحرا ، قتل عدد كبير منهم وتلفت كميات هائلة من البضائع ، ولم يته هذا الصراع إلا بعقد معاهدة بين الطرفين في ٩ أكتوبر سنة ١٢٥٨م . ومن هنا يرى أن حالة الفرغ الداخلية حينما تقدم قطز لقتال المغول سنة ١٢٦٠م - كانت من الضعف والسؤ بمكان بحيث لا تسمح لهم بالاشتراك فعليا في مساعدة القوة المصرية أو المغولية على السواء ^(١) .

ثم وافى قطز الأمير يبرس عند من جالوت ^(٢) . ويرى بعض المؤرخين أن رجوع هولاكو بجزء من جيشه إلى فارس قبيل ذلك الوقت أضعف من قوى المغول أمام المماليك ، بل يقول أبو المحاسن أن بعض أمراء

(١) Wiet : Histoire de la nation Egyptienne IV, p.410

(٢) بلدة شرق طبرين بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ويرجع هذا الاسم إلى الاسطورة القليلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان وقد سماها الصليبيون مدينة ،

Tubanea . راجع (ياقوت - معجم البلدان ج ٣ ص ٧٦)

أمراء المسلمين الخاضعين للتر، نصحوا القائد المغولي بالانتظار وشما يعود هولاكو أو يصل المدد من عنده إلى الشام ليستطيع ملاقاته الجيش المصري (١) وكيفما كان الأمر فإن رجوع هولاكو إلى فارس لم يغير من عزم التتر على التقدم لغزو مصر ، كما أنه لم يلق في نفوس المماليك أمنا ولا هدوءا ، بل ظلت قلوبهم مضطربة وأهمة من هؤلاء القوم الذين اجتاحتهم آسيا وجزءا من أوربادون أن تلحق بهم هزيمة واحدة . وفي صباح يوم الجمعة الموافق ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٦ رمضان سنة ٦٥٨هـ) التقى الجمعان المغولي والمملوكي في معركة عامة عند عين جالوت . وليس أدل على تفاصيل تلك المعركة وأسرارها من رواية « صارم الدين أزيك عبيد الله الأشرفي (٢) » الذي وقع أسيرا في يد المغول أبان

(١) يقال إن هولاكو كان يتأهب للرحيل على مصر بحوالي أربعين ألف جندي ، وإنا نؤقت أخيه صهوقان نضطره إلى الرجوع بجزء من جيشه إلى فارس بعد أن تروا بالشام قائده كتيبا نوبن مع عشرة آلاف من عساكره لتفقد مهمة فتح مصر - راجع (الرمزي - تلخيص الأخبار وتلخيص الآثار في وقائع قران وبلغار وملوك التتر - ج ١ ص ٤١٩) .

(٢) بدأ صارم الدين أزيك حياته مملوكا عند الملك الأشرف موسى صاحب حمص ، وشغل وظائف إدارية في الشام ، وهاش ببلاد المغول سنة من الرمان ، وتوفي في حوالي سن الخمسين بنهر - فبراير ١٢٨١م (شوال سنة ٦٧٩ هـ) بعد أن أعطانا معلومات دقيقة عن المغول ، وصورا حية عن عاداتهم وتصميمها التاريخ الذي كتبه قرطاي الرمزي الخازنلاري وهو أيضا - وظف مملوكي شغل وظائف أمير دمشق وحاجب حلب ونائب طرابلس وتوفي سنة ١٢٢٢م (٧٢٤ هـ) فوق سن الستين - والجزء الخاص بأخبار صارم الدين أزيك في تاريخ قرطاي الرمزي مخطوط بمكتبة الفليبيكان (ar.626) وقد نشره العالم الإيطالي Levi Della Vida تحت عنوان « غارة التتر على سوريا في سنة ١٢٦٠م كما رواها شاهد عيان »

ويوجد هذا النص في مخطوط (عبد الله بن أليك - كتر النور وجامع النور - ج ٨ ق ١ لوحة ٤٦ - ٥٣ -) مخطوط بيدل الكتب . ونظرا لأهمية هذا النص وأبنا نقله برمتة كضمانة في آخر هذا الكتاب .

غزوهام الشام ، وقبل الخدمة فى صفوفهم وحارب معهم فى تلك الواقعة ،
 فروايتها لها قيمتها لا بصفة شاهد عيان للموقعة فحسب ، بل للدور الذى
 لعبه فيها كما يتضح من النص حيث يقول فيه : . . لما قدمت الشام ،
 وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار
 المصرية ، وقد خرج المسلمون لقاتهم . فلما علمت أن التتار لا بد لهم من
 الديار المصرية ، بعثت علما لى فى صفة جاسوس وامرته أن يجتمع
 بالملك المظفر قطز ، والأمير بيبرس البندقدارى وبلبان الرشيدى وسنقر
 الرومى ، ويعرفهم أن التتار لاشيء فلا تحافوا منهم ، وأن تكون ميسرة
 المسلمين قوية بالحيل والرجال ، وعرفهم أن التتار فى عسكر قليل .
 وأوصيته أن يراعى المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس . فلما
 عمل غلامى إلى عسكر المسلمين وحذوهم حاتفين من التتار خوفا
 عظيما ، فاجتمع بعض الأمراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما أوصيتهم
 به ، وكنت قلت فى كلامى : قل للأمراء ، لا تحافوا ، ما لنا واصحابى
 والملك الأشرف ، نهزم بين أيديكم ، والله وكذلك كان . فلما سمع
 الأمراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض - لا يكون هذا معمولىة
 على المسلمين . فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت
 الشمس علينا وظللت عساكر الإسلام ، كان أول من جنى سبق أحمر
 وأبيض ، وكانوا لا يسن العد المليحة . وأشرقت الشمس على تلك المدد ، فطلعت كعبا
 وقد بهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم يحاربون
 من الجبل ، وقال لى : يا صارم ، هذا رنك (١) من ؟ قلت سنقر الرمى . ثم

(١) رنك كلمة فارسية بمعنى لون وقد استعملت فى أوروبا فى العصور الوسطى كشعار
 للأشخاص والأمريما استعملت فى الشرق كشعار للوظائف وكان من عادة كل =

ظهرت سناحق صفر ، قال : هذا رنك من ؟ قلت بلبان الرشيدى .
ثم تتابع الاطلااب أولا فأول وانحدروا من سفح الجبل ، ودقت الكوسات
والطللخانات ، وامتلا الوادى والبر من العياط وغابت الفلاحين وأهل القرية
والبلدان من كل جانب ، وكنت عرا بمعرفة رنوك المسلمين ،
فصار كتبنا يسألنى : هذا رنك من ؟ فصررت أى شىء طلع على لسانى
قلته ، ثم أن التار انحازوا إلى الجبل ، وفتح الله وبصر هذه الملة المحمدية
بالممالك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون
(١) ، ولكن قتل الجميع ولم يرد خبرهم الا من كان مقيما بدمشق أو
حلب .

وتزيد المصادر العربية المعاصرة فى تفاصيل هذه الواقعة على رواية
صارم الدين ، فتقول بأن المغول انقضوا على المصريين فى بأدىء الأمر
ونمكوا من تشتيت شمل جماعهم الأتيمر ، فاضطرب المصريون وتزلزلوا

تأمر مملوكى كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ، والرنك شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة
اللى شغلها الأمير وقت ترقته إلى مرتبة الإمرة أو على الوظيفة التى يؤثر أن يعرف بها من
بين الوظائف التى تقلب فيها وهو لا يختلف عن رنوك الأسرة الاقطاعية فى أوروبا فى
المصدر الوسطى الامن حيث كونها شحبه ومن حيث دلالتها على الوظائف فكان
لوظيفة الفواتر رسم دواء ، وللماقى رسم كأس وهو المعروف فى العصر المملوكى بأسم
هناج ، والجاشكير (الفواق) رسم خوان والسلاح فارسيف ، وللبند قنار سيف ، وللمجندار
بقعة وهكذا وقد جعل الأمراء هذه الرنوك دهانا على أبواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم
كمطابخ السكر وشون الملل التابعة لهم والاملاك والمراكب وغير ذلك ، وعلى قماش
محو لهم من جوخ ملون مقصوص ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وربما
جعلوها على السيوف والاقواس الخاصة بهم وممالكهم أيضا .

ولمع (الفلقشلى - صبح الاعشى - ج ٤ ص ٦ - ٦٣ ، لقرىزى - الملوك ج ١ ، ص ٦٧٣ جنية
رقم ٤ ، وكذلك - Fox Davies : Acomplete Guide to Heraldry p. 1-12)

(١) صيغة لاسم هولاء كورد كثيرا فى كتب المؤرخين المعاصرين .

زلزلا شديدا ، وبانت الكسرة عليهم ، وعد ذلك ألقى السلطان قطز
خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته «وأسلاماه» وقاد الهجوم
بنفسه فضرب بذلك مثلا من أمثلة الشجاعة النادرة إذ سرعان ما التفت
حوله القوات المصرية وحملوا على المغول حملة صادقة ، فاقتتل توازنهم
وارتدوا إلى التلال المجاورة بعد أن تركوا قائدهم كتبغا صريعا في الميدان
وابنه أسيرا في أيدي المماليك ، ولقد عاد المغول وانتظموا ثانية عند ييسان
فاشتبك معهم المصريون في معركة ثانية ، واشتدت وطأة القتال ، وعاد
السلطان قطز بصبح صحيحة عظيمة معها معظم المعسكر وهو
يقول «وأسلاماه» ثلاث مرات «يا الله، انصر عندك قطز على التار»
عد ذلك مالت كفة النصر إلى جانب الجيوش المصرية ، وانتهى أمر هذه
الواقعة الدامية التي اهتز فيها ميزان النصر والهزيمة مرات إلى نصر المماليك
وهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم ، عد ذلك نزل السلطان قطز عن
فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقلها وصلى ركعتين شكرا لله ثم ركب
لينظر عاقبة المغول (١) .

هذا وقد أورد القلقشندي (جـ ٧ ص ٣٦٠) رسالة فريدة على
لسان الملك المنظر قطز إلى الملك المنصور نور الدين سلطان الدولة الرسولية

(١) راجع المقرئى - السلوك - جـ ١ ص ٤٣١ ، أبو الحسن - النجوم الزاهرة - جـ ٧ ،
ص ٧٩ ، أبو الفداء - جـ ٣ ، ص ٣٢٤ ، عبد الله بن أبيك - كنز الدرر - جـ ٨ ق ١
، ص ٤٣ - ٤٣ ، ابن إياس - بدائع الزهور - جـ ١ ص ٩٧ . وقال أبو شامة في هذا
الصدد :

علب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي بجود بنفسه
بالشام أهلكتهم ويسد شملهم ولكل شيء أفة من جسمه
أنظر : (أبو شامة - الذيل على الروضتين - ص ٢٠٨)

باليمن يشره فيها بهزيمة التار ، والرسالة قطعة أدبية في وصف المعركة من انشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر . ويعترف القلقشندي بأنه تلقفها من اقواه بعض الناس كان قد عثر عليها في بعض المجاميع فحفظها منه ، وقد رأينا نقلها كضميمة في آخر الكتاب .

ولقد كانت وقعة عين جالوت الحلقة الأولى في سلسلة الوقائع بين التار ودولة المالك كما أنها تعتبر تجربة حرية بين أسلوبين وفنيين من فنون الحرب في العصور الوسطى .

ومن الواضح أن هذه الواقعة التي انتهت بهزيمة المغول لأول مرة في تاريخهم ، بددت عقدة المناعة الحرية التي كانت سر انتصاراتهم منذ أيام جنكيزخان ، فانتشعت عن العالم خرافة الاعتقاد بأن المغول قوم لا يهزمون^(١) ، على أن الأهمية الكبرى لهذه الواقعة هي أنها نصرت لجيوش دولة لازالت في دور التأسيس تلمس مختلف الوسائل التي تدعم بها أركانها ، فجاء انتصار الممالك في تلك الواقعة خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة ، وعاملا من العوامل المؤسسة لها إذ أخذ العالم الإسلامي ينظر إلى الدولة المملوكية نظرة كلها اجلال وعطف . وروايات المؤرخين عن هذه الحملة التي تجاوزت نتائجها الخاطفة كل آمال المسلمين بتشهد بفضل مصر ودولة المالك ، فيروى الحزرجي مثلا أن المظفر نور الدين سلطان دولة بنى رسول باليمن ، حج بجيش كبير في العام التالي للموقعة أى في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وهناك في الحجاز طلعت أعلامه الشريفة وأعلام سلطان مصر . فقال له احد الأمراء : هلا أطلعت أعلامك يامسولانا

السلطان قبل اعلام المصريين ؟ فقال له سلطان اليمن : « أترانى أؤخر
أعلام ملك كسر التار بالأمس ، وأقدم أعلامى لحضورى » ، هذا التصريح
الجميل يدل على أن دولة المماليك فى مصر قد اكتسبت عطقا ونفوذاً
فى العالم نتيجة لهذا النصر (١) .

ويقول أبو الفداء فى هذا المعنى أيضاً : « وتضاعف شكر المسلمين
لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب قد بثت من البصرة على
التتر ، لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا القليما إلا
فتحوه ولا عسكرا الا هزموه » (٢) .

وما تجب ملاحظته كذلك ، أن نصرة عين جالوت كانت قد
سبقتها نصرة سليية ليس للمماليك أنفسهم فيها فضل ، وهى أن المقاومة
الأيوبية التى ظلت تعارض قيام دولة المماليك ، وتلح فى المطالبة بعرش مصر
دونها ، قد انتهزت أمام الغزو المغولى . وقدأ على ملوك الأيوبيين ضعف
وتخاذل فى الوقت الذى أبدى فيه المماليك ثباتا وصلاحيه للبقاء .

وعلى الرغم من أنه ليس فى مقدورها أن تحكم على مسير مشروع
فتح مصر بالنسبة لأوروبا المسيحية التى أحدثت قننى آمالا كبيرة على انتصار
المغول على المسلمين (٣) ، فإن بعض المؤرخين الأوروبيين ذهبوا فى تقدير
أهمية عين جالوت إلى أنها لم تنقذ مصر والشام أو بالأحرى دولة المماليك
فحسب ، بل إنها أنقذت العالم الأوروبى والمدنية الأوروبية من شر لم يكن

(١) أنظر (المخرجى : المقود اللؤلؤة فى تاريخ الدولة الرسولية ص ٦٩)

(٢) أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ، ج ٢ ص ٢١٤

(٣) يشهد بذلك ما قاله أسقف سلطنة وشمر من أنه يأمل أن يفتى المسلمون والمغول بعضهم
بعضا ، وعندئذ يقيم المسيحيون على ائمتهم كيسة كاثوليكية عالمية موحدة . راجع :

لأحد من ملوك أوروبا وقتئذ قبل بدفعه (١) هذا ، ومن المعروف أن طريق الصحراء الغربية هو الطريق الطبيعي المعروف لدى الغزاة والفاطحيين الذين قاموا بغزو أوروبا من الحبوب في العصور المختلفة ، فلا أقل من أن يسلكه هولاكو بجحافلها أيضا كما سلكه هايسال وموسى بن نصير وطارق بن زياد والأغالبة والفاطميون وغيرهم من قبل وكما سلكه القائد الإنجليزي متجوهر من بعد في الحرب العالمية الثانية .

والواقع أننا إذا قارنا موقعة عين جالوت بالوقائع الحربية الحاسمة في العصور الحديثة مثل واقعة المارن في الحرب العالمية الأولى ، ومعركة العلمين في الحرب العالمية الثانية ، نجد أن عين جالوت كانت أقوى أثرا في تاريخ البشرية من كل تلك المعارك لأنها لم تكن حربا بين شعوب راقية متحضرة ، بل كانت حربا أحد الطرفين فيها - وهم المغول - شعب بدائي يرعى جبل على التخريب وسفك الدماء في كل مكان حل به . فانتصاره في تلك الواقعة كان معناه القضاء المرم على الحضارة الشرقية والغربية معا .

وكان نصر عين جالوت إشارة لحلاص الشام من أيدي المغول ، اذ أسرع ولاية المغول بالهرب قبل أن يقوموا في أيدي الشاميين الذين هبوا للانتقام ، وهذا بعض السر في استيلاء قطز في عدة أسابيع على البلاد الشامية كلها حيث أقيمت له الخطبة في المساجد حتى مدينة حلب ومدن الفرات . وقامت في مدينة دمشق - لما وصلت أخبار عين جالوت - مذبحة كبرى في التتر ومن عاونتهم على المسلمين من سكانها ، ونخص بالذكر منهم النصارى الذي تهجموا على الإسلام ، واعتدوا على

(١) راجع : Cambridge Med .History Vol . Iv p.628,643

(Brown :ALiterary History of Persia, P.6

المسلمين في خلال فترة الاحتلال المغولي للمدينة ، ولم يستتب النظام والأمن في هذه المدينة إلا بعد أن دخلها قطز على رأس الجيوش المصرية والشامية الطاقرة سبتمبر سنة ١٢٦٠م (٢٧ رمضان سنة ٦٥٨هـ) .

أخذ قطز يعمل على إعادة الأمن إلى نصابه في جميع المدن الشامية ، ومن سخرية الحوادث أنه أخذ يعيد بعض أمراء البيت الأيوبي إلى ممالكهم الصغيرة في الشام مثل الملك المنصور صاحب حماة ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص ، بعد أن أخذ عليهم الموائيق بالولاء ، ويدفع الجزية . كما أنه أنعم على أعوانه أمراء المماليك ، فأقطع الأمراء الصالحة والمعزية اقطاعات جليلة بالشام ، ورثب الأمير شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدة من المماليك المعزية (١) ، وأقام قطز الأمير علم الدين سنحر **كتاب له في دمشق** أما مدينة حلب التي أضحي صاحبها الملك الناصر الأيوبي أسيراً عند التتار ، فقد مسح قطز نيابتها إلى الملك المسعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ الذي فصل أن

(١) لفظ البرلي محرف عن الكلمة التركية برولو ومعناها ذو الأنف الكبير أو الأنف الأحمر - (المعزي : السلوك - ج ١ ، ص ٤٢٢ حاشية رقم ٢)

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن المماليك المعزية هم مماليك الملك المرير محمد صاحب حلب وقد أنتقلوا بعد وفاته إلى خدمة ابنه الملك الناصر يوسف ، وفي أثناء واقعة المعزة التي دارت بين الناصر وإيكة في فبراير سنة ١٢٥٤م (رجب سنة ٦٤٨هـ) خاض البرلي وجماعة من المعزية على ابن استادهم وصاروا مع إيكة ، ثم إنهم فصلوا بعد ذلك اعتياله إيكة ، وعلم بهم ، فقبض على بعضهم ، وهرب البعض الآخر وكان البرلي من جملة من سلم وهرب إلى الشام ، فلما وصل إلى الملك الناصر احتفله بقلمة عجلون ، وعندما اجتاحت التتار الشام ، أطلق الناصر سراحه قبل فراره من دمشق ، فلتجأ البرلي وأصحابه إلى مصر . واشترك في واقعة عين جالوت وكافة قطز بعد انتصاره فلوله الساحل وغزة وصار مقره نابلس .

يترك بلاده - الموصل - عن الاعتراف بسيادة هولاءكو^(١) وكان غرض
قطز من تلك المنحة ، أن يصبح الملك السعيد وسيلة لتتبع حركات المغول
واخبارهم عن طريق مكاتبه مع أخيه الصالح بن لؤلؤ صاحب الموصل^(٢)
، على أن تلك المنحة أدت إلى هلاك قطز، إذ أن الأمير يبرس البند
قدارى - الذى أبدى شجاعة فى عين جالوت لا تقل عن شجاعة السلطان
نفسه - كان يطمع فى نيابة حلب ، وطلبها فعلا من قطز، فلما رفض
السلطان أن يجيبه إلى طلبه ، تنكر له يبرس ، واتفق مع جامعه من الأمراء
على قتله وظل يترقب الفرصة لتففيذ غرضه . ثم واثته الفرصة أثناء عودة
السلطان إلى مصر وخروجه للصيد بالقرب من الصالحية ، ففى أثناء
رجوعه من صيده يريد الدهليز السلطاني ، وثب عليه يبرس فى عدة من
المماليك ، وقتلوه بسيوفهم فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٠ م (١٥ ذى القعدة
سنة ٦٥٨ هـ) ، واتفق الأمراء بعد ذلك على يبرس فأقاموه سلطانا
ولقب بالملك الظاهر ، ثم سار السلطان الجديد فى الجيوش حتى دخل
مدينة القاهرة بلا مقاومة وجلس فى ايوان القلعة بدست المملكة فى ٢٦
أكتوبر (١٩ ذى القعدة) من نفس السنة .

وهكذا أعتيل السلطان قطز ، صاحب الفضل فى تدعيم الدولة
المملوكية من الناحية الخارجية ولم تستقبله مملكته استقبال الفاعح المنتصر،
فحرم بذلك من لذة التمتع بشمرة انتصاره، ويروى أبو المحاسن أن قطز
« بقى ملقى بالمرء ، فدفنه بعض من كان فى خدمته بالقصير، وكان
قبره يقصد للزيارة دائما . . . وكان كثير الترحم عليه والدعاء على من قتله ،

Ency of Islam art Kutuz

(١)

(٢) أبو الفداء - ج ٣ و ٢١٦ .

فلما بلغ بيرس ذلك، أمر ببشه ، ونقله إلى غير ذلك المكان (١) ، وعفى
أثره ، ولم يعف خبره (٢) .

لما أسباب مصرع قطز فلاشك أنها أعمق بكثير من قصة رفضه
نيابة حلب لبيرس ، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سببا مباشرا لمقتله
عند الحدود المصرية . والواقع أن تلك الأسباب قديمة ترجع إلى أيام
السلطان أليك وتشريده معظم المماليك البحرية الصالحية ، وقتله زعيمهم
انطاي ، إذ صار مماليك أليك وهم المعزية ومنهم قطز ، أصحاب النفوذ
والسلطان في مصر واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائما حتى أعار
المغول على مصر ، فاضطر المماليك جميعا إلى الاتحاد بدليل قول العيني
أن المماليك البحرية اسحاروا إلى قطز المعري ، لما تعذر عليهم المقام بالشام
وللتناصر على سبابة الإسلام ، لا لأنهم أحلصوا الولاء له (٣) فلما
انتصر المماليك على المغول في عين جالوت ، ولم تق هناك ضرورة
للاتحاد وظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد ، وكان من نتائج
ذلك مقتل قطز المعري على يد بيرس الصالحية ، وهذا هو المعنى
الحقيقي لما أورد ابن أبي الفضائل تعقيا على مقتل قطز حين قلل
..... فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه
من الفساد (٤)

(١) برزى المقرئى (السنوك - ج ١ ص ٤٣٥) - وجعل قطز بعد ذلك إلى القاهرة
فدفن بالقرب من زاوية الشيخ نقي الدين قيل أن نمر ، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى
القراة ودفن قريبا من زاوية ابن عبود

(٢) أبو الحسن - النجوم الزاهرة - ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ ، راجع أيضا المكتبي . صواب
الوثائق - ج ٢ ص ١٢٢ .

(٣) العيني - عقد الجمان - (الجزء الخامس بحوادث ٦٥٦ - ٦٧٢ هـ) ، ورقة ٤٢٨

(٤) ابن أبي الفضائل - المهج المنيد ص ٤٠٩ - ١٠ أنظر كذلك (المقرئى =

وروى ابن أياس في هذا الصدد : « ولما سم أمر يبيرس في السلطنة
، رسم باحضار المماليك البحرية الذي كانوا منفيين في البلاد » ، كما
روى في موضع آخر وكذلك المقرئى ، أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال
يبيرس عقب عودته إلى القاهرة ، فقتل بعضهم ، وسحب ونفى
البعض الآخر (١) .

وهذه النصوص إن دلت على شيء فانما تدل على أن مقتل قطز
كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك
المعزية .

السلوك = ج ١ ، ص ٤٣٧ .

(١) ابن أياس - بقاتع الزمرد - ج ١ ، ٩٩ - ١٠٠ ، المقرئى ، السلوك ج ١ ص ٤٤٧ .



الفصل السادس

السلطان الظاهر بيبرس

(٦٥٨ - ٦٧٦ هـ - ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م)

تدعيم أركان الدولة المملوكية الأولى

في مصر والشام

تعلبت الدولة المملوكية الأولى على البدو في مصر ، كما تغلبت على معظم أباء البيت الأيوبي بالشام ، ثم بينت للعالم مقدرتها الحربية بالانتصار على المغول في عين جالوت ، وأحاطت نفسها منذ قيامها في مصر والشام بآيات الولاء للخلافة العباسية حتى اعترف الحلفاء بسلاطينها اعترافا تاما ، فأكسبهم ذلك الاعتراف صفة شرعية للحكم وأحاطهم بحماية تحميهم من عسى أن يفكر في انتزاع السلطنة منهم ، تلك عوامل البقاء التي نعمت بها الدولة المملوكية الأولى عندما صار الظاهر بيبرس سلطانا على مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ثم أضاف السلطان الجديد عوامل جديدة لا يستطيع القيام بها إلا حاكم بصير موهوب قوى الشكيمة شديد العزم . وتلك العوامل أتم بيبرس بناء الدعائم التي أقام عليها سلاطين المماليك بعده توريثهم .

١ - القضاء على الثورات الداخلية :

وأول ما قابل بيبرس أثر اعلانه سلطانا ، ثورتان داخليتان في وقت واحد تقريبا أواخر سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) أحدهما بدمشق ، والأخرى

فى القاهرة فاستغلها بيبرس استعلالا قوى دولة الممالىك داحلىا
وخارجىا فى آن واحد .

أما الثورة الأولى ، فمسمها الاحتجاج على ما حدث من مقتل قطز
والانفة مما فعله بيبرس دون أن يستشير من تنبى استشارته . وقام الأمير
علم الدين سنجر الحلبى الذى استنابه قطز بدمشق ، ونادى بنفسه
سلطانا على دمشق فى نوفمبر سنة ١٢٦٠م (ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ)
وتلقب بالملك المجاهد ، وركب بشعار السلطنة ، وخطب له على المنابر
وضربت السكة بأسمه ، وأخذ فى تحصين قلعة دمشق استعدادا للقتال ،
ولم يكتب بذلك ، بل أرسل إلى الأمر حسام الدين لاجين العزى نائب
حلب ، والملك المنصور الأيوبى صاحب حماة ، والملك الأشرف موسى
صاحب حمص ، ليدخلوا فى طاعته وشدوا أزره ، فرفضوا اجابة طلبه
خشية بيبرس فىما يبدو . ولم تستطع رسل السلطان وكتبه اقناع الشائر
بلزوم الطاعة ، فقرر بيبرس أن يجرد جيشا للقضاء على تلك الثورة قبل أن
تستفحل ، وعاد الجيش نائب دمشق إلى القاهرة مقربا فى الاصفاد فى
يناير سنة ١٢٦١م (١٦ صفر سنة ٦٥٩هـ) حيث أعنقل بقلعة الجبل
بعد شهر واحد من اعلانه الثورة ، وولى بيبرس أساد . علاء الدين
البندقدارى نيابة دمشق التى انصوت منذ ذلك الوقت تحت لوائه . وبذا
قضى السلطان فى سرعة وعزم على إحدى الحركات الانفصالية فى تاريخ
السلطنة المملوكية ، مما برهن على سلامة دولة الممالىك وصلاحياتها
للبقاء .

أما الثورة الثانية فزعيمها رجل شيعى يعرف بالكوراني^(١)، أظهر الزهد والورع، وسكن قبة بحبل المقطم، وتودد إليه الغلمان والركابدارية^(٢) وجماعة من السودان، فأخذ يدعوهم ويحرضهم على قلب نظام الحكم المملوكى السنى واستبداله بحكم شيعى، وأقطعهم الاقطاعات وكتب لهم الرقاع، وتمخضت تلك الدعوة أو الدعاية عن ثورة سنة ١٢٦٠م (أواخر سنة ٦٥٨ هـ). فشق الشوار شوارع القاهرة ليلا وهم يتنادون: «يا آل على» وفتحوا حوانت السيوفيين بين القصرين، وأخذوا ما فيها من سلاح، واقتحموا اصطبلات الجنود، وأخذوا منها الخيول. وهنا برهن بيبرس على أنه لا يؤخذ بهذه الطريقة، فأرسل من الجند مما كفل الحوطة على الشوار والقبض على جميع زعمائهم، حتى إذا خمدت الثورة، أمر السلطان بصلب الكوراني وغيره من الزعماء على باب زويلة وهكذا قضى بيبرس قضاء مبرما على البقية الباقية من الحركة التى ظلت تعمل على هدم المنية فى مصر وغيرها منذ عهد صلاح الدين بدليل خلو المراحع العربية من أحجار أية حركة مشابهة فى مصر أو الشام طوال العهد المملوكى الأول والثانى سواء، وهذا الدليل بدوره يدل على مبلغ أمعان بيبرس فى هدم الثورة، ما جعل توفيقه فى انحمارها جديرا بأن يعتبر عاملا من عوامل تدعيم دولة المماليك.

(١) نسبة إلى كوران من قرى اسفرايين - واسفرايين بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان، راجع (ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧، ج ٤، ص ٣١٩).

(٢) الركابدارية هم الذين يحملون الطائفة بين يدى السلطان فى المواكب وهم تابعون للركاب خاناه وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج واللحم، وله موظف خاص يسمى مهتار الركاب خاناه القلقشندى. صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٢٧.

٢ - أحياء الخلافة العباسية في القاهرة وما ترتب عليه من أعمال دينية ومعادية :

على أن يبهرس ليس صاحب فصل على السنة في اخماد تلك الحركة الشيعة فحسب، بل أنه جعل الدولة المملوكية تبدو كذلك صاحب فضل على العالم الإسلامي ، ويظهر ذلك بوضوح في أظهار تعلقه بأحياء الخلافة العباسية السنية المسهارة ، اد نحم عن روالها من بعداد مشكلة كبرى ومعى فى أى جهة تكون الخلافة ، ولمن تكون الخلافة من أبناء البيت العباسى الذين تشتوا فى بواى العراق والشرق الأدنى بعد هذه الكارثة ؟

والمشوار فى الكتب أن السلطان يسرس أول من فكر فى احياء الخلافة ليقيلها من عشرتها الدائمة التى لحقتها على يد دولا كو وحووده . وليظهر أمام العالم الإسلامى مظهر الحامى للخلافة ، ولجعل لنفسه شيئا من النفود والرعاية على البلاد الإسلامية ، كما يجعل من دولة الناشئة دولة شرعية يجب المحافظة عليها .

والواقع أن يسرس ليس أول من فكر فى ذلك المشروع ، من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر والشام ، وإنما هو الذى نجح فى تحقيقه فقط ، والأدلة على ذلك كثيرة ، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر سنة ٢٦٩ هـ (١٨٢١م) حينما استبد بالخليفة أخوه رولى عهده الأمير أحمد الموفق ، فأرسل إليه كتابا يقول فيه : قد منعنى الضعام والشراب والنوم حوفى على أمير المؤمنين من مكروه يلحقه مع ماله غنى عنقى من الإيمان المؤكدة . وقد اجتمع عندى مائة

ألف عان أُنْجَاد ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤسس الانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ، ولا ينهياً لأخيه (الموفق) فيه شيء مما يحاف عليه في كل لحظة ، ^(١) ولا شك أن أحمد بن طولون أراد بذلك أن يدعم دولته الجديدة التي أسسها في مصر والشام ، وأن يمتنع عن إرسال الجزية السنوية إلى دار الخلافة ، بالإضافة إلى تخطيم منافسه في بغداد . غير أن مشروع ابن طولون لم يتحقق ، إذ أن الموفق قبض على أخيه الخليفة في الموصل وأعادته إلى بغداد .

كذلك حاول محمد الاحشيد نفس المحاولة حينما ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) لإغاثة الخليفة المتقي من جور الحمدانيين بحلب ، ومن استبداد الأمراء الأتراك في بغداد فلقية بالرقعة في شمال الفرات ، وخرج عن بعد وهو سيفه ومبطلته وحبته على سبيل الخدمة وقيل الأرض مرارا ، ثم تقدم فقبل يده ، وطلب منه أن يصحبه إلى مصر ، ولكن الخليفة عز عليه آخر الأعران بترك عاصمته ومقر أسرته فرفض هذا العرض ، وعاد الاحشيد إلى مصر ، على حين عاد الخليفة إلى بغداد ، ولا شك أن الاحشيد رأى أن في اجتذاب الخلافة العباسية إلى مصر ما يقوى دولته التي أسسها في مصر ^(٢) . كذلك يقال إن الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق فكر في أحياء الخلافة العباسية أوائل سنة ٦٥٨ هـ ، وأنه ما كاد يعلم من عيسى بن مهتا ، أمير العربان بالأطراف الشرقية والشمالية المتاخمة للحدود العراقية . أن أميراً عباسياً واسمه أبو العباس أحمد يريد

(١) عبد الله البلوي : سورة أحمد بن طولون ، ص ٢٨١ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الرابع سنة ١٩٦٦ .

القدوم إلى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه إليه ، لكن الناصر فوجئ بقدوم التتار إلى الشام ، فانصرف عن أبي العباس ، وعاد الأمير العباسي ثانية إلى عيسى بن مهنا . ثم أن السلطان قطز فكر سنة ٦٥٨ هـ في إعادة الخلافة إلى بغداد ، بدليل أنه بعد واقعة عين جالوت استدعى الأمير أبا العباس أحمد المذكور إلى دمشق وبايعه بالخلافة ، وقال للأمير عيسى بن مهنا « إذا رجعنا إلى مصر أنقذه لنا لنعيده إن شاء الله » ولكن السلطان قطز قتل قبل تحقيق غرضه ، فسار أبو العباس إلى الحدود الفراتية حيث تمكن بمن معه من عرب وأتباع أن يحتل بعض المدن هناك مثل عانة والحديثة والانباء وأن ينتصر على مرية من عسكر التتار

من هذا وذاك نرى أن ملوك المسلمين قبل يبرس رغبوا في إحياء الخلافة العباسية ، وأن تلك الرغبة ظلت قائمة حتى تولى يبرس البندقداري سلطنة مصر ، فشرع في إخراج المشروع إلى حيز التنفيذ ، ولذا أرسل في طلب إبي العباس أحمد وكان لا يزال بالعراق يحاول محاولته ، فقدم أبو العباس إلى القاهرة . غير أن أبا العباس كان قليل الحظ ، إذ سبقه إلى حضرة يبرس رميل آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم أحمد ، ففضل هو الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها الشائر على يبرس شمس الدين أقوش البرلي العزيزي ^(١) ، ولقبه الحاكم بأمر الله ، ثم أمده بسبعمئة فارس من التركمان . فسار بهم

(١) لم يستمر عصيان أقوش البرلي طويلاً إذ تمكنت الجيوش المصرية من أخماد شوره بحلب سنة ٦٦٠ هـ فدخل في طاعة يبرس الذي سرعان ما تغير عليه وقتله سنة ٦٦١ هـ . راجع (أبو الفداء . المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٧ - ٢٢٠ ، ٢٢٣)

الحليفة إلى بلدة عانة على الحدود العراقية ، لماوشة التار مرة أخرى .
 أما أبو القاسم أحمد الذى اتفق له حظ الوصول إلى القاهرة ،
 فتلقاء السلطان بيبرس خارج العاصمة في يونيو سنة ١٢٦١ م (رجب سنة
 ٦٥٩ هـ) ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا ^(١) . وقاضى القضاة تاج
 الدين ابن بنت الأعز ^(٢) والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود
 بتورائهم والنصارى بانجيلهم ، وكان يوماً مشهوداً بالغ فيه السلطان باحترام
 الخليفة واكرامه وانزله بقلعة الجبل . وبعد عدة أيام (فى ١٣ رجب)
 عقد السلطان مجلساً عاماً بالديوان الكبير بالقلعة حضره القضاة والعلماء
 وجميع رجال الدولة وكبار التحار ووجوه الناس ، وحضر أيضاً شيخ
 الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، فمثلوا كلهم بحضرة الإمام العباسي
 ، وجلس السلطان متأدياً بين يديه . ثم استدعى جماعة من العربان
 والسفاددة الذين قدموا مع الأمير العباسي من بغداد ، فشهدوا أمام هذا

(١) بهاء الدين بن حنا بكسر الحاء ، يؤرخ عنه أنه استدعى العالم السكندري شرف الدين محمد
 الوصيري وسمع قصيدته المعروفة بأسم « الرداء النبوية في مدح خير البرية » ، وهو قائماً
 حامياً على الرأس

راجع (المكتبي : عوات ج ٢ ص ٢٠٥)

(٢) هو تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المعروف بابن بنت الأعز والصلامي
 نسبة إلى علامة وهي قبيلة من لخم ، أما الأعز فهو جده لأنه الصاحب الأعز فخر الدين
 وزير الملك الكامل الأيوبي . ولقد درس تاج الدين بالاسكندرية الحساب فمهر فيه وولاه
 السلطان شاهنا بيت المال . وفي عهد الملك الصالح أيوب تولى نظار الدواوين ثم قضاء
 مصر سنة ٦٥٤ هـ ثم ولى الوزارة سنة ٦٥٥ هـ ثم عزل السلطان قطز في نفس السنة
 وظل بعيداً عن مناصب الدولة حتى إعادة بيبرس إلى منصب قاضى القضاة بالديار المصرية
 سنة ٦٥٩ هـ وظل به حتى وفاته سنة ٦٦٥ هـ . راجع (المكتبي : طبقات الشافعية جـ
 ٥ ص ١٢٣ - ١٢٦ ، ابن حجر العسقلاني : رفع الاصر عن قضاة مصر ص ١٧٦ -
 ١٧٨) .

الجمع أن الأمير أبا القاسم أحمد ، ابن الخليفة الظاهر أمير المؤمنين ، كما شهد بالاستفاضة من حضر من القضاة . عند ذلك أعلن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قبوله لشهادات القوم وسجل على نفسه بثبوت النسبة الشريفة إلى العباس بن عبد المطلب ، وقام فبايع أبا القاسم بالخلافة ، ثم تبعه السلطان يبرس فبايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقوقها وصرفها في مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام^(١) وجميع من حضر المجلس من الأمراء والقضاة والفقهاء ورجال الدولة . ولقب الخليفة بالمستنصر بالله ، وهو لقب أخيه الخليفة المستنصر^(٢) (١٢٢٦ - ١٢٤٢ م) باني المدرسة المستنصرية ببغداد^(٣) . ولما تمت البيعة ، قلد الخليفة المستنصر السلطان يبرس البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . وبعد ذلك قام جميع من حضر فبايعوا الخليفة على اختلاف طبقاتهم . ثم كتب السلطان يبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب يسائر الممالك أن يأخذوا البيعة من قبلهم للخليفة المستنصر بالله ، وأن يدعى له على الماهر ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

وعلى الرغم من حرص السلطان يبرس على إثبات نسب الخليفة الجديد في مجلس عام يفهم من عبارات بعض المؤرخين أن شيئاً من

(١) ورد في بعض المصادر أن أول من بايع الخليفة المستنصر هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم تلاه السلطان في البيعة . (السيرى ، حسن الحاضر ص ٤٤ ، السبكى ، المرجع ج ٥ ص ٨٤) .

(٢) أبو شامة : الفيل على الروضتين ص ٢١٣ ، المقرئى : السلوك - ج ١ ص ٤٥١

الشك في نسبة الخليفة الجديد الى العباسيين قد ساور الكثيرين ^(١) ،
 فيروى أبو الفداء في تاريخه تحت عنوان « ذكر مبايعة شخص بالخلافة » ،
 وأنه في رجب سنة ٦٥٩ هـ « قدم الى مصر جماعة من العرب ومعهم
 شخص أسود اللون اسمه أحمد » ، وزعموا أنه ابن الأمام الظاهر بالله ،
 ابن الأمام الناصر ، فيكون عم المستعصم ... ^(٢) كذلك يسمى مفصل
 بن أبي الفضائل هذا الخليفة بأسم « المستنصر الأسود » ^(٣) ، بينما
 يروى أبو شامة وهو المؤرخ المعاصر المتوفى سنة ٦٦٥ هـ عبارة لا
 تخلو من الشك والسخرية وهي « وفي تاسع عشر رجب قرىء بدمشق
 بالمدرسة الحادلية كتاب ورد من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس
 يتضمن أنه قلم عليهم بمصر أبو القاسم أحمد بن الظاهر محمد ... أمير
 المناققين » ^(٤) . ويظهر أن هذا الشك تسرب الى العامة من الناس بالقاهرة
 وغيرها بدليل تلقيبهم للمستنصر بلقب الزرائني أو الزرايني وهو لقب
 غريب نسبته أبو الفداء الى لفظ زربون المستعمل في مصر للدلالة على
 الشخص الأسود .

وكيفما كان الأمر في سبب الخليفة الجديد ، فلا ريب أن بيبرس
 كان في حاجة ماسة الى تدعيم سلطانه بتلك المظاهرة الدينية التي قام بها

- (١) زيادة : بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر
 (٢) أبو الفداء : المستنصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٨ ، ويلاحظ أن أبا الفداء ولد سنة ٦٧٢
 هـ أي بعد مجيء المستنصر الى القاهرة بثلاث عشرة سنة فقط فيكون قد سمع أشباه
 هذا الشك من المعاصرين له والمتقدمين عليه في السن .
 (٣) ابن أبي الفضائل : النهج الجديد ، ص ٥ .
 (٤) راجع النسخة المخطئة من كتاب (أبو شامة : الفصل على الروضتين ، ورقة ٢٢٥ ، بمكتبة
 البلدية بالاسكندرية ، ودار الكتب المصرية بالقاهرة) ، إذ أن النسخة المطبوعة التي نشرها
 عزت الطاهر الحسيني ص ٢١٣ ، حرفت لفظ أمير المناققين إلى أمير اللانقين .

فى صورة احياء الخلافة العباسية متعاصياً عما يشاع عن الحليفة وسبه .
 وتدل جميع النصوص الواردة فى المراجع المعاصرة على أن السلطان يبرس
 كان على استعداد بأن يمد الخلافة بكل ما يستطيع من حند ومال ومعونة
 حرية فى سبيل اعادتها واقامتها فى بغداد . وشرع يبرس فعلا فى تجهيز
 الحليفة بكل المعدات واللوازم من جد وسلاح ومال وكراع لاسترداد
 بغداد من التتر وارجاع الخلافة اليها . ويقال أن مبلغ ما انفق فى هذا
 المشروع لا يقل عن ألف ألف دينار . ومما يدل على اهتمام يبرس بمسألة
 الخلافة واقامتها ، أنه خرج مع الخليفة الى دمشق . فوصلها فى ذى
 القعدة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفى عزمه أن يضيف الى ما تجمع لديه
 من جند مصر ، أعداداً أخرى من جند الشام حتى يصح عدد الجيش
 الخلفى عشرة آلاف فارس . غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان
 وهو بدمشق قائلاً له : أن الخليفة اذا استقر امره ببغداد ، بازعك وأخرجك
 من مصر ، فأوجس خيفة يبرس وغير موقعه من الحليفة ، واكتفى بأن
 جهزه بشماعة فارس كما ما اراد أن يلقى به الى التهلكة . وسار الخليفة
 بهذا العدد الضئيل من الجند الى العراق ، وفى الطريق انضم اليه
 اربعمائة فارس من عرب العراق من خفاجة وعبادة الذين لجأ اليهم فى
 أول أمره كما انضاف اليه ستون مملوكاً من ممالك الموصل ، وثلاثون
 فارساً من عسكر حماة وتقدم الخليفة المستنصر بهذا الجيش العير متجاس
 الى الحدود العراقية . وهناك فى موضع على نهر الفرات يسمى مشهد ^(١)
 على أو مقام على فى لواء الدليم حالياً ، التقى المستنصر بمنافسه فى
 الخلافة أبى العباس أحمد - الحاكم بأمر الله - فى سبعمائة فارس من

(١) مشهد على بلدة على نهر الفرات بجوار مدينة عنة فى لواء الدليم وهي خلاف مدينة =

التركمان ويدوانهما اتفاقاً على العمل معاً لإعادة الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول أبو شامة : « فاصاع الحاكم للمستنصر بسبب أنه الأصغر وذلك الأكبر (أي المستنصر) ووقع الاتفاق وزال الشقاق ولله الحمد » (١) . ثم ساراً معاً إلى بلدة عانة ثم إلى الحديثة (٢) يريدان بلدة هيت فلما وصل الخليفة إلى هيت أغلق أهلها أبوابها دونه ، فحاصرها حتى فتحها آخر ذي الحجة سنة ٦٥٩ هـ (أكتوبر ١٢٦١ م) ثم رحل عنها وعسكر بالقرب من الأنبار . وهناك التقت جيوش التتار بقيادة قرايغا وبهادر بجيوش الخليفة في ٢ محرم سنة ٦٦٠ هـ ، ودارت بين القوتين معركة غير متكافئة انتهت بأن أحاط التتار بمعسكر العباسيين وقتلوا معظمهم ، ولم يفلت منهم سوى الأمير أبو العباس أحمد وبضعة من الأمراء في نحو الخمسين فارس فقط . أما الخليفة أبو القاسم فلم يعرف له خبر ، فيقال أنه قتل في المعركة ، ويقال أنه نجا مجروحاً في طائفة من العرب ومات عندهم .

وكيفما كان الأمر ، هيأت هذه الحوادث الفرصة للأمير أبي العباس أحمد ، إذ أرسل إليه السلطان بيرس يستدعيه إلى القاهرة فوصلها في مارس سنة ١٢٦٢ م (١٧ ربيع الثاني سنة ٦٦٠ هـ) واحتفل بيرس ببلقائه وانزله في البرج الكبير بقلعة الجبل كما صنع بالمستنصر بالله .

= النجف التي بها مقام الإمام علي بن أبي طالب

(١) أبو شامة : الدمل على الروصتين ، ص ٢١٥ .

(٢) هناك عدة أماكن تحمل هذا الاسم كـ نهندك حديثة الموصل على نهر دجلة ، وحديثة الفرات على بعد عدة فراسخ من الأنبار ومعنى المراد بها هنا ثم هناك حديثة أخرى هي عوطة دمشق .

راجع (ياغوت : معجم البلدان) ج ٢ ص ٢١٢

على أن المراجع كلها تدل على أن نعمة تغييراً حل برأس بيبرس إزاء الخلافة العباسية خلاصته أن تقام الخلافة العباسية بمصر ، فستفيد الدولة المملوكية من وجودها بالقاهرة ، وتتجنب خطر إقامتها بعيداً في بغداد . وما يدل على هذا التغيير أن جماعة من البغاددة وهم مماليك الخليفة المستعصم الذين فروا من وجه التتار بزعامة مقدمهم الأمير سيف الدين سلاّر^(١) إلى الحجاز ، وصلوا إلى القاهرة بعد وصول أبي العباس أحمد بشهر واحد فقط ، وكان حضورهم إلى مصر بناء على طلب بيبرس والحاجه . كما حضر بعدهم بقليل عدة من شيوخ عشائر عبادة وخفاجة من عرب العراق^(٢) . وأخذ بيبرس من بعد ذلك يعمل على مبايعة أبي العباس بالخلافة ، فعقد له في ٨ محر سنة ٦٦١ هـ مجلساً عاماً بالايوان الكبير بقلعة الجبل كما أحدث للمستعصم من قبل . وجاء أبو العباس فقرأء نسيبه على الناس بعد ما ثبت عند قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ولقب بالحاكم بأمر الله ، وبايعه السلطان على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فلما تمت البيعة ، أفل الخليفة على السلطان وقلده

(١) أصل هذا المملوك من بلاد القيشاق ، واشترى الخليفة الظاهر العباسي ثم انتقل إلى خدمة المستعصم وترقى حتى أصبح والياً على واسط والكوفة والحلة . وبعد سقوط بغداد في يد هولاكو لجأ إلى الحجاز ثم جاء إلى مصر بناء على طلب بيبرس فدخلها وزملاءه البغاددة في نصف رجب سنة ٦٦٠ هـ فأكرمهم بيبرس وأعطى الأمير سلاّر إمرة حمسين في الشام ونصف مدينة نابلس ثم نقله إلى أمرة طبلخنة بمصر . راجع (المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٦٨) .

(٢) كان مقر هذه القبائل من هيت والاسار إلى الحلة والكوفة . ويلاحظ أن هذه البلاد حتى مقتل الخليفة المستعصم كانت بيد الأمير سيف الدين سلاّر الذي كتب إلى من تأخر من نخسند أشيته وإلى أصحابه من خفاجة وأخبرهم بما ناله من الاحسان على يد السلطان بيبرس فلهفوا به كما في المتن راجع (ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٠ ، المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧٦) .

أمور العباد والبلاد ولقبه « قسيم أمير المؤمنين » (١)، وأخذ الناس على اختلاف طبقاتهم مبايعة الخليفة الجديد ، وخطب له على منابر مصر والشام .

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، غير أن بيبرس لم يفكر في اعداد هذا الخليفة الثانى لاسترجاع بغداد وأقامة الخلافة العباسية بها ، بل عزم على أن يكون مقامه بالقاهرة حيث يكون على مقربة منه وتحت عينه . ولم يرد السلطان بذلك أن يخلق في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته ، بل قصد أن تكون الخلافة سنداً للدولة المملوكية في أرجاء العالم الاسلامى ، وأن يكون الخليفة شخصية نافعة لأغراض دولة المماليك وما يحتاجه من الحماية الروحية ، ويدل على ذلك كله أن السلطان لم يأمر فى تلك المرة أن يقرن اسم الخليفة بأسمه على السكة كما فعل سابقاً بالمستصر بالله وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة محترماً عليه ، ولم يشرك له غير الدعاء فى الخطبة فقط . وعلى هذا الأساس لم تكسب الخلافة العباسية فى احيائها الا كسباً زائفاً ، إذ صار الخلفاء منذ ذلك الوقت فى وضع مهان تقريباً : يعملون فى دوائرهم الضيقة ويحضرون حفلات السلطنة وولاية العهد ويترنون مجالس السلطان للوفود والسفراء . ولم تتدخل الخلافة فى

(١) يعتبر بيبرس أول من لقبته الخلافة بهذا اللقب ، إذ كان للولاة المسلمون قديماً يلقبون بالقبائل من هذا القبيلة فكانه مثل مولى أمير المؤمنين أبى عبيد ، أو عظام أمير المؤمنين . فإن زيد فى تخطيطه لقب ولى أمير المؤمنين لم صاحب أمير المؤمنين ثم عليل أمير المؤمنين وهو أعطى ما لقب به ملوك بنى أيوب . ولما لقب بيبرس « قسيم أمير المؤمنين » فهو أجل من تلك الألقاب .

راجع (السوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٦٦) .

شئون الدولة المملوكية الا قليلاً ، ولم يأمن لها سلاطين المماليك فى يوم من الأيام ، بل أبقوا الخلفاء سجناء تقريباً فى دور أقيمت لهم خصيصاً فى أبراج القلعة أو مناظر الكش .

أما الذين استفادوا من ذلك الاحياء سلاطين المماليك والقاهرة عاصمتهم ، اذ صار سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت الى الفتح العثماني سنة ١٥١٧م يفرضون لأنفسهم مقاماً سامياً على ملوك العالم الإسلامى وينكرون عليهم حق التلقب بلقب سلطان ، لأنهم وحدهم أصحاب هذا الحق شرعاً باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيمتها^(١) وهى ذلك يقول ابن شاهين الظاهري . . . ولا يطلق لفظ سلطان الا لصاحب مصر نصره الله ، فإنه الآن أعلا الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الأولين والآخرين ، وتشرفه من أمير المؤمنين يتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة^(٢) .

(١) ابن شاهين رتبة كشف الممالك ص ٨٩ ويلاحظ أن لفظ سلطان ظهر لأول الأمر فى أواسط آسيا واستخدمه العربيون والملاحقة وغيرهم من الأتراك كمرر للسلطة الرسمية ثم انتقل بعد ذلك الى مصر أيام الأيوبيين ومن المناسب أن صلاح الدين رعم نصارته الباهرة لم يحصل لقب سلطان حسب الوثائق التى لدينا وإن كان يبدو أن هذا اللقب قد أطلق عليه شعوباً على كسبة العامة ، فسمى سلطان الاسلام والمسلمين وبعد وفاة صلاح الدين شاع استعمال هذا اللقب بين حلفائه حتى عم أمراء الأسرة الأيوبية أيضاً الى أن جاء سلاطين المماليك ففصروا هذا اللقب على أنفسهم وجعلوا من (وتهم ملوكاً وأمرأ . راجع : Wiet : Histoire de la nation Egyptienne tome IV p. 335

(٢) بقصد ابن شاهين بالأئمة الأربعة ، قصه للمذهب السنية الأربعة ، إذ كان القضاء بمصر فى العصر الفاطمى قائماً على المذهب الاسماعيلى الى أن جاء الورع أبو على أحمد بن الأفضل فى أواخر العصر الفاطمى فرتب فى الحكم أربعة قصا يحكم كل واحد بمذهبه : قاضى للشافعية وقاضى للملكية وقاضى للاسماعيلية وقاضى للامامية وهو بهذه المحاولة أراد الحد من نفوذ المذهب الاسماعيلى . وفى العصر الأيوبي صار القضاء للشافعية فقط واستمر كذلك الى أن جاءه

أما القاهرة ، فقد تمتعت نتيجة لذلك الاحياء بشهرة دينية وعلمية واسعة ، اذ صارت مركز الخلافة العباسية ، وفي ذلك يقول حلال الدين السيوطي ح ٢ ص ٦٦ : الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة ايما كانت ، فحين صارت مصر دار خلافة ، عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء . وبالإضافة الى شهرة القاهرة الدينية والعلمية ، فهناك شهرتها التجارية التي جعلت هولاء يسميها « كروان سراي » في إحدى رسائله ، أي محط الرجال والمتاجر والمال ، اذ أصبحت بفصل قيام الخلافة بها مركزاً لنشاط تجارى واسع فضلاً عن نشاطها القديم .

على أن الحليفة العباسي الثاني أبا العباس أحمد ، لم يسلم كذلك من شك بعض المؤرخين في نسبته ، كشكهم السابق في نسب الحليفة المستنصر ، فيوجد في تاريخ أبي الفداء تحت سنة ٦٦١ هـ عبارة شأن الحليفة الحاكم لم تخل من الغمز واللمز ونسبها . وفي أواخر

« السلطان الظاهر بيبرس ما دخل تمديلاً جوهرياً على النظام القضائي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥) إذ أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشئون القضائية لما في ذلك من إجحاف بغير المذاهب . لذلك جعل القضاة في يد أربعة قضاة يمثلون المذاهب السيرة الأربعة ، وأجاز لهم أن يولوا نواباً عنهم بأحياء البلاد ، على أن يحتفظ قاضي نقابة الشافعية بالإشراف على أحوال الشافعي والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال . وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أربع درجة من زملائه ثم يليه الحنفى فالملكي فالخيلي . وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون صار المالكي يلي الشافعي وتأخر الحنفى عن المالكي في الرتبة . راجع (السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٢٣ - ١٣٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢١ ، ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك ص ٩٢ ، المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية ص ١٥٢ ، محمد الماوي : الورداء والورداء في العصر الفاطمي ص ١٦٩ ، المقرئى الخط ص ٢٠٦ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٥) .

ذى الحجة من هذه السنة ، جلس السلطان الملك الظاهر مجلسا عاما وأحضر شخصا كان قد قدم إلى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمئة من نسل بنى العباس يسمى أحمد بعد أن أثبت نسبه وبأبيه بالخلافه ، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين .

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تنته بمبايعة الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣م) إذ لم تمضى ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى قدم شخصان على السلطان يبهرس وهو بدمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م) ادعى أحدهما أنه مبارك بن الحليفة المستعصم ، يريد بذلك أنه أحق بالخلافة من الحاكم بأمر الله . وذكر الثانى - وكان أسود اللون - أنه من أولاد الخلفاء . وقد نصح للسلطان كذب الاثنين ، فسيرهما إلى مصر ، تحت الاحتياط . ولم يقع الأمر عند هذا الحد ، بل وقد على السلطان فى نفس السنة أيضا (٦٦٤ هـ) على بن الحليفة المستعصم وكان أسيرا عند التار . ولم يعلق المؤرخون على هذه الحوادث بشىء ، مما يرجح أن الشكوك التى انتشرت وقتذاك حول نسب الحليفتين ، ادخلت فى روع بعض الناس أنهم يستطيعون القيام بدور المستعصم والحاكم ، أولعل السلطان يبهرس أراد من وراء أولئك الاشخاص أن يهيمن على الحليفة الحاكم بتهديده بحلعه ومبايعة خليفة آخر كلما حلته نفسه بالتدخل فى شئو الدولة أو لعله أراد أن يجمع أبناء البيت العباس بمصر - إن كانوا من أبناء البيت العباسى حقا - ليتجنب خطر التجاء بعضهم إلى أحد ملوك المسلمين فيقيمه خليفة ، مثلما فعل أقوش البرلى فى حلب مع الخليفة الحاكم من قبل .

على أن موضع الأهمية هو أن يبرس نجح في إقامة الخلافة
العباسية بالقاهرة ، وأضاف بذلك إلى مجموعة العوامل المساعدة في تأسيس
الدولة المملوكية . يوضح ذلك أن دولا وشخصيات أخرى إسلامية
حاولت أن تترث الخلافة العباسية بعد زوالها من بغداد سنة ١٢٥٨ م ،
ونعنى بذلك الخلافة الحفصية بتونس .

والحفصيون فرع من الموحدين ، ويتسوب إلى الشيخ أبي حفص
يحيى بن عمر الهنتائي شيخ قبيلة هنتاة إحدى بطون مسمودة التي قامت
على أكتافها دولة الموحدين ، وكان هذا الشيخ الحفصي من كبار
القائمين بدعوه المهدي بن تومرت ، ومن كبار المشيدين لسلطان
الموحدين في المغرب والأندلس ، وقد ازدادت هذه الصلة ارتباطا حينما
تزوج ولده عبد الواحد أخت الخليفة المنصور الموحدي ، وصار حاكما
على البلاد التونسية سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦ م) ولما هزم الموحدون
بالأندلس أمام الحيوث الصليبية المتحالفة في موقعة العقاب Las Navas de
Tolosa سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وانهار نفوذهم في المغرب والأندلس
بعد هذه الكارثة ، أعلن الأمير أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصي
استقلاله بحكم إفريقية عن خلافة بني عبد المؤمن في مراكش سنة
٦٣٦ هـ (١٢٢٩ م) ولكنه مع ذلك اقتصر على لقب الأمير لدرجة أنه
زجر الشاعر الذي مدحه بأمر المؤمنين^(١) على أن هذه الأمانة الحفصية لم
تلبث أن تحولت إلى خلافة في عهد ولده أبي عبد الله محمد الذي تسمى

(١) راجع (ابن أبي دؤاد : المؤسس في أخبار إفريقية وتونس ص ١١٨ ، محمد الهاجي
المصودي : الخلافة النقية في أمراء إفريقية ، ص (٦١) .

بالمستنصر بالله أمير المؤمنين (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ = ١٢٤٩ - ١٢٧٧ م) ولقد استند الحفصيون في إعلان خلافتهم الجديدة إلى الأسس الشرعية اللازمة في هذا الصدد ، كالأصل العربي والنسب النبوي إلى جانب قرابتهم للموحدين ، فزعموا أنهم من سلالة الخليفة أبي حفص عمر بن الخطاب ، وعمر كما هو معروف من أشرف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وقد تزوج النبي ابنه حفصة . فالحفصيون يحكم هذا الأصل القرشي ، وهذا النسب النبوي ، ويحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة للموحدين المسهارة . وقد حرصوا على الاعتزاز بهذا الأصل ، وازدهار في كل مناسبة ، ونجد ذلك واضحاً في أقوال كتابهم وشعرهم التي أطلقت على توليتهم اسم الحفصية والفاروقية أو كقول ابن حلدون في قصيدة مدحهم بها تحت كبريت سيف

توم أبو حفص أب لهم وما أدراك والفاروق جد أول

ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تفض سواها قليلة على قيامها حتى سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي الممولى وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وعقب ذلك أرسل الأمير إدريس شريف مكة ، وأهل

(١) هناك خلاف حول تاريخ إعلان الخلافة الحفصية السنية بتونس : فالزركشي (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣٦) يجعله في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٣ م) بينما يجعله محمد العربي القيرواني المعروف بابن أبي دينار (المؤنس في أخبار تونس ص ١٢٠) في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٤٩) عقب سقوط خلافة بغداد في أيدي الممولى ، ويبدو أن رأي الزركشي هو الأصح نظراً لانتعاش نفوذ الدولة الحفصية ومبايعة أهل المغرب والأندلس لسلطانها قبل سقوط الخلافة العباسية

الحجاز يبعثهم بالخلافة للحليفة الحفصي المستنصر بالله ، واعتبروه وريثا للخلافة العباسية المنهارة .

ولاشك أن هذه المبايعة قد دعمت أركان الخلافة الحفصية لأنها أكسبتها أساسا شرعيا وهو الاشراف على الحجاز ، « أحمل العرب والملة ، ومقر الحرمين الشريفين » وفي ذلك يقول المستشرق السويسرى ماكس فان برشم : « أن الحفصيين قد ورثوا خلافة الموحدين فى الوقت الذى اكتسبوا فيه من سقوط بعلبك شيئا من هبة الخلافة العباسية » .

ولقد شغرت مصر بحظيرة أهلاف الخلافة الجديدة التى تقع على حدودها الغربية لأن السياسة المصرية كانت تهدف دائما إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية وسياسية واقتصادية أهمها السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين استقلوا بمصر كالتولونيين والأخشيديين والفاطميين ، قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ، ثم سار الأيوبيون على نفس هذه السياسة الحجازية حتى لقوا أنفسهم بلقب « خدام الحرمين » وفى هذا المقاب للمالك والعمانيين من بعدهم ^(١) .

وسار السلطان بيبرس فى هذا السبيل أيضا وأظهر فيه نشاطا كبيرا ، إذ رأى أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع سياسة مصر التقليدية نحو الحجاز ، ولهذا عمد إلى أحياء الخلافة العباسية فى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١م) وكان هدفه من ذلك انتزاع الحرمين من نفوذ الحفصيين ، ومد سلطانه باسم الخلافة العباسية على الحجاز والبحر الأحمر ^(٢) . على أن الشئ الذى يدعو إلى الالتفات فى هذا الصدد هو أن

(١) و(٢) راجع Wiet: *Precis de l'Histoire d'Egypte* tome I I P. 250.

اللقب الذى اتخذه الخليفة العباسى الأول فى القاهرة وهو المستنصر بالله ، هو نفس اللقب الذى اتخذه الخليفة الحفصى بتونس ، وما أطن أن تطابق اللقبين كان مجرد مصادفة أو توارد حواطر بقدر ما كان نوعا من التحدى والمنافسة . وقد يؤيد ذلك أن بعض الأمراء الطامحين أستعلوا هذا التنافس بين خلافة القاهرة وخلافة تونس لتحقيق مآربهم الشخصية ، فيروى ابن خلدون مثلا أنه فى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) ثار وإلى طنجة المدعو ابن الأمير ، وخطب للخليفة الحفصى صاحب إفريقية ، ثم خطب للخليفة العباسى فى القاهرة ، ثم خطب لنفسه وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧م) ^(١)

وكيفما كان الأمر ، فالهم هنا أن السلطان يبهرس أحد فى تنفيذ سياسته الحجازية عمليا ، فقام أولا بعدة إصلاحات بالحرم السوى الشريف وأرسل الكسوة إلى الكعبة . كما أرسل الصدقات والزيت والشموع والطيب . . الخ . وأخيرا أدى ببهرس فريضة الصبح سنة ٦٦٧ هـ - ١٢٦٩م ، فأظهر حشوعا وكرما لا يتهى ، ولكنه لم يسر مصالحه السياسية إذ أزال أنصار الحفصيين وجعل الخطبة فى الحجاز للخليفة العباسى ثم لسلطان مصر من بعده ، كما أقام الأمير شمس الدين مروان مدبونا له إلى حاسب شريف مكة . وجعله القول قوى نفوذ سلطان مصر فى الأراضى الحجازية ، وصار يرمز لذلك النفوذ بالخطبة والسكة وإرسال الكسوة إلى الكعبة فى كل عام . وكان كل ذلك من عمل ببهرس ، وهو فى مجموعة من عناصر تدعيم الدولة المملوكية داخليا وخارجيا ^(٢).

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٢ ص ١٩٦ السلاوى الاستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى ج ١ من ١٧ .

هذا ، ولم يكتف بيسر بالناية بالحرمين الشريفين ، بل أمر سنة ١٢٦١م بإرسال الصناع والآلات لعمارة قمة الصخرة بالقدس ووجد مسجد إبراهيم الخليل عليه السلام^(١) ، وأخرج ما كان في اقطاعات الأمراء من أوقافه ، كما أمر سنة ١٢٦١م ببناء مشهد على عين جالوت عرف بمشهد النصر^(٢) ، تحليدا لذكرى ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون هناك .

ولم يقتصر بيسر على ذلك بل أخذ في بناء المساجد وتأسيس المدارس ، ففي ربيع الآخر سنة ٦٦٠ (١٢٦١م) بدأ في بناء مدرسته المشهورة على انقاض إحدى قاعات القصر الكبير الفاطمي ، وتم بناء هذه المدرسة سنة ٦٦٢ هـ .^(٣) وبالرغم من تدهم تلك المدرسة في عهد المقرئ نفسه (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٣م) ، فإن الجزء الأكبر منها ظل باقيا حتى سنة ١٨٧٤م عندما احترقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضي إلى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون . وبهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٨٨٢م ولم يبق منها اليوم إلا كتله

(١) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٧٩

(٢) قبر إبراهيم الخليل ومسجده في بلدة الخليل بملطية واسمها الأصلي حبرون وهي قرب بيت المقدس راجع (ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٤٣٨) .

(٣) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٤٤٦ ، المينى . عقد الجمان ، الجزء الخاص بحوادث سنة ٦٥٦ - ٦٧٣ هـ ورقة ٤٥٨

(٤) المقرئ: المخطط ج ٢ ص ٣٧٨ ، على مبارك: المخطط التوفيقية ج ١ ص ٢٩ ، ج ٦ ص ٩ .

إلا كتلة مساحتها ١١/٥ مترا .^(١)

وتقرب بيبرس إلى العلماء ورجال الدين ، ويؤثر عنه أنه زار
الأسكندرية أربع مرات ، وأنه كان يترك بها في كل زيارة أثرا يابل على
اهتمامه بها مثل تحصين أسوارها ، وتقوية أسطولها ، وتطهير خليجها من
الرمال الذي طمرته ، وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ
القبارى^(٢) ، والشيخ الشاطبي^(٣) وتلك الوسائل وغيرها تزعم بيبرس العالم
الإسلامي شرعا وعرفا ، وقدم ملوك المسلمين إلى القاهرة ودمشق للقيام
بخدمته وتقديم فروض الطاعة والتبعية لشخصه ، مما ضمن قيام دولة
المسلمين على أسس ثابتة .

(١) المرجع : Creswell I : The Madrasa of Baibars, op. cit, p. 131

(٢) هو الشيخ أبو القاسم محمد بن منصور المالكي الأسكندري المعروف بالقبارى نسبة إلى
منطقة القبار أي حفر القبور ومنه لقري ، وتطلق كلمة القبار أيضا على ما بعد صاعد
السكك (السلوك ج ١ ص ١١٩) أخذ القارى عن الشيخ الحسن الشاذلي مؤسس
الطائفة الشاذلية ، وأقام بمنزلة صغرة برعها وحمل فيها يده وفتات سحها . وكان يكلم
الناس من طائفة منزلة . وقال أن السلطان بيبرس عندما زاره لم يتحكن من المألوف إليه
ولم يكلمه ولا يدعو في البستان والشيخ بي عليه وقد نصحه بتحصين أسوار الإسكندرية
وتوفي القباري بظاهر الإسكندرية سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ولا يزال يطلق اسمه على
الحي الذي كان يمش فيه هناك ، ارجع (أبو شامة : دليل على الروضتين ص ٢٢١ ،
القرطبي : السلوك ج ١ ص ٥٢٢ بالندوي أبو القاسم القارى ونسبته ، ص ٢٠)

(٣) هو الشيخ الزاهد أبو عبد الله محمد بن سليمان الطاعري الشاطبي الإسكندري ، وأصل
عنا الشيخ من مدينة شاطبة Jaliba في شرق الإنطس ثم هاجر إلى الإسكندرية وعاش
لها أيام السلطان الظاهر بيبرس ، وقد اشتهر بالمعابد والتقوى ومات ودفن بها سنة ٦٧٢
هـ (١٢٧٣ م) وقبره برلز بالقرب من مبنى اطاره جامعة الإسكندرية في الحي المعروف
باسمه . وهو غير الشيخ أبي القاسم الرعبي الشاطبي الذي عاش في القاهرة في عهد
صلاح الدين الأيوبي ، وعين مستادا في المدرسة الفاضلية وألف كتبها كثيرة في تفسير
القرآن وقراءته السبع ، ونص بالذكر فصيده الشهيرة بالشاطبية في القراءات وهي في
١٧٣ بيتا . وتوفي بالقاهر ودفن بقرايتها سنة ٥٩٠ هـ راجع (ابن خلدون =

٣ - التخلص من العناصر الأيوبية المأوأة .

لم يبق بعد ذلك من المشاكل التي واجهت بيرس وهددت دولة المماليك سوى بقايا الأيوبيين على الرغم من إعلان المصور صاحب حماة ، والأشرف موسى صاحب حمص ولاءهما لبيرس . ذلك أن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب حصن الكرك^(١) ، لم يقلع يوما عن مأوأة سلاطين المماليك مد عهد أليك التركمانى ، اعتقادا منه أنه أحق منهم فى ملك مصر والشام . فلما جاء بيرس إلى السلطنة عزم على القضاء على المغيث عمر وأزالته^(٢) وأعد حملة كافية لتحقيق ذلك المشروع لولا أن المغيث بعث برمالة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله بالقاهرة يسأله الشفاعة ، فكتب الخليفة إلى بيرس يدفع فيه فقل الشفاعة ، وأبقى على المغيث والكرك معا^(٣) غير أنه يبدو أن المغيث ظل على نيته القديمة نحو المماليك وسلطتهم ، فكتب إلى هولاكو سرا يحصه على فتح الشام ، ويطلب إليه أن يقيم عليها ملكا تابعا^(٤) ولكن بيرس علم بأمر هذه المكاتبات المتبادلة بين هولاكو والمغيث عمر ، ويقال إن هذه

= وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٢٤ ، المقري : مع الطوب جـ ١ ص ٢٢٩ ، السندوبى ، أبو العباس المرسى ، ص ١٢٨ ،

(١) يروى ياقوت (معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٦١ - ٢٦٢) أن هناك ثلاثة أمكنة تسمى بالكرك الأولى قرية فى جنوب لبنان ، والثانية قلعة حصينة فى البلقاء وسط الجبال بين بحر القلزم (الأحمر) وبيت المقدس وهى المقصودة هنا ، والثالثة قرية بالقرب من بعلبك .

(٢) يروى أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٦٦) هنا المعناه إلى اعتلاء وقع من المغيث على امرأة الظاهر بيرس بالكرك

(٣) ابن واصل : معراج الكروب جـ ٢ ص ١٠٠

(٤) أنظر (Blachet : Op . cit . P . 382)

المكاثبات لم تحدث وأن بيبرس احتلق القصة كلها لغرض في نفسه وهو التخلّص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الأيوبي المتنازعين لسلطانه^(١). ومهما يكن من شيء فقد عمد بيبرس إلى السيلة والمداورة فأرسل إلى عمر رسالة أكد له فيها الإيمان والموثوق ، وأنه يرعى ذمت ولا يمس بأذى^(٢).

وطلب إليه الحضور إلى معسكره بفلسطين . وعلى الرغم من تشكك المغيث من موثوق بيبرس ، فإنه اضطّر إلى الذهاب إلى حضرة بيبرس في معسكره عند ييسان حتى لا يبدو جاحدا لحسن المعاملة ، ناكرا لجميل الخليفة والسلطان ، وفي جمادى الأولى سنة ٦٦١ هـ (مارس سنة ١٢٦٣ م) وصل المغيث عمر إلى الدهليز السلطاني عند ييسان ، فقابلته بيبرس وأكرم وفادته ، وساق إلى جانبه حتى قارب الدهليز ، وهناك قبض عليه واعتقله . ثم جمع بيبرس حطبا حضره كبار الأمراء الشاميين وقاضى قضية دمشق المؤرخ شمس الدين بن خلكان ، وأوقفهم على الكتب المتبادلة بينه وبين هؤلاء ، كما أحصر القصد الذين حملوا تلك الكتب ، ثم أخرج بيبرس فتارى الفقهاء بوحوب قتل المغيث عمر^(٣) ، وأرسله مصفدا في الحديد إلى القاهرة حيث قتل في أبريل سنة

(١) يقول ابن واسل في هذا الصدد (مرجع الكروب ج ٢ ص ٤١٤) : ومبها (أى سنة ٦٦١ هـ) استقبل الظاهر بيبرس الملك المغيث استقبالا رافعا لم يقض عليه ، وأخرج فتوى بيبرس مبها عمله بأن الملك المغيث كان على اتصال بهلاوون الذى وعده بعودة حنة منها : « قد أقطمتك من بصرى إلى غزة » ثم بعته بامعان بالجوش والفرسان لكى يفتح بها مصر ، وبهذه الكتب يرر الملك الظاهر قبضه على المغيث .

(٢) يقال إن بيبرس حلف للمغيث أربى بمبها من جملة الطلاق من أم الملك السعيد ويقال أنها بعد ذلك استلحت بملوك . ولم ير ذلك الملوك بعدها ، راجع (مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٠) .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٥٠ ، المقريزى : الملوك ج ١ ص ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ .

١٢٦٣ م^(١) واستولى بيسرس على الكرك في نفس السنة ، وعين بها واليا من قبله . وبذا خلا الجو لدولة المماليك من آخر مناوئ لها من ناحية الأيوبيين .

٤ - محالفات بيسرس مع الدول الأوربية :

لم يكن من المنتظر أن يقف بيسرس عند هذا الحد من التمكن للدولة المملوكية في الداخل والخارج ، وهو يعلم أن المغول سوف يتحركون لمسح عار عين جالوت ، وأن الصليبيين سوف يعملون كذلك على إثارة ملوك أوروبا إلى مثل ما قام به لويس التاسع ملك فرنسا أواخر أيام الأيوبيين ، وأن في هذين الخطرين أحدهما أو كلاهما ما يعرض الدولة المملوكية للروال . ولهذا عمد إلى عقد المحالفات مع الدول الأوربية وغيرها استعدادا لذلك الخطر المزدوج .

فحالف ميخائيل الثامن باليولوج Michael VIII Palaeologue أمبراطور الدولة البيزنطية سنة ١٢٦٢ م (٦٦٠ هـ) ، وأرسل إليه - بناء على طلبه - بطريقا من الملكانية ليشرّف على الملكانيين^(٢) في دولته ، وكان صحة هذا البطريق - واسمه الرشيد الكحال - الأمير فارس الدين أقرش المسعودي ، وعدة من الأساقفة ، فلما وصلوا القسطنطينية ، احتفى بهم

(١) يروي أبو الفداء (المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٢٦) أن المغيث حمل إلى امرأة الظاهرة بيسرس التي قيل أنه اعتدى عليها بالكرك ، بقلمه الجليل ، فأمرت حواربها فقتله بالقباقيب .

(٢) ملكانيون جمع ملكاني Malkaniy وهي كلمة سريانية ، وتقالها في العربية ملكيون وملكى Melkites وبال يونانية Basilikai أى ملكى وقد أطلق اسم ملكانية على المسيحيين العرب الذين انضموا إلى الكيسة البيزنطية متبعين مذهب الأمبراطور الرسمى
راجع Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization p.361

الأمبراطور وأكرمهم ، واطلع الأمير أقوش على المسجد الذي حدد ببناءه ^(١) في عاصمته كي يصلّى فيه المسلمون من التجار والصناع وغيرهم المقيمين أو المارين ببلاده ، ولما علم بيبرس ما قام به الأمبراطور البيزنطي من التجديدات في بناء هذا المسجد ، أمر بتأثيثه وتجهيزه بالحصر والسجاجيد والقناديل المذهبة والمباخر والمسك والعنبر والعود وماء الورد . . . الخ ^(٢) .

- كذلك حالف السلطان بيبرس امبراطور الدولة العربية وملك صقلية ونابولي منفرد بن فرديريك الثاني هو هشتاوفن ، وارسل له في أوائل حكمه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١م) هدية من جمعتها عدد من الزراف وجماعة من أسرى عين حالات من التار يخيلهم للتسرية وعدتهم ، فأعجب الأمبراطور بالهدية ، وأحسن إلى الرسل وأكرمهم ، وكان على رأس السفارة المصرية المؤرخ الحموي الكبير جمال الدين بن واصل الذي أمدنا ببعض أخبار تلك السفارة في كتابه : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، حيث يقول : « توجهت رسولا إلى معريد من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس - رحمه الله - في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمائة ، فأقمت عنده مكرما بمعية من مدائن ابنولية ^(٣) يقال لها برلت Barletta ، واجتمعت به فوجدته متحميرا محبا للعلوم

(١) هي مسحة بن عبد الملك هذا المسجد في سنة ٧١٤م (٩٦٦هـ) في خلافة الوليد بن عبد الملك على أثر صلح بين البيزنطيين والعرب على بناء مسجد بالقسطنطينية وقد هداه الصليبيون أثناء غارتهم على القسطنطينية . ويقال أن صلاح الدين حاول تجديد بنائه فلم يجهه البيزنطيون إلى ذلك (ابن واصل - مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٢ ، المعنى . عقد الجمان ورقة ٤٨١) .

(٢) ابن واصل - مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٠٣ ، المقري : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

(٣) يريد بذلك مقاطعة أبوليا في جنوب إيطاليا .

العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس في الهندسة . وبالقرب من البلد التي كنت نازلا بها مدينة تسمى لوجارة Lucera أهلهم كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية ^(١)، وتقام الجمعة فيها ، ويعلى شعائر الإسلام ، وهي على هذه الصفة من عهد ابيه الإمبراطور ^(٢)، وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليستعمل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية وأكثر اصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون ، ويعلم في معسكره بالأدان، والصلاة ويضيف الصفيدي في ترجمة لابن واصل أن منفرد قال لجمال الذين في مجلسه : يا قاضي أنا ما عدى ما أمالك عنه في العقدة والعربية ثم سأله ثلاثين سؤالاً في علم الماظر (الصريات) ، فأتت الليلة تلك وصبحه بالجواب عنها ، فصلب الاسرور على وجهه وقال : « هكذا يكون قيس المسلمين » ، لأن القاصي لم يكن معه كتب في تلك السفرة وإنما أحابه عن ظهر قلب . « كذلك ألف ابن واصل أثناء أقامته في ايطاليا رسالة في المنطق سماعاً » الرسالة الاسرورية « وأهداها إلى منفرد .

وتروى المصادر الاسبانية المعاصرة أن ملك قشتالة القونسو العاشر المعروف بالعالم ^(٣) El Sabio أرسل إلى السلطان ييسرس البيند قدارى -

(١) يروى المؤرخون أن الإمبراطور فردريك الثاني نقل معظم عرب جزيرة صقلية إلى مدينة لوجارة في أبوليا حوى ايطاليا سنة ١٢٤٩م كان ذلك على أثر مصادمات عبيدة وقعت بين العرب والمسيحيين في صقلية ، فغلهم الإمبراطور معه إلى مدينة لوجارة حيث كان يقضى أغلب أوقاته متخذاً أياهم حرساً أسياً له . راجع (ماريو ماريو مورينو المسلمون في صقلية ص ٢٥) .

(٢) يقصد الإمبراطور فردريك الثاني الذى كان اتصاله بملوك وعلماء المسلمين ، وفضله في نشر الثقافة العربية في أوروبا حديث الكتاب والمؤرخين في كل عصر .

(٣) سمي بالعالم أو الحكيم لأنه أشرف على كتابة الحولية التاريخية الكبرى في تاريخ اسبانيا

وتسميه Alvandexaveri - هدية من الخيول العربية الأصيلة ، وذلك في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وقد رد عليه بيرس بهدية مماثلة من بينها زرافة ، ومن قبل ، وتمساح محنط لا يزال إلى اليوم معلقا في مدخل الباب الشرقي لكندراكية أشبيلية Puerta del lagarto وتضيف الرواية أن السلطان بيرس طلب الزواج من ابنة الملك الأسباني الفونسو العاشر ولكن طلبه لم يتحقق .

ولم تقتصر مغازي بيرس على ملوك أوروبا فحسب ، بل حالف أيضا خان القبيلة الذهبية Golden Horde ^(١) أو مغول القشاق ، واسمه بركة خان ، وهو أول من اعتنق الإسلام من أولاد جنكيزخان ، وكانت بلاده تمتد من تركستان شرقا إلى شمال البحر الأسود غربا ، وتعرف ببلاد القشاق أو القفحاق ، وعاصمتها مدينة صراي في شمال غرب بحر قزوين .

فالسُلطان بيرس تحالف مع عاهل هذه الدولة الإسلامية المغولية بركة خان وتبادل معه البعث والهدايا (١٢٦١ - ١٢٦٣ م) كما تزوج ابنته ، وأمر بالدعاء له على ماير القاهرة والقدس ومكة والمدينة (٢) ولاشك أن هذا الحلف كان موجها بطبيعة الحال ضد عدوهما المشترك

= Primera Cronica General de Espana واستمد على تأليفها بعدد من العلماء المسلمين واليهود والمستعربين المسيحيين ، واعتمد هؤلاء على عدد كبير من المصادر العربية والبرنطة واللاتينية وعلى جميع الحوليات الأسبانية السابقة . كذلك نشطت حركة الترجمة في ظليلة في عهد هذا الملك الذي اشتهر بحبه للعلم والطماء .

(١) يقال إن هذه التسمية ترجع إلى لون مخيماتهم

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٩ ، مغفل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد التاريخ ابن العميد ، ص ٤٥٤ - ٤٦٢

الممثل هي دولة ايلخانات فارس التي يحكمها هولاكو واولاده ، وكانت تشمل فارس والعراق وعاصمتها تبريز أو مراغه ^(١) ، فيروى المقرئى أن بيبرس أخذ يحرض بركة خاند على قتال هولاكو وبرعبه في ذلك . ^(٢)

ولم يكتف بيبرس بذلك ، بل حالف في سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢م) سلطان السلاجقة الروم عز الدين كيكاوس بن كيحسرو ، ووعدته بالمساعدة ضد أخيه ركن الدين قلع أرسلان وصد هولاكو وأطماعه في آسيا الصغرى . وأرسل بيبرس جنوده ، إلى دمشق وحلب استعدادا لتأييد السلطان عز الدين ضد أخيه ركن الدين وضد المغول . ^(٣)

ومن الواضح أن المعاهدات التي أبرمت والسفارات التي تبودلت بين سلطان مصر المملوكي وبين ملوك الدول المحيطة به شرقا وغربا ، جعلت دولة المماليك في شيء من الأمن مما يهدد كيائها من ناحية المغول والصليبيين ، وأن كان من المعروف أن حلول عهد بيبرس من حملته صليبية على مصر إنما يرجع لانصراف الدول الأوربية إلى شتونها ومشاكلها في الغرب ، كما أن قلة الغارات المغولية في عهده ، إنما يرجع إلى ما طرأ على المغول من حالة سكون مؤقت بعد عاصفة جنكيز خان وهولاكو في البلاد الشرقية على الأقل .

٥ - تحصين الأطراف والثغور والعناية بالبريد :

لم يعزز الدولة المملوكية بعد ذلك دعامة من دعائم القوة والبقاء

(١) راجع : Barthold : Histoire de turcs D'asie Centrale p.138

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٦٥

(٣) راجع تفاصيل النزاع بين هذين الأخوين وتدخل هولاكو في آسيا الصغرى (ابن

أبى الفضائل : السهج السعيد ص ٤٥٥ وكذلك مقدمة ناشر الكتاب بلونى

Blocbet

سوى تأمين حدودها ضد الغزو الخارجي ، وتنظيم حيوشها وتقوية اسطولها لما يتطلبه مركز الزعامة في العالم الإسلامي من هجوم أودفاع ، ولذا كان ما قام به يببرس في هذا المضمار من أهم ما تحتاجه الدولة للقيام على أساس متين ، وأول ذلك أن السلطان جند العشاير العربية سنة ١٢٦١ م ، (٦٥٩ هـ) وهي العشاير المقيمة على الحدود الفراتية مثل عرب خفاجة وحشهم على قتال هولاء العربان قاموا بمهمتهم خير قيام حتى وصلت اغاراتهم أبواب مدينة بغداد .

ولم يكتف يببرس بذلك ، بل أمر نوابه بحلب ١٢٦٢ م ٦٦٠ هـ) باحراق المروح والأعشاب التي حرت عادة هولاء أن يعسكروا على مقربة منها أثناء هجومه على الشام ، فجهزت القداحات والصوفات وآلات النار سرا ، واحترقت تلك المروح جميعها ، وهي مسيرة عشرة أيام من آمد إلى خلاط ، وبذا قطع يببرس على هولاء وجنوده السبل والطرق المؤدية إلى الشام (٢) وقد شرح لنا من العمرى والقلقشندي طريقة هذا الاحراق بقوله : « كان من عادة التتر أنهم لا يكلفون علوفة لخيولهم بل يكلونها إلى ماتبت الأرض ، فإذا كانت تلك الأرض محصية سلكوها ، وإذا كانت مجدية تحبوها ، وكانت أرض هذه البلاد محصية تقوم بكفاية خيل القوم إذا قصدوا بلادنا ، فإذا أحرقوا زرعها ونباتها ضعفوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك الدفع عن مباغته الأطراف ومهاجمة الثغور ، وكان طريقهم في احراقها أن يجهزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ ، ٤٨٠ ، ٥٠١ - ٥٠٣ - ٥١٢ .

(٢) ابن واصل : معراج الكروب ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

وكلاب الصيد فيمكنون عداء النصح في كهوف الجبال وبطون الأودية ويرتقبون يوما تكون ريحه عاصفة وهواؤه زعزع ، تعلق النار موثقة في أذنان تلك الثعالب والكلاب ، ثم تطلق الثعالب ، والكلاب في أثرها وقد جوعت ، لتجد الثعالب في العدو ، والكلاب في الطلب ، فتحرق ما مرت به من الزرع والنبات ، وتعلق الريح النار مه فيما جاوره ، مع ما يلقيه الرجال بأيديهم في الليالي المظلمة ، وعشاء الأيام المعتمة ^(١) .

ثم أمر بيرس سنة ١٢٦٣م بعمارة القلاع التي خربها المغول من حمص إلى حوران وزودها بالمؤن والدخيرة ، فأقام بذلك خطا حصينا من شرق الأردن إلى نهر العاص ، فصلا عن أبراج المراقبة التي أقامها على طول الأطراف الصليبية لحفظ الطرقات من اعتداءات الفرنج ^(٢) .

كذلك اهتم بيرس بعمارة سلسلة المناير أو المناور التي تربط أطراف الدولة بالعاصمة وهي عبارة عن أبراج للمراقبة يرايط فيها الحراس والمربطون ليل نهار ، فإذا كشفوا عدوا سقبلا من البر كالمغول ، أو من البحر كالصليبيين ، أشعلوا النار على قمم هذه المناور إذا كان الوقت ليلا ، أو أثاروا فيها الدخان إذا كان الوقت نهارا ، ثم سرعان ما تنتقل هذه الاشارات النارية أو الدخانية من مارة إلى أخرى تحذر الأهالي إلى أن تصل إلى العاصمة . فهي تشبه صفارات الانذار في وقتنا الحاضر ، وكثيرا ما استعمل المنورون اشارات مارية أو دخانية بطرق أو حركات معينة للإخبار عن حالة العدو أو عدده أو حميئة أو غير ذلك ، وأن كانت المراجع للأسف لم تشرح لنا طريقة ارسال هذه الاشارات .

(١) راجع : (المعرى التعريف ص ٢٠١ ، القننيدى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٤٠١) .

(٢) أنظر : Wiet . Precis de l' Histoire d'Egypte II p.25

ولعل الوصف الذى أورده، المقنسى (ق ٤هـ)، والعمرى (ق ٨هـ) عن دور هذه المناور فى مقاومة الصليبيين والمغول، يعطينا فكرة عن أهميتها الدفاعية فى الشرق العربى. فيقول المقدس: « وكفر سلام من قرى قيسارية كبيرة أهلة، بها جامع على الجادة، ولهذه القصبة رباطات على البحر، يقع بها النفير، وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانبيهم ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفى كل رباط قوم يعرفون لسانهم، وينهبون فى الرسائل، ويعمل إليهم أصناف الأطعمة، وقد ضح بالفير لما تراءت مراكبهم فإن كان ليلاً أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهاراً دخوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة، قد رتب فيها اقوام، فتوقد المنارة التى للرباط التى تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلا وقد انفرس بالقصبة وضرب الطل على المنارة، ونودى إلى ذلك الرباط وحرح الناس بالسلاح والقوة » (١).

أما العمرى فيصف مناور الجهة الشرقية المواجهة للمغول بقوله:

« والمناور هى مواضع رفع النار فى الليل، والدخان فى النهار. وذلك أن مملكة أيران لما كانت بيد هولاء من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين هذه المملكة، أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً، ويشار الدخان نهاراً، للأعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة. وهذه المناور تكون على رؤوس الجبال، ونارة تكون على أبنية عالية معروفة » (٢) من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة إلى

(١) المقنسى: كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٧٧، نشرى خوية (لیدن) ١٩٠٦.

(٢) لورد العمرى والقلقشدى أسماء تلك المواضع، راجع (العمرى) التعريف ص ٢٠٠ - ٢٠١، القلقشدى: صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٩٩.

حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إن المتجدد بالفترات أن كان بكرة علم به عشاء ، وأن كان عشاء علم به بكرة ، ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك ، وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامك مقررّة كانت لاتزال دارة .^(١)

ولم يقتصر يبرس على ذلك بل أمر في سنة ١٢٦٤م بتجديد بناء القلاع التي على الحدود المصرية ولاسيما قلعة البيرة التي أرسل إليها آلات القتال والأسلحة من مصر والشام ، وعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين كي تظل شوكة في جنب المعول .

أما في مصر فإن السلطان أمر بتردم مصب النيل عند دمياط ورمى فيه صخوراً عظيمة ليحول دون مرور سفن الصليبين وتكرر مأساة دمياط من جديد ، كما شيد برجاً للمراقبة في رشيد ، وعمر أسوار الإسكندرية وجدد بناء المنار الذي بها .

على أن يبرس لم يكتف بتلك الاستعدادات الدفاعية لضرورة ما تتطلبه الظروف الحربية من سرعة في تلقي الأحبار وإصدار الأوامر ، ولهذا وضع للبريد^(٢) نظاماً ربط به جميع أنحاء ملكته بشبكة من خطوط

(١) المصري : نفس المرجع والصفحة ، القلقشندي . نفس المرجع ، ص ٣٩٨ .

(٢) البريد نظام يتلقى بأمن الدولة مثل نظام المخابرات اليوم ، مهمته التجسس على عمل الدولة وأعمالها وإبلاغ العاصمة كل ما يقع في الولايات من أحداث ، فهو أذن بريد الدولة وليس بريد الجمهور مثل البوستة اليوم . ويقال أن أصل كلمة بريد لاتيني بيرنطي Veridus ثم انتقل هذا النظام إلى الدولة الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان نقلاً عن الروم في الشام .-

البريد البرية والجوية ، وكان مركز هذه الشبكة قلعة الحل بالقاهرة ، ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء المملكة ، وإليها ترد الرسائل من الحكام ، والتقارير من ولاية الأعمال والنيابات في سرعة وانتظام^(١) ، حتى صار البريد يصل من دمشق إلى القاهرة ومن القاهرة إلى دمشق في ثلاثة أيام^(٢) ، ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أمفق بيبرس أموالا ضخمة في سبيل فرتيبة ، وروود بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه عمال البريد من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها كي يستأنسوا بها ، وأعد في كل مركز منها خيولا لا يسمع بركوبها إلا بمرسوم سلطاني ، وكان البريديون يتحجبون عادة من خدم السلطان دوى الكفايات والذكاء لا بلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ،

وطلق لفظ البريد في أول الأمر على الفيلة التي تركب عليها رماية ثم أطلق عليه الراكب نفسه ثم على المساحة التي يقطعها الراكب وهذه على حسب تقدير علماء المسالك والفقهاء أربعة فراسخ ، ولما كان لفرسخ ثلاثة أميال فإن مسافة البريد تكون ١٢ ميلا على هذا الأساس

وعامل البريد كان يسمى أيضا بصاحب البريد كما كان يسمى في الهند بملك البريد على حد قول ابن بطوطة ، ولما في المغرب والأندلس فكان يطلق عليه اسم الرقاص ، ولا شك أن إدارة البريد بما فيها من سجلات وقوائم بأسماء المخطات وتقدير المسافات ، قد أعطت الرحالة والجغرافيين العرب مادة خصبة في كتاباتهم الجغرافية المعروفة باسم المسالك والممالك

(١) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق بزية يمتد أحدها جنوبا إلى قوص بالوجه القبلي وما يلي ذلك من بلاد النوبة ، وآخر شرقا إلى عيذاب وسواكن على البحر الأحمر ، وثالث غربا إلى الإسكندرية وبرقة ، ورابع شمالا إلى دياط ومنها إلى غزة حيث يتفرع البريد إلى سائر البلاد النائية ، راجع (القنفذى ص ١٤ من ٢٧٢ - ٢٨٢) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بيبرس الأول

وكانت لهم مكانة محترمة ويشرف على ادارة البريد صاحب ديوان الأنشاء
 إذ عهد اليه حفظ الواح^(١) . البريد بالديوان ، فإذا خرج بريدى إلى جهة
 من الجهات ، أعطى لوحا من تلك الألواح ليملقة بعقه في دهابه وإيابه .
 ولم يقتصر الأمر على البريد البرى ، فهناك أيضا ما يستطيع أن
 سمية بالبريد الجوى ونعنى بذلك الحمام الزاجل الذى كان يستخدم فى
 الحالات المتعجلة . وكان لهذا الحمام أبراج خاصة بالقلعة ومراكز معينة
 فى سائر أنحاء المملكة مثل مراكز البريد السرى ، لكنها ، تزيد عنها فى
 المسافة . فإذا نزل الحمام فى مركز منها ، نقل البراج الرسالة التى
 بجاجة إلى طائر آخر ليوصلها إلى المرحلة التى تليها وهكذا ، وكان
 الأيجاز والتركيز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام الزاجل ، إذ
 يستغنى فيها عن البسطة والمقدمات والالقاء الكثيرة ويكتفى بذكر
 التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة مختصرة^(٢) . وكان الحط
 المعمول فى هذه الرسائل هو المعروف باسم « الغبار » لأنه دقيق صغير يشبه
 دوات العمار لهذا كان حجم الرسالة فى بعض الأحيان لا يزيد طولها عن سلامة الاصبع .
 مما تقدم نرى أن النظام الدقيق الذى وضعه ييسر للبريد كان من
 الضروريات الحربية اللازمة للوقوف على كل ما يتجدد فى أنحاء مملكته
 فيأخذ حذره ويشهد للطورىء .

(١) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة : لا إله إلا
 الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
 - ضرب بالقاهرة المحروسة . على الوجه الآخر : عرلمولانا السلطان . . سلطان
 الإسلام والمسلمين ، راجع (القفشندي صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٧١)

(٢) القفشندي : نفس المرجع ج ١٤ ص ٢٨٩ - ٢١٤

٦ تقوية الاسطول والجيش :

ولم تقف مجهودات بيرس الحربية عند هذا الحد ، بل عمل على إنشاء قوة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يعيرون على بلاده من جهة البحر ، ويعتبر بيرس في الواقع هو مؤسس اسطول المماليك ، اذ يشير المقرئى إلى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل ، وإلى اهتمامه بدور صناعه السفن التي في القسطنطينية (مصر) وجزيرة الروضة ، والإسكندرية ودمياط ، لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على بناء الشوانسى ^(١) ، وتجهيزها بالآلات ، ولعبها في البحر ^(٢) ، ويسوق المقرئى في هذا الصدد رواية طريقة تدل على مبلغ - عناية بيرس بالأسطول ، وهي أن رسل ملك قسطنطينية جاءت إلى السلطان بيرس سنة ٦٧٠ هـ للشفاعة في صاحب عكا ، فوجدته جالسا في الصاعدة بين الأحشاب ، والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشوانسى وهي تملأ ، فراعهم ما شاهدوا ^(٣) .

وتد حرص بيرس على توفير اعماد الحشب التي تصلح لبناء السفن فمنع الناس من شرائها ، ويفهم من كلام المؤرخين أمثال الأسعدين مماني (ت ١٣٠٩ م) وعثمان بن ابراهيم البابسى (ت ١٢٥٨ م) والمقرئى (ت ١٤٤٢) أن حراج السنط التي كان خشبها يستخدم في بناء السفن ،

(١) راجع (المقرئى ك المخطوط ج ٢ ص ١٨٠ ، ٢٩٧)

(٢) الشوانسى جمع شبي أو شوبى أو شونة وهي من أعم القاطع التي كان يتألف منها الأسطول ، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعاً للدفاع والهجوم وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات ، تقف في الطبقة العليا بها المساكير المسلحة بالقوس والسهم ، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالهناديف ، وتحترق على محارر الطمام ، ومستودعات مخزن المياه

(٣) المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٦٠١

والتي كانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا ، وصعيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء على عهد الفاطميين والأيوبيين^(١) ، قد أخذت تقل تدريجيا منذ أواخر العصور الأيوبية ، وأن العوام والحواس صاروا يقطعون منها ما يحتاجونه من السواقي وآلات المعاصر وغيرها ، وما يوقدون به في بيوتهم ومعاصرهم بالجمل الكثيرة^(٢) بحيث لم ينته القرن الثالث عشر الميلادي إلا وكانت حراج الدلتا حول القاهرة في المطرية وقلوب والجيزة قد اختفت تماما ، ثم تلاها حراج الصعيد في الهنساوية والاشمونين واميوط وأخميم وقوص ، فاختفت هي الأخرى في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي ونحلت إلى أراضي زراعية ، ثم يقضى المقرنزي في القرن الخامس عشر الميلادي فيؤيد ذلك بقوله : « وقد بطل هذا جميعه ، واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء »^(٣) .

من هذا يرى أن مصر حتماً حكمتها الظاهر يبرس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، لم يكن يوجد بها إلا بقايا معصرة من حراج السنط في الوجه القبلي ، وحول مدينة السويس في صحراء سيناء^(٤) وهي في مجموعها لاتكفي حاجة الدولة ، وقد يؤيد ذلك أن يبرس احتكر الحشب المحلي الصالح لبناء السفن ومنع الناس من بيعه أو شرائه .

(١) الأسعد بن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

(٢) عثمان بن إبراهيم البابلي كتاب لمع القرنين المصرية في تاريخ الديار المصرية ص ٤٥ - ٦٠ منشور في مجلة الدراسات الشرقية بدمشق العدد ١٦ سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٠ .

(٣) المقرنزي : الخطط ج ١ ص ١١٠ ، ج ٢ ص ١٩٤ وكذلك (Aly Bahgat : les Forêts en Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien. le Caire 1900)

(٤) سعيد عاشور . مدينة السويس منذ الفتح العربي إلى بداية العصر الحديث ص ٧٧ ، (الفصل الثاني من كتاب تاريخ السويس سلسلة بلاتنا / القاهرة ١٩٦٦) .

كما أنه اضطر إلى قطع شجر الجميز Sycamore بجزيرة الروضة لاستخدام خشبه - رقم قلة جودته - في بناء أسطول جديد عوض الأسطول الذى كان قد سيره إلى جزيرة قبرص وتحطم هناك على سواحلها سنة ١٢٧١ م . ولعل العبارة التى وجهها بيبرس إلى ملك قبرص فى إحدى رسائله «يقول فيها : « وأنتم خيلكم مراكب ، ونحن مراكبنا الخيل »^(١) ، تدل على العجز الذى كانت تعانيه البحرية المملوكية فى أهم خاماتها ، وهو الخشب وكيفما كان الأمر ، فإن بيبرس عمل على تلافى هذا العجز باستيراد الخشب والحديد من آسيا الصغرى^(٢) وإيطاليا وتمكن بذلك من أعداد أسطول من خمسين قطعة .^(٣)

ولم يكن اهتمام بيبرس بتقوية جيشه أقل من اهتمامه بالمسائل البحرية السالفة الذكر ولذا أكثر من شراء الممالك من بنى جنسه القفجاق^(٤) إذ « مالت الجنية إلى الحسية » على قول القلقشندى ،

(١) المقرئى السلوك ج ١ ص ٥٩٤ حاشية ٥ ، عبد المعم واحد ، نظم دولة سلاطين الممالك ورسومهم فى مصر ص ١٩١ .

(٢) بروى ابن بطوطة (ق ١٤م) أن مدينة الملايا الواقعة على ساحل الاناصول كانت كثيرة الخشب وسهيا يحمل إلى الإسكندرية ودمياط (رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٥٧) كذلك بروى ابن لياس أنه حرت العادة أن يهرج جماعة من الأمراء والجنود فى عدد من المراكب إلى مكان يسمى الجون أو اللجون لاحتصار الأخشاب على العادة ، ومن المرجح أن المقصود باللجون هو مدينة بابر Babar التركية الواقعة على ساحل الاناصول (آسيا الصغرى) راجع ابن لياس : صفحات لم نشر فى بدائع الزهور ص ٢٧ ، حاشية ، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٧ .

(٤) المعروف أن بيبرس ولد ببلاد القفجاق أو القشق سنة ١٢٢٣م (٦٢٠ هـ) وقضى بها شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد السماسين على أثر هجوم للمول على تلك البلاد سنة ١٢٤٢م (٦٤٠ هـ) راجع (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة بيبرس الأول)

ووقعت الرعبه في الاستكثار من القفجاق على عهد بيرس : حتى أصبحت مصر بهم أهلة المعالم ، محمية الجوانب ، منهم زعماء جيوشها ، وعظماء أرضها ، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين حتى أنهم جاهدوا في الله أجليهم ^(١)

وبينما يروى القلقشندى أن معظم هؤلاء المماليك من أجلا القيشاق وهو لفظ يدل على القبيلة الذهبية ، يروى المقرئى أنهم أتوا بالأخص من بلاد تركستان. ونستطيع أن نوفق بين الروايتين في سهولة لأن القبيلة الذهبية تملك على جزء من تركستان وهو شمال خوارزم وأراضى السهوب الشمالية ، ولهذا سماها القلقشندى : مملكة توران خوارزم والقيشاق ^(٢) . ، إذا سلمنا جدلا بأن هؤلاء المماليك من أصل تركستانى ، فإنهم فى الواقع أتوا إلى مصر من بلاد القشاق جنوبى القلجا . وكيفما كان الأمر فالراجح أن حسن العلاقة بين بيرس وبركة خان مهلت الحصول على أولئك المماليك القفجاق دون غيرهم . غير أن الحصول على هؤلاء المماليك تتطلب الوصول إلى السواحل الشمالية للبحر الأسود فى سهولة ، واستطاع بيرس بعماراته وهداياهم أن يحصل من الأمراطور البيزنطى مباحيل بالبولوح على إذن لمرور سفينتين مصريتين مشحونتين بالمماليك عبر البسفور إلى البحر الأسود دهايا وإياها مرة فى السنة ^(٣)

(١) القلقشندى : صبح الأعنى ج ٤ ص ٤٥٨ .

(٢) القلقشندى : نفس المرجع ج ٤ ص ٤٦٩ ، وكذلك :

Peliak:la caractere Colonial de l'Etat mamelouk

dans: ses rapports avec la Horde d'or

R.E.I.1935,p.231,CahierIII .

(٣) أنظر :

(Heyd:Histoire du Commerce du Levant au moyen age, tome II. p.556.

ثم أن بلاد القفجاق كانت أصلح البلاد للحصول على أعداد كثيرة من المماليك ، إذ كانت شعوب تلك الجهات بدائية رحل بصيفون بأرض ويشتون بأخرى لقلة المراعى وقسوة المناخ . ويعانون ضيقا فى العيش ونقصا فى المواد الغذائية . وكان من الطبيعى أن يبيع بعض الأهالى أولادهم وبناتهم أو يستبدلونهم بالعلال لسد جوعهم . يضاف إلى ذلك أن القفجاق كانوا يغيرون على جيرانهم من الشراكسة والروس والمجر واللاتان ، ويأسرون منهم ما استطاعوا للبيع فى أسواق النخاسة البيضاء ومن ثم صارت قاعدة مملكتهم مدينة صراى ^(١) فرضة عظيمة للتجار ورقيق الترك والشراكسة والروس والمجر واللاتان ، وهذا هو بعض السر فى كثرة الاجناس التى تكونت منها الطبقة للمملوكية فى مصر ، ومن هذه الاجناس التى كثرت فيها عنصر القفجاق : ملايىرس صفوف جيشه حتى بلغت عدته أربعين ألف فارس ، ويحيط بنا المؤرخون فى هذا الصدد أن جماعات من مغول القفجاق وفدت مستأمنة إلى مصر فى عهد يبرس وأنصمت إلى جيشه . وسميت تلك الجماعات بالوافدية والتر المستأمنة . وحصل منهم أول الأمر مائتى فارس سنة ١٢٦٢م - (أواخر سنة ٦٦٠هـ) ثم مايزيد عن الألف وثلاثمائة فارس بعائلاتهم فى سنة ١٢٦٣م هذا بخلاف أعداد أخرى جاءت إلى مصر سنة ١٢٦٤م .

(١) كانت صراى تقع فى شمال غرب بحر قزوين . وقد تم بنائها فى عهد بركة خان ونصفها الروليات العربية بأكملها مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ومساجد . وفيها طوائف مختلفة من الناس مثل الروس والمغول والروم والتركس ، كل طائفة منهم تسكن على حدة . كان التجار الغراء من أهالى العراق ومصر والشام وغيرها يقيمون فى مكان خاص محاط بسور حيفا على أموالهم وبعائلاتهم ، ولما انتشر الإسلام فى تلك الجهات ، صارت هذه المدينة مقصد العلماء والأدياء أمثال قطب الدين الرازى ، وسعد الدين التفتازانى ، وغيرهم . راجع (الرسمى . تلفيق الأخبار ج ١ ص ٤١١ - ٤١٣ ، القلقشندى =

وقد رحب بيبرس بهؤلاء الجند ، وخلع عليهم وأكرمهم وأنزلهم في دور بنيت لهم خصيصا بالقرب من اللوق بظاهر مدينة القاهرة وقتذاك ، ثم أمر كبارهم ، وأنزل باقيهم في حملة بحريته ومماليكه . وجلب هؤلاء التتار معهم نظمهم وعاداتهم التي كان لها أثر كبير في النظم المملوكية بدليل قول المقرئى . ٥ ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس ، فعصت أرض مصر والشام بطوائف المغول وانتشرت عاداتهم وطرائقهم . (١) وعلى هذا الأساس تكون جيش المماليك من عدة فئات من الغرباء يقودهم قائد منهم يعرف بأتابك العسكر . وكلمة أتابك ، كما اسلفنا - معناها الأمير الأب ثم صارت تعنى قائد الجيش على اعتبار أنه أبو العساكر ، إذ أن هذا المعنى يتفق مع طابع دولة المماليك التي اعتمدت في المقام الأول على العلاقة بين الامتداد ومماليكه ، إما الفئات التي تكون منها الجيش فهي كالآتي :

المماليك السلطانية : وهم عبارة عن ممالك السلطان السابقين ثم ممالك السلطان القائم الذين يجلبهم لنفسه ، ولهذا عرفوا بأسم الأجلاب والجلبان ، ومنهم طائفة الخاصكية أو الاحداث وتمتاز عن بقية المماليك السلطانية بانضواء أفرادها وهم صغار السن في خدمة السلطان ، فهو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم . وكانت المماليك السلطانية أعظم الجنود شأنا وأشدهم إلى السلطان قربا وأوفرهم أقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء .

سجدة ص ٤٥٧ .

(١) المقرئى ، المخطوط ج ٢ ص ٢٢١ ويصرب بولياك ، مثلا على ذلك بقوله : « أعيد المماليك المبادئ الأساسية الأقطاعية من الإمبراطورية المغولية . ومن ثم صارت قواتهم الأقطاعية لايت فيها بواسطة القضاء ووفق أحكام الشريعة الإسلامية ، وإنما بواسطة الحبلب وعلى أسس أحكام جنكيزخان - البامة - راجع .

(Poliak : Some Notes on the Feudal system of the Mamlouks, J.R.A.S. 1937 P,97).

جند الحلقة : وهم من محترفي الجندية من أولاد المماليك ، وقد عرفوا أيضا بأسم « أولاد الناس » ، فهم على هذا الوضع أحرار وليسوا من المماليك . وهم كثرة الجيش وعامته في حالة الحرب ، وأصحاب حرف وصناعات في وقت السلم ، ولكل أربعين نفسا مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج الجيش إلى الحرب ، فهم أشبه باحتياطى الجيش ، ويمضى الزمن صار معظم جند الحلقة من أهل مصر . كذلك كان يوجد جند حلقة في الشام ، يؤخذون من أهل الشام ، ويوزعون على نياباتها .

مماليك الأمراء : وهم يشبهون المماليك السلطانية غير أنهم تابعون مباشرة لأمرائهم ومنهم تكون الوحدات الحربية التى يذهب بها الأمراء مع السلطان فى حروبه .

وهكذا كان تحصين بيبرس للشعور والمواضع المملوكية بأطراف الدولة ، وتنظيمه للجيش وقماته ، وعنايته بالأسطول والبريد ، من أهم الدعائم اللازمة لأقامة الدولة المملوكية على أسس ثابتة ، والدليل على ذلك أن بيبرس استطاع بفضل ذلك الجيش والأسطول والتحصينات ، أن يقوم بالدور الذى حلاله أن يقوم به ، وهو محاكاة صلاح الدين الأيوبي فى الجهاد ضد الصليبيين وحلفائهم فى الشام وفى النوبة فضلا عن جهاد المعول .

٧ - جهود بيبرس في مكافحة خطر الصليبي

أولا : الأمارات الصليبية في الشام :

سقت الإشارة إلى أن إقامة الملك لويس التاسع في فلسطين كانت توافق الأيام الأولى لقيام دولة المماليك حينما كانت مطالبة الأيوبيين بعرش مصر على أشدها والحرب قائمة بينهم وبين المماليك . واستطاع لويس التاسع بدهائه أن يستغل هذا النزاع لصالحه وإن يصلح في هدوء ما أحدثته هزيمة المنصورة . وبفضل هذه السياسة المرنّة تمكن لويس التاسع من إطلاق عدد كبير من أسرى جيشه ، والعاء ماتبقى من أموال القدية فضلا عن حصوله على وعد من السلطان أيك بتسليمه بيت المقدس إذا ما انضم إلى جانبه ضد الأيوبيين . ثم جاء تدخل الخليفة العباسي الذي حسم النزاع بين الطرفين المتنازعين مخيبا لآمال الصليبيين المستعمرين واضطر لويس التاسع أن يعود إلى بلاده خائب السعي ١٢٥٤م بعد أن فشل في تغيير الأوضاع الصليبية في فلسطين وتدعيم مركز الصليبيين فيها ، وإن كان قد استطاع بإقامته هناك أن يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين في الشام بعد أن انقطعت عنهم سبل الإمدادات العسكرية من أوروبا . والفترة التي تلت رحيل لويس التاسع إلى أن تولى بيبرس سلطنة مصر والشام (١٢٥٤م - ١٢٦٠م) كانت فترة هدوء ومسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب انشغال كل فريق بمشاكله الداخلية التي فصلنا الكلام عنها في الفصول السابقة .

على أن هذا الموقف لم يلبث أن تغير تماما في عهد بيبرس وخلفائه ، إذ نجد أن السياسة المصرية نحو الصليبيين في الشام تتسم بطابع العنف والقسوة ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الصليبيين أخذوا يتعاونون مع مغول فارس ضد دولة المماليك ، ويعملون كأدلاء ومرشدين

لجيوشهم المغيرة على الأراضي الشامية . وقد ساعدهم على ذلك موقعهم الجغرافى فى الشام الذى أتاح لهم معرفة تحركات الجيوش المصرية والشامية واحاطة المغول علما بها مما سهل عليهم احباط خطط المسلمين فى كثير من الأحيان ، ولم يقتصر الأمر على ذلك النحو ، بل نجد أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية بالتزول فى حصونها من باب التعاون العسكرى أو الدفاع المشترك ضد المسلمين ، ولك لم تلبث هذه الحاميات المغولية أن فرضت آرائها على الصليبيين فى كثير من الأحيان ، وصارت تملئ عليهم لرادة الحان المغولى المقيم فى تيريز أو مراغة أو بغداد .

ومهما يكن من شىء فإن هذه الحركة الماكرة من جانب الصليبيين فى الشام ، كانت بلا شك السبب الحقيقى لتلك السياسة العنيفة التى اتبعها بيرس وحلفاؤه نحو الصليبيين اذ عزز عليهم أن يكونوا مراقبين من الفرنج لحساب المغول ، فصمموا على طردهم من الشام . بدأت الحرب بين بيرس والصليبيين على شكل مناوشات محلية ، وبفهم من كلام المقربرى أن بيرس ذهب بنفسه إلى الشام سنة ١٢٦٣ م ، وكانت حركاته وقتئذ تدل على أنه كان يتفقد قواته ويوزعها تورزيعا استراتيجيا خاصا ، وعندما سارعت اليه وفود الإمارات الصليبية تطلب منه السلام والمهادنة ، قابلها بتمتهى الجفوة مما يدل على تصميمه على القتال (١) .

(١) قال بيرس لرسل الصليبيين : « ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكروا أسرى المسلمين جميعهم فإنى لا أقل غير ذلك » لم طردهم من موطئ . راجع (المقربرى : السلوك ج ١ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ ، سميد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤) .

وفى أوائل سنة ١٢٦٥م دحر يبرس فى عمليات حربية واسعة
المناطق ضد الإمارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينة قيسارية ثم
على مدينة أرسوف فى جنوبها ، وفى السنة التالية ١٢٦٦م هاجم يبرس
قاعدة استراتيجية صليبية خطيرة فى الشام وهى قلعة صفد التى كانت
قاعدة لفرسان الداوية وبعد قتال عيف تمكن يبرس من الإستيلاء عليها
، ويقال إن يبرس استولى على صفد بعد تأمينها ثم نكث بوعده وأمر
بقتل حمائها لأسباب عامصة ، مما جعل المصادرة الصليبية تتهمه بالحياة
والغدر ، ولا مجال للحكم هنا عن الحياة والغدر مع اناس مثل الصليبيين
كان الغدر هو شيمتهم طوال تاريخهم الطويل وحسب أن تصفح أخبارهم
لنجد أمثلة مشابهة كثيرة فى هذا المجال

وكيفما كان الأمر ، فإن سقوط قلعة صفد فى يد المسلمين قد
أصاب الصليبيين بضررة قاسية ٢ وحطم معنوياتهم إلى حد كبير بدليل أن
بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان يبرس على
أساس مبدأ المصاصة أو المشاركة معه فى علات بلادهم ومنتجاتها ولعل
من أطرفها تلك الهدنة التى أبرمت بين السلطان يبرس وبين ملكة بيروت
أزابيلا Isabella† بنت الملك جون الثانى ابلين John II Ibelin† ، التى
تطلق عليها المراجع العربية اسم الدبونة ، وهو تعريب لأسم البيت الحاكم
فى بيروت D'Ibelin .

وقد خلفت أزابيلا أباهما بعد وفاته سنة ١٢٦٤م على بيروت
وجبالها (لبنان) باعتبارها ابنته الكبرى . وكانت هذه الملكة قد تزوجت
وهى طفلة من الملك الطفل هيو الثانى ملك قبرص الذى مات قبل أن
يمقد عليها ، وحاول خليفته هيو الثالث الوصى على قبرص أن يستغلها

كورنثة لعرش قبرص لتنفيذ مشاريعه الصليبية في الشرق ولكنه لم ينجح
وذلك لأن الملكة ازابيلا عقدت هدنة مع السلطان بيبرس سنة ٦٦٧ هـ
(١٢٦٨م) مدتها عشر سنوات . وصارت كلما سافرت إلى قبرص
تذهب إلى لقاء السلطان بيبرس وترك مملكتها ودبعة بين يديه إلى حين عودتها ^(١) .

وقد أورد القلقشندي نصوص هذه الهدنة ، وهي في مجموعها
مفيدة لأنها تبين لنا حدود مملكة بيروت ومواحيها في ذلك الوقت
وتلاحظ أن كثيرا من أسماء مدنها وأحيائها ما زالت باقية إلى اليوم ، وفيما
يلي نص هذه المعاهدة :

« استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين
بيبرس ، وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة ، فلاة بنت فلان ، مالكة
بيروت وجميع جبالها وبلادها التحية مدة عشر سنين متوالية ، أولها يوم
الخميس سادس رمضان سنة تسع وستين ، على بيروت وأعمالها المضافة
إليها ، الحارث عادتهم في التصرف فيها في أيام الملك العادل أبي بكر بن
أيوب ، وأيام ولده الملك المعظم عيسى ، وأيام الملك الناصر صلاح الدين

(١) تزوجت هذه الملكة سنة ١٢٧٢م (٦٧٠ هـ) رجلا انجليزيا يدعى هامو القريب Hamo
e: L'Estrange كان من اتباع الأمير الأنجليزي إدوارد (أدولف الأول ملك انجلترا بعد
بعد) على أن هذا الزواج لم يلبث أن مات في العام التالي ، ويبدو أنه كان لا يثق في نوايا
هيو الثالث ملك قبرص ، فأنصحه قبل وفاته بوصف زوجته وملكة بيروت تحت حماية
السلطان بيبرس ، ولما علم هيو الثالث بذلك أقدم على محاولة جريئة وهي خطف الملكة
ازابيلا كي يزوجها في قبرص من الشخص الذي يختاره لها ، ولكن السلطان بيبرس احتج
على هذا العمل وهدد بضرورة تنفيذ وصية هامو وإعادة الملكة ازابيلا إلى بيروت في الحال
واضطر الملك هيو أن يعيد ازابيلا إلى بيروت حيث اتخذت لنفسها حرمًا من المصاليك
وعاشت هذه الملكة بعد وفاة بيبرس وتزوجت مرثى ثم ماتت سنة ١٢٧٢م تاركة حكم
بيروت إلى أختها اشيغا ، واستمرت بيروت في حكم أسرة ايلين إلى أن سقطت نهائيًا في
يد السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون عقب سقوط عكا ١٢٩١ م .

يوسف بن النعمير ، والقاعدة المسفرة هي رسمهم إلى آخر الأيام الظاهرية بمقتضى الهدى الظاهرية ، وذلك مدينة بيروت وأماكنها المصافة إليها : من حد حبل شمالا ، إلى حد صيدا جنوبا وهي المواضع الآتى ذكرها .
 جونية بحدودها ، والعذب بحدودها ، والعصفورية بحدودها ، والرواق بحدودها ، ومن الفيل بحدودها ، والريح والشويف بحدودها ، وأنطلياس بحدودها ، والجديدة بحدودها ، وحسوس بحدودها ، والشربة بحدودها ، والدكوانة وهرج كراجار بحدودها ، وقوية بحدودها ، والصراية بحدودها ، وحلدا بحدودها ، والناعمة بحدودها ، ورأس الفقيه ، والوطاء المعروف بمدينة بيروت وجميع ما في هذه الأماكن من الرعايا والتجار ، ومن سائر أصناف الناس أجمعين ، والصادر من منها ، والوارد من إليها ، من جميع أجناس الناس والمتردد من إلى بلاد السلطان ببيروت وهي :

« الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها ، والمملكة الأطاكية وقلاعها وبلادها ، وحلّة واللدقية وقلاعها وبلادها ، وحمص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه ، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها ، والمملكة الرحية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ، والمملكة البعلبيكية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها ، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها ورعاياها ، والمملكة القدسية وما يختص بها ، والمملكة الحلبية وما يختص بها ، والمملكة الكركية والشوبكية وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا ، والمملكة النابلسية ،

والمملكة الصرخدية ، ومملكة الديار المصرية جميعها بشغورها وحصونها
وممالكها وبلادها وسواحلها وبرها ورعاياها وما يختص بها ، والساكنين في
جميع هذه الممالك المذكورة ، وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلاده .
وما سيفتحه الله تعالى على يده ويد نوابه وعلمانه ، يكون داخلا في هذه
الهدنة المباركة ، ومنتظما في جملة شروطها ، ويكون جميع المترددين من
هذه البلاد واليها آمنين مطمئنين ، على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم ،
من الملكة فلانة وعلمانها ، وجميع من هو في حكمها وطاعتها ، بحرا
وبرا ، ليلا ونهارا ، ومن مراكبها وشوانيتها ، وكذلك رعية الملكة فلانة
وعلمانها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان
ومن جميع نوابه وعلمانه ومن هو تحت حكمه وطاعته : برا وبحرا ،
ليلا ونهارا ، في حيلة والادقية ، وجميع بلاد السلطان ومن مراكبه
وشوانيه .

وعلى أن لا يجدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجريه
عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين ،
وإن عدم لأحد من الجانبين مال أو أخذت أحيدة ، وصحت في الجهة
الأخرى ، ردت أن كانت موجودة ، أو قيمتها أن كانت مفقودة . وأن
خفى أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوما ، فإن وجدت ردت ، وإن لم
توجد حلف والى تلك الولاية المدعى عليه ، وحلف ثلاثة نفر ممن
يختارهم المدعى ، وبرئت جهته من تلك الدعوى ، فإن أبى المدعى عليه
عن اليمين ، حلف الوالى المدعى وأخذ ما يدعيه . وأن قتل أحد من
الجانبين خطأ كان أو عمدا ، كان على القاتل في جهته العوض عنه

نظيره ، فارس بفارس ، وراجل براجل ، وفلاح بفلاح . وأن هرب أحد من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره ، رد من الجهتين هو والمال ، ولا يعتذر بعذر .

وعلى أنه إن صدر مرجعي من بيروت إلى بلاد السلطان ، يكون داخلا في الهدنة ، وأن عاد إلى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة . وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدا من الفرغ على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق سوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بمهودها والوفاء بها إلى آخر ملتئمتها من الجهتين ، لا يقصها مرور زمان ، ولا يعبر شروطها حين ولا أوان ، ولا تنقض بموت أحد الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوما ولا يجمع أحد منهم من العود إلى مستقرة ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الحظ الشريف حجة فيها ، والله الموفق في تاريخ كنا^(١) .

وفي سنة ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ) استولى بيارس على مدينة يافا في الجنوب ، ثم وجه ضربه حاسمة في نفس السنة إلى أهم أمانة صليبية وهي انطاكية في أقصى الشمال ، فيروي المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق : أحدهما اتجهت إلى ميناء السويدية لقطع الصلة بين انطاكية والبحر خوفا من اساطيل العدو ، والثانية سدت الممرات بين قليقبة والشام لمنع

(١) الفقهدي : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩ - ٤٢ .

وصول امدادات من أرمينيا الصفري ، والثالثة وهي القوة الرئيسية بقيادة
بيبرس هاجمت المدينة نفسها واستولت عليها سنة ١٢٦٨ م . وفهم من
كلام التويري أن بيبرس استخدم الحيلة قبل التوجه بجيوشه إلى اماره
انطاكية اذ تظاهر بأنه يريد مدينة طرابلس وحاصرها فعلا ، فخرج صاحب
انطاكية بوهمند السادس بأسطوله لاجلقتها ، وعندئذ ترك بيبرس خيامه
ومتاعه عند طرابلس متظاهرا بالخوف والهزيمة واتجه من فورده إلى انطاكية
واحتلها بالطريقة التي ذكرناها ، بينما كان أهل طرابلس يلهون ويقولون :
الظاهر بيبرس خاف منا ^(١) ، وفهم من هذه النصوص أن بيبرس لم
يحاول استخدام أسطوله عند الهجوم على انطاكية بل اعتمد في ذلك
على قوته البرية فقط ، بدليل أنه عمده إلى استبعاد أسطول انطاكية من
المعركة أولا ، ثم وضع فرقة عسكرية بين المدينة والبحر لمنع عنها أي
مدد من هذه الناحية ، وبذلك تم له احتلال المدينة ^(٢)

وكيفما كان الأمر فإن سقوط اماره انطاكية كان في الواقع كارثة
كبرى على القوى الصليبية لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي مندا
قويا للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية وتشير المراجع إلى الرسالة
التي كتبها بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس الذي كان مقيما وقتئذ في
امارته الثانية طرابلس على جنوب انطاكية . وكانت هذه الرسالة مليئة
بعبارات السخرية والتهكم ، وليس الذي يعنينا هنا هو السخرية أو التهكم
وانما استنتاج ما وصلت إليه أحوال الصليبيين من ضعف حتى استطاع

(١) التويري : كتاب الإلغام فيما جرت به الاحكام القصية في وقعة الإسكندرية ورقة ١٦٩
(٢) يتم بيبرس من انطاكية فهاكم كثيرة حتى قيل أن القود قسمت بين الجنود بالطاسات ،
كما بلغ من كثرة الأسرى أن لم يبق علام إلا وله علام وبيع الصغير بقي عشر درهما ،
والجارية بخمسة دراهم ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ١٤٧ .

بيسر أن يوجه أمثال تلك العبارات إلى صاحب أكبر أمانة صليبية في الشام في ذلك الوقت .

ثم أخذ بيسر بعد ذلك في مهاجمة أمانة طرابلس سنة ١٣٧٠ هـ (٦٦٩ م) فاستولى على المافد المؤدية إلى المدينة المحيطة بها ومن أهمها حصن الأكراد Crac de Chevallier وحصن عكار ، فأصبح في مقدوره بذلك حصار مدينة طرابلس نفسها ، ولكن الأثناء الواردة بوصول الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع ، أنقذت طرابلس من هذا المصير ذلك لأن السلطان بيسر عاد أدراجه مسرعا إلى مصر ، إذ كان يحشى أن يعيد ملك فرنسا قصة المصورة مرة أخرى ، ولذا أهتم بتتبع أخبار تلك الحملة ، وأعلن حالة التعبئة والاستعداد في الموانئ والشعور المصرية .

ويبدو أن ملك فرنسا كان يريد فعلا أن يكن اتجاه هذه الحملة الصليبية نحو المعقل الإسلامية في الشرق العربي ، لولا أن أخاه شارل دي انجو الذي كان ملكا على جزيرة صقلية ، أراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه ، وذلك بالإستيلاء على مملكة تونس التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت ، والمراجع التونسية ترجع أسباب تلك الحملة إلى عامل الانتقام الشخصي ، فيقول أبو القاسم الرعيني القيرواني العروف بابن أبي دينار : « وسبب نزول الفرنسيين تونس قيل أنه ذكر اسمه يوما بحضرة الخليفة المستنصر بالله الحفصي ، فهضم من جانبه ، وقال هو الذي أسره هؤلاء وأطلقوه (يشر إلى المماليك) ، فبلغت هذه المقالة الفرنسيين (أي لويس التاسع) فحقد لها وعزم على غزوها

تونس^(١). والواقع إن هذه الرواية - إن صحت - لا تعدو أن تكون سببا مباشرا فقط ، أما السبب الحقيقي فيرجع إلى أهمية موقع تونس بالنسبة لصقلية التي كان يحكمها شارل أخو الملك لويس كما هو معروف ، ويكفى أن نبه الأذهان في هذا الصدد إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عهد الأغالبة وعلى يد قاضي القيروان أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ (٨٢٧ هـ). وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية ولهذا نجح شارل في اقناع أخيه لويس تلك بتحويل الحملة إلى تونس .

ولم تكد مراكب الفرنسيين تصل إلى الشواطئ التونسية حتى أصيب الملك لويس التاسع بحمى شديدة مات على أثرها ، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة ، فأخذ يسيّرهما وفق أعراضه حتى أزال عنها صفتها الصليبية ، وانتهى أمر هذه الحملة بأجراء مفاوضات مع الحليفة المستنصر الحفصي الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين ، وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الحية بتلك النتيجة الضعيفة التي أعضبت معظم الذين أشرّكوا فيها^(٢) .

أما السلطان يبرس و فإنه بعد أن اطمان على نتائج تلك الحملة

(١) المرجع (١٢٩)

(٢) يقول في ذلك أحد الشعراء التونسيين :

يافرنسيس هذه لخت مصر ففها لما إليه تصير
لك فيها دلائل لقمان قبر وطواشيك مكر ونكير

والمقصود بالطواشي هنا صبيح المظفر - نسبة إلى للمظفر تورانشاه الذي تكفل بالملك لويس التاسع في دارين لقمان بمدينة المنصورة ، راجع (جوزيف نسيم : العدوان العلوي على مصر ص ٦٠) .

الصليبية ، غادر مصر وعاد إلى مقاتلة الصليبيين في طرابلس من جديد سنة ١٢٧١م ومارسل إليه أميرها بوهمد السادس بطلب الصلح والمصالحة ، هذا في الوقت الذي وصلت فيه حملة صليبية أنجليزية بقيادة الأمير ادوارد إلى عكا ، فاضطر السلطان بيبرس أن يجيب صاحب طرابلس إلى طلبه ويعقد معه صلحا لمدة عشر سنوات^(١) . ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمد السادس ، كان بيبرس نفسه مندسا بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده ، ومتكبرا في رى حادم كى تتاح له حرية النقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيدا لفتحها فيما بعد .

هذه الجراة التي اتصف بها بيبرس جعلته يقوم بمحاولة أخرى جريئة قيل هذا الوقت بقليل حينما أرسل أسطولا لغزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠م وكان يحكم هذه الجزيرة الملك هو الثالث لوزجنان الذي اشتهر باطماعه الصليبية في الشام ، وعداوتة الشديدة لدولة المماليك . غير أن معظم هذا الأسطول تحطم للأسف عند شاطئ الجزيرة على أثر عاصفة شديدة هبت عليه .

وعلى الرغم من أن ملك قبرص حاول أن يجعل من فشل هذه الحملة البحرية نصرا صليبيا كبيرا ، إلا أنه يبدو بوضوح أن هذه الهزيمة لم تؤثر في قوة بيبرس تجاه الصليبيين كما أنها لم ترفع من روح الصليبيين المعنوية في الشام

(١) هذا الأمير ادوارد هو ادوارد الأول ملك إنجلترا فيما بعد ، وكان قد أتى إلى الشام على رأس قوة صغيرة من ألف محارب على أمل التعاون مع عمال معول فارس أبغا بن هولأكو على عرو مصر والشام ، ولكن هذا المشروع لم يتحقق نتيجة لانشغال أبغا بمحاربة مغول التركستان ، ولم يلبث ادوارد نفسه أن طعنه أحد الحشوية بخنجره ولكن الطعنة لم تكن قاتلة وفاضطر إلى العودة إلى بلاده بعد أن عقد هدنة مع بيبرس مدتها عشر سنوات .

بدليل أنهم أصروا على مفاوضة بيسرس ومصالحته، وأخيرا تم الصلح بين بيسرس والأمارات الصليبية بوجه عام ١٢٧١م، وكانت شروط الصلح تدل على أن كلا الطرفين كان في حاجة إلى عدة، إذ اشترط كل منهما على أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما، واستمر الوضع على هذا الحال إلى وفاة بيسرس سنة ١٢٧٧م.

ثانيا : أرمينية الصغرى :

سميت بأرمينية الصغرى للتميز بينها وبين أرمينية القديمة ، وكانت أرمينية قديما تقع فى المنطقة الجبلية الممتدة جنوب القوقاز والبحر الأسود أى بين بلاد فارس والعراق شرقا وبلاد الروم غربا . وقد أدر عليها هذا الموقع بأرباح طائلة نتيجة لمركزه على طرق التجارة بين الشرق والغرب بأراضيها ، غير أن هذا الطريق لم يلبث أن تحول نحو الجنوب فى القرن العاشر الميلادى وصار يمر بحلب وأنطاكية فى شمال الشام نظرا لصعوبة الطريق القديم الذى كان يمر بحال أرمينيا إلى البحر الأسود .

ولاشك أن هذا التحول الجديد قد أفقد أرمينية أهميتها الإقتصادية فأخذت تضعف تدريجيا إلى أن أستولت عليها الدولة البيزنطية فى القرن الحادى عشر الميلادى .

غير أن الأرمن وهم عنصر اقتصادى مكافح لم يستسلموا لهذا الوضع ، بل غادروا بلادهم وانتقلوا جنوبا مع انتقال الطرق التجارية من ناحية ، وتحت ضغط هجرات السلاجقة والمغول من ناحية أخرى ، واستقروا فى جنوب الأناضول وقلقية أى فى المنطقة الممتدة من الرها

شرقا إلى أطلنة عربيا ، وهناك في حوب آسيا الصغرى اسسوا مملكة أرمينية الصغرى المعروفة زمن الحروب الصليبية والمماليك ، واتخذوا مدينة سيس عاصمة لهم .

ولقد لعبت هذه المملكة المسيحية دورا خطيرا ضد دولة المماليك في مصر والشام ، اذ أنها لم تكف بمساعدة الإمارات الصليبية في الشام ، بل تحالفت مع مغول فارس وأخذت تخرض هولاكو وابنه أبغا أوباقا على غزو الشام ومصر ، وهذا إلى جانب الحصار الاقتصادي الذي فرضته على دولة المماليك بمنع تصدير الخشب والحديد من آسيا الصغرى إلى مصر .

واضطّر السلطان بيبرس أن يتبع مع مملكة أرمينية الصغرى نفس سياسة العنف والقسوة التي اتبعها مع الإمارات الصليبية في الشام ، فأرسل إليها سنة ١٢٦٦م حملة تأديبية بقيادة الأمير قلاوون ، أغارت على مدنها الرئيسية مثل سيس وأطلنة وطرمسوس والمصيصة ، وعالت فيها فسادا وتخريبا مدة عشرين يوما ثم عادت بغنائم كثيرة ، وعدد كبير من الأسرى من بينهم ابن هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى^(١) ، واضطر الملك هيثوم لكي يطلق سراح ولده أن يتنازل للمماليك عن عدة مواقع استراتيجية هامة تتحكم في طرق المواصلات التي تربط أرمينية بحلفائها المغول في الجزيرة شمالي العراق من ناحية ، وبالصليبيين في انطاكية من ناحية أخرى . كذلك نعهد هذا الملك بدفع جزية سنوية لسلطان مصر

(١) يقول أحد الشعراء في تحطيم مدينة سيس قاعدة أرمينيا الصغرى :
يملك الأرض الذي عزمه كم عالم للكفر منه حرب
قلبت سيس غولها تحتها والنفس قلوا سيس لا تنقلب
(تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٢٦١) .

والشام في مقابل مسالته ، وظلت أرمينيا الصغرى بعد ذلك محدودة القوى ضعيفة التأثير في مجرى أحداث الشرق العربي إلى أن قامت بحركة عصيان أخرى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ق ١٤م) انتهت بخضوعها واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام ^(١) .

ثالثا : مملكة النوبة :

كانت مملكة مسيحية في أعالي النيل تدين بالطاعة لسلطان مصر ، تؤدي له الجزية السنوية المعروفة بالبقط ^(٢) منذ الاتفاقية التي عقدها معها القائد العربي عبد الله بن أبي مروح سنة ٦٥٠ م ، غير أن هذه التبعية كانت اسمية في غالب الأحيان ، إذ أن هذه الدولة كانت كثيرا ما تجتمع إلى العصيان وعدم دفع الجزية ، وتظهر على الأراضي المصرية الجنوبية . وقد اهتمت السياسة المصرية بوضع هذه المملكة المسيحية أبان الحروب الصليبية بصفة خاصة ، عندما حاربت قواعل الحجاج والتحاررتجه حوفا عن طريق النيل إلى مدينة قوص ، ومنها إلى عيذاب وجدة في البحر الأحمر بدلا من طريق السويس - العقبة في سياء الذي صار محقروا بالمخاطر بسبب الحركات الصليبية على سواحل الشام وفلسطين وقيام الإمارات الصليبية ^(٣) .

(١) المقريزي : الملوك ج ١ ص ٥٥٢ . سعيد عاشور المرحوم السابق ج ٢ ص ١١٤٨ .
ويلاحظ أن أرمينيا في الوقت الحاضر مقسمة إلى سبقتين : منطقة روسية باسم جمهورية أرمينيا الاشتراكية ، ومنطقة تركية من عدة ولايات أهمها ولاية أرزنروم .
(٢) هذه الكلمة بقط اما مأخوذة من الكلمة المصرية القديمة باق Bak بمعنى عبد ، أو من الكلمة اللاتينية Pactum ومعناها عقد أو اتفاق ، أو أنها عربية الأصل بمعنى قطعة أو فرقة .

راجع (السيدة الكاشف ، مصر في فجر الإسلام ، ص ١٥)

(٣) راجع : مصطفى مهدي ، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٢٢

ويدو أن صلاح الدين الأيوبي قد حشى من أن تكون هناك صلة بين غارات النوبيين على أسوان وبلاد الصعيد ، وبين غارات الصليبيين على سواحل بحر القلزم (الأحمر) حتى بلغت عيذاب وتوغلت إلى قوص لهذا أرسل صلاح الدين أحياء نورانشاه على رأس حملة تأديبية توغلت في بلاد النوبة حتى دنقلة ثم استقر قسم منها في قلعة أبريم^(٢) لحماية قوافل الحجاج والتجارة في هذه الأطراف المصرية الجنوبية .

وعند قيام دولة المماليك تكررت اعتداءات النوبيين على الأراضي المصرية ، وانتهز ملك النوبة المدعو داود فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد الممولى والصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى ، وهاجم ثمر أسوان سنة ١٢٧٢ م . ويدو أن داود قام بهذه الأعمال الاستفزازية مدفوعا بروح صليبية وكراهية دينية . بدليل أنه هاجم أيضا ميناء عيذاب لا يقصد تهديد التجارة المملوكية في البحر الأحمر بحسب بل لقطع طريق الحج في هذه المنطقة .

وقد رد بيبرس على ذلك برسالة حملتين متتاليتين إلى بلاد النوبة في سنتي ١٢٧٣ م ، ١٢٧٥ م بقيادة الأميرين أفسنقر الفارقاني وعز الدين الأفرم ، وشاركت البحرية النيلية في هذه الحملات بنقل الجنود والآلات والأقوات حتى مدينة أسوان . وتمكن الأمير عز الدين الأفرم من اخراق الجنادل بمراكبه قرب الشلال الثاني ، والانتصار على الملك داود وأسره وإقامة عمه سكندة الذي تعهد بدفع الجزية في كل عام . هذا وكان السلطان بيبرس قد احتل مدينة سواكن المنفذ البحري لمملكة النوبة على

(٢) أبريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية لسبل في منطقة النوبة المصرية التي عرفت في العصر الروماني باسم nubatai وفي المراجع القديمة باسم مريس

البحر الأحمر سنة ١٢٦٥م مما أدى إلى تهديد المعقل المسيحية في بلاد النوبة فضلا عن أحكام السيطرة المصرية على البحر الأحمر وتجارته. وقد أنشأ السلطان بيبرس عقب هذه الانتصارات ديوانا حائلا للنوبة في القاهرة تحت إشراف الوزير بهاء الدين بن حنا لمراقبة وصول الجزية من النوبة بانتظام .

يلاحظ أن الحملات المستمرة على بلاد النوبة قد شجعت القبائل العربية على مصاحبتها بغية الأستقرار إلى جوار النوبيين والاختلاط بهم وخاصة في منطقة شمال النوبة أو أرض المريس . ونذكر على سبيل المثال عرب ربيعة الذين تزوجوا بنات رؤساء النوبيين فأصبحت لهم مصالح مادية لا تنفعهم بنظام الوراثة المعروف عند النوبيين وهو توريث ابن البت أو ابن الأخت .^(١)

وهكذا أخذت هذه المملكة المسيحية تصطبغ بالصيغة العربية الإسلامية وتفقد طابعها المسيحي تدريجيا بحيث لم يكد يمر على وفاة بيبرس نصف قرن تقريبا (ق ١٤م) حتى كان النوبيون قد اعتنقوا الإسلام ، وانتقل الملك فيهم إلى بني كثر^(٢) ، فسقطت عنهم الجزية لأن بني كثر عرب مسلمون من ربيعة وهم الكنوز الحاليون .

(١) مصطفى محمد مسعد / الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١٢٤ ، تاريخ ابن العرات ج ٧ ص ٥١

(٢) أصل هذه التسمية ترجع إلى أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله حينما استعان بأمر ربيعة أبي المكارم هبة الله في القصر على أبي ركوة الذي فر بعد هزيمته إلى جنوب مصر ، ونجح أبو المكارم في القصر عليه سنة ١٠٠٦م فكاملة الخليفة الحاكم بلقب كثر الدولة وتوارث أبناؤه هذا اللقب وعرب بنو ربيعة إلى كثر ، أنظر (مصطفى مسعد : نفس المرجع ص ١٢٥) .

٨ - حروب بيسرس ضد المغول :

كانت المشكلة الكبرى التي واجهت السلطان بيسرس منذ بداية حكمه هي مواجهة مغول فارس ، ذلك لأن خطرهم كان واضحا تماما خصوصا بعد واقعة عين جالوت التي تعد بداية لانهيار لعلاقات دولة ايلخانات فارس بالمماليك . ولعل بيسرس لم ينس الكلمات التي تفوه كتبها نون قائد المغول في عين جالوت قبيل مصرعه على يد قطز وهي : « أنتى أن هلكت على يدك ، فانى أعلم أن الله لا أنت هو الذى أراد قتلى ، فلا تتحدع بهذا الصر المؤقت ، لأنه لا يكاد يصل إلى هولاكو خان خبر موتى ، حتى يغلى غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الخيل المغولية أرض البلاد ابتداء من أدريجان إلى أبواب مصر » (١) .

فمثل هذه الكلمات الجريئة القوية تصور مدى الخطر الذى كان ينتظر دولة المماليك من هولاكو بعد أن هزم جيشه وقتل قائده ، وصهره كتبها . ثم ازداد هذا الموقف خطورة عندما ارتبط الخطر المغولى بخطر الصليبيين الذين حاولوا استمالة المغول ومحالفتهم طمعا فى نشر المسيحية بينهم والإستعانة بهم فى غزو مصر والشام .

ولمواجهة هذا الموقف تحالف بيسرس مع مغول القفجاق وتزوج ابنة عيهم بركة خان الذى اعتنق الإسلام وصار حربا على بنى جنسه مغول فارس . ويظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى بعث بها إلى السلطان بيسرس سنة ١٢٦٣م يقول فيها : « فليعلم السلطان اننى حاربت هولاكو الذى من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين

(١) راجع فؤاد عبد المعطى الصياد مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهملنى ،

الإسلام^(١)

على أن يبصر لم يعتمد فقط على هذا التحالف ، بل أخذ يحصن أطراف دولته المواجهة لدولة مغول فارس على نهر العرات ، لاسيما قلعة البيرة التي زودها بمعدات تكفيها لمقاومة الحصار مدة عدة سنوات كي تظل شوكة في جنب المغول في هذه الجهة الشرقية . كذلك عمل على افساد الطرق والوديان المؤدية إلى الشام كي لا يبط المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون إليه من أقوات أو أعشاب لدوابهم

وفي عام سنة ١٢٦٥ م (٦٦٣ هـ) مات هولاكو خان ، غير أن وفاة الأشخاص في دولة فتية مثل الدولة المملوكية ، لم يؤثر مطلقا في عزم التتار على تحقيق ما بدأه هولاكو من التقدم نحو عزو دولة المماليك في مصر والشام ، بل أن الحان الجديد للدولة المملوكية فارس واسسه أباقا أو أبا (١٢٦٥ - ١٢٨٢ - ٦٦٣ - ٦٨٠ هـ) راد على سياسة أبيه هولاكو بأن اهتم بمسألة الحلف مع الصليبيين ، فكان يعطف على المسيحيين ويتبادل السفارات والهدايا مع البابوات وملوك أوروبا . وكان الهدف المشترك من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة للقضاء على دولة المماليك والإستيلاء على بيت المقدس وقد ظهر أثر ذلك التحالف واضحا عندما انتهز أباقا حان فرصة انشغال ببيبرس بمعاربة الصليبيين للاغارة على الحدود الإسلامية ، مثال ذلك ما حدث سنة ١٢٦٦ م حينما أغارت الجيوش المملوكية على مدينة الرحبة على الحدود الفراتية في الوقت الذي كانت فيه جيوش ببيبرس تهاجم مدينة صفد الصليبية .

(١) المسمى . عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (الجزء الخامس صفحات ٦٥٦-٦٧٣ هـ) ص

٤٩٤ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٤٠

ولكن على الرغم من هذا ، نحو العدائي ، فإنه يبدو وأن باقا خان حاول أن يجرى الصلح مع بيبرس على شروط تلائم المغول أو بمعنى آخر حاول أن يستخدم الأساليب الدبلوماسية في بسط سيطرته على دولة المماليك فأرسل إلى الظاهر بيبرس رسالة سنة ١٢٦٨ م يعرض عليه الصلح ويطلب منه الخضوع والرضوخ ، مثل قوله : « فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت ما ، فالمصلحة أن تجعل بيتنا صلحا ، غير أن هذه اللهجة المعولية الآمرة في طلب المصلح لم تعجب بيبرس فرد على الرسول المعولي بقوله : « اعلم أي ولاء بالمطالبة ، ولازال انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض » .

وفي سنة ١٢٧٢ م توجه بيبرس لملاقاة التتر على أرضهم ، فحمل معه عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال ، وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه ، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المعولية ومطاردة قتلوها في الأراضي العراقية سنة ١٢٧٣ م . ويبدو أن نجاح بيبرس في هذه الحملة مكّنه من جذب عدد من كبار رجال الدولة المغولية إلى جانبه ، إذ يروى مؤرخ المعول رشيد الدين أن أباخان خان نكب أسرة الحوينيين الدين كانوا يحكمون العراق في عهده بتهمة الاتصال بملك مصر الظاهر بيبرس ، والإتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هؤلاء المؤرخ عطا ملك الجوينيين حاكم العراق وأخوه الخراجة شمس الدين محمد وزيره ، وأبناءهما . وكلهم أهل فضل وأدب ، وأرياب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محط رجال الأدباء والكتاب

والشعراء ومناط آمالهم ، بذلوا كل ما فى وسعهم لتعمير ما خربه المغول ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع وصالح^(١).

هذه الحادثة التى تذكرنا بنكبة البرامكة أيام هارون الرشيد ، تدل بوضوح على أن يبيرس استطاع أن ينتصر على أعدائه فى هذه الجبهة ، وأن يؤمّن بذلك حدوده الشرقية من الخطر المغولى .

على أن الصراع بين دولتى الممول والمماليك لم يقف عند هذا الحد اذ سرعان ما انتقل إلى ميدان آخر وهو بلاد آسيا الصغرى فى الشمال والجب فى هذا التحول هو أن يبيرس بعد أن أمّن حدوده الشرقية أراد تأمين حدوده الشمالية المتاخمة لبلاد السلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وكانت هذه البلاد تابعة للمغول منذ أنزاع ملوكها إلى هولاء وكانت مقاليد الحكم فى يد الوزير معين الدين سليمان البرواناه ، والبرواناه ، لفظ فارسى معناه الحاجب .

وكان هذا البرواناه يعمل إلى جانب أصحاب السيادة فى البلاد وهم المغول ، فلما تغلب يبيرس على الممول ، مال البرواناه إلى جانب المنتصر وأخذ يرسل يبيرس معلنا أنضمامه إليه ، فتقدم يبيرس بجيشه إلى آسيا الصغرى ، وانتصر على الجيوش الممولىة انتصارا ساحقا عند بلدة أبليستين أو أبليستان^(٢) سنة ١٢٧٧م (٦٧٥ هـ) ، إذ فقد من المغول فى تلك المعركة ما يقرب من ٧٠٠٠ نفس . ثم دخل يبيرس مدينة قيصرية عاصمة سلاجقة الروم حيث نزل بدار السلطنة وجلس على عرش سلاجقة الروم وخطب له على المسابر واستقبله الأهالى استقبالا رائعا ، ثم

(١) فؤاد عبد المحلى المياد : مؤرخ المغول رشيد الدين ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) تقع أبليستين فى شرق مدينة قيصرية أو قيسلوية الروم .

عاد بيرس إلى الشام .^(١)

ولما علم أبا قاخان بما حل بجيشه في الاناصول ، سارع إلى ميدان المعركة في ابلستين ويقال أنه بكى عندما شاهد أشلاء القتلى من جنوده ، ثم صب جام غضبه على أهالي البلاد فقتل منهم عددا كبيرا لترحيبهم بسلطان مصر ، كما أمر بقتل البرواناه أيضا بعد أن قام نساء القتلى من المغول بثورة كبيرة مطالبين بدمه لأنه كان السبب في هذه الكارثة .

ويأخذ بعض المؤرخين على بيرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها صارت تابعة للدولة المماليك رسميا ، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيرس في ذلك الوقت تولى التعب أو المرض بدليل أنه مات في نفس تلك السنة^(٢) بعد مقتل البرواناه بوقت قصير سنة ١٢٧٧ م (٦٧٦ هـ) ودفن بدمشق .

وهكذا تنتهي حياة السلطان الظاهر ركن الدين بيرس البندقدارى الصالحى الذى تصفه المراجع بأنه كان طويل القامة ، أسمر اللون ، أزرق العينين ، جهوري الصوت ، شجاعا بطلا هماما ، عسوقا عجولا ، في عينه أثر بياض بقدر خرم ابرة ، وكان هذا من أسباب عدم الإقبال على

(١) يقال في هذا الصدد أن أول ما فتحه بيرس قيسارية الشام وآخر ما فتحه قيسارية الزوم (تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٨٤) هذا وقد أورد القلقشندي نص الرسالة التي من أنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر إلى الوزير بهاء الدين آق سنا يصف فيها فتح قيسارية الروم من أيدي التتار واستيلاء بيرس على ملكها وخطوبه على تخت بنى ملحوق . (صبح الأعشى ج ١٤ ، ص ١٢٩ - ١٦٥) .

(٢) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٨٥ - ٨٧ حيث ترد روايات المؤرخين حول أسباب وفاته ويعتقد البعض أنه مات مسموما .

شراؤه . ثم اشتراه الأمير ايدكين البغد قنارى فقى فى خدمته إلى أن أخذه
منه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

كذلك يؤثر عن السلطان بيبرس أنه كان حفيف الركاب يقضى
طول أيامه راكباً على الهجن وخيول البريد دائماً على الممالك والقلاع
حتى أنه كان يلعب الكرة (البولو) فى الجمعة يومين ، يوم بمصر ويوم
بدمشق ، وفى ذلك يقول سيف الدولة المهدى بمدحه :

يوما بمصر ويوما بالحجاز ويوما بالشام ويوما فى قرى حطب

ولاشك أن هذا السلطان العظيم استطاع بأعماله واصلاحياته
الواسعة السطاق أن يحول دولة المماليك ، من دولة ناشئة إلى دولة قوية
مدعمة الأركان ، وأن يمهد الطريق لحلفائه من بعده كى يتصروا رسالته ،
ويصلوا إلى الهدف المنشود وهو القضاء على المماليك والصليبيين .

لهذا بعد صيته ، واشتهرت سيرته دونا عن سائر السلاطين لدرجة
أن أحباراً أمتزجت فيها حقائق التاريخ بحيال القصص ، وبذكر على
سبيل المثال تلك الملاحم الشعبية المعروفة بالسيرة الظاهرية أو سيرة الظاهر
بيبرس^(١) التى تصور شخصية بيبرس وكأنها شخصية عصر أكثر مما هي
شخصية إنسان ، إذ تنعكس فيها صورة هذا الوضع الحديد أو هذه النقلة
الجديدة التى تحولت فيها دولة المماليك فى مصر والشام إلى دولة قوية
راسخة الأقدام .

(١) للظاهر بيبرس سبرتان أحدهما للقاصى مجيب الدين بن عبد الظاهر ، والأخرى لمحمد بن
شاد ، وقد أورد ابن القرات نماذج منها فى تربيعة . اجمع (تلوح ابن القرات ج ٧ ص ٨٤ - ٨٨
نشر فسطاطى روى) وتجدد الإشارة هنا إلى سيرة الظاهرية التى كتبها حديثاً للرجوم بوم التوسى

أبناء الظاهر بيبرس

انتهت الحوادث التي تلت وفاة بيبرس انتهاء مملوكيا عاديا اد أقيم في السلطنة على التوالى أبنان له وهما الملك السعيد محمد المدعو بركة خان ثم الملك العادل سلا مش . وفي خلال ذلك وقعت أحداث مختلفة أدت إلى عزلهما وتولية أقوى أمير مملوكى فى ذلك الوقت وهو الأمر سيف الدين قلاوون الصالحى الألفى سلطانا على مصر والشام .

كان الأبن الأول لبيبرس وهو الملك السعيد محمد فى سن تؤهله لأن يملأ منصب السلطنة اد يبلغ من العمر ١٧ سنة . ونشيد المراجع المعاصرة بدمائة خلقه وحسن طباعه وعدم ميله إلى سفك الدماء . ولكن يبدو أن هذه الصفات كانت منها هى عزلم لأنها لم تكن تلائم روح هذا العصر ، فالملك السعيد لم تكن له دراية بمؤامرات المحال ك و دساتهم ، مما اضطره إلى أن يحيط نفسه بحرس خاص من مماليكه وهو ما يعرف فى المصطلح الرسمى المملوكى باسم الحاصكية (حرس خاص) . وبطبيعة الحال تحر الملك السعيد لمماليكه فأعقد عليهم الأموال وأطلق أيديهم فى إدارة شئون الدولة . وة . أثار هذا العمل استياء كبار المماليك ولاسيما الأمراء الصالحية الذين كانوا يرون أنهم أحق بالملك منه ، فكتبوا إليه قاتلين : « أنك أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فاما أن ترجع عما أنت عليه ، وإلا كان لنا ولك شأن آخر » (١) .

وانتهى هذا النزاع بحلج المماليك للملك السعيد بعد حكم دام سنتين ، وأجلسوا مكانه أحاه بنر الدين سلا مش الذى كان طفلا فى السابعة من عمره .

(١) المحقرى : الساوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٤٥ .

وتبغى الإشارة هنا إلى أن بعض أمراء المماليك عرضوا على الأمير سيف الدين قلاوون أقوى شخصية مملوكية فى ذلك الوقت ، أن يتولى السلطة بدلا من سلامش ، ولكن قلاوون رفض هذا العرض وقال :

« أنا لم أنزع الملك السعيد طمعا فى السلطة ، ولكن حفظا للنظام وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر بيبرس »^(١) .

وقد يبدو من عبارة الأمير قلاوون أنه حريص على وحبوب تطبيق المبدأ الوراثى للعرش وذلك بأبقاء منصب السلطة فى بيت بيبرس ، ولكن الحقيقة غير ذلك بالمرّة ، فإن الأمير قلاوون أراد بهذه العبارة المعسولة أن يخفى مطامعه ومشاريعه حتى ليمكن لتفصيله أولا ، ولا أدل على ذلك من أن قلاوون نفسه هو الذى يحلج الابن الثانى لبيبرس وهو سلامش بعد أن تحصل من مساوئيه وصفا له الحو ثم تسلطن من بعده عام ١٢٧٩ م ، وفى ذلك يقول أبو المحاسن وحاف قلاوون من ثورة المماليك الظاهرية عليه لأنهم كانوا يوم ذاك هم معظم عسكر الدبار المصرية .. فلما مهد أمره تسلطن .

ومن الغريب أننا نلاحظ أن قلاوون بالرغم من عدم احترامه لمبدأ الوراثة إلا أنه وأبناءه من بعده قد نجحوا فى تطبيق المبدأ الوراثى مدة طويلة فقد ولى بعده ابنان له وهما الأشرف خليل والناصر محمد ثم تداول أبناء الناصر محمد وأحفاده عرش السلطة المملوكية حتى نهاية دولة المماليك الأولى فى مصر .

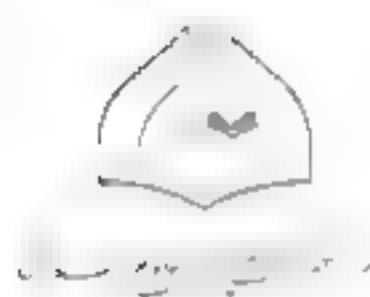
ولكن ليس معنى هذا أن مبدأ التوريث قد لقى قبولا من أمراء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

الممالك واسما الواقع هو أن قلاوون وأولاده من بعده قد استطاعوا أن يقاوموا جميع مؤامرات الممالك ، وأن يتعلموا على محاولاتهم في انتزاع السلطة منهم .

ولما كان عصر الناصر محمد بن قلاوون هو أطول عهد عرف بين سلاطين الممالك ، فإن شخصيته قد توطدت وتأثرت في الدولة وفي عقلية الناس ، فكان من السهل على أبنائه من بعده أن يتداولوا السلطنة فيما بينهم طيلة القرن الرابع عشر الميلادي .





الفصل السابع

دولة بني قلاوون حتى نهاية دولة المماليك الأولى

السلطان المنصور سيف الدين قلاوون

(١٢٧٩-١٢٩٠م - ٦٧٨-٦٨٩هـ)

واسمه بالكامل المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الألفى، ويعتبر من أعظم سلاطين المليك بعد الظاهر بيبرس، كما أنه يشابهه من حيث الأصل، فهو رقيق من بلاد القفجاق، حىء به إلى مصر منذ صغره وبيع للملك الصالح أيوب ولهذا لقب بالصالحى، أما تسميته بالألفى فإشارة إلى خاتمة شرايته بألف دينار وفى ذلك ما يدل على أن هؤلاء السلاطين لم يحجبوا أو يلتفوا من أصلهم الوضع. وقد تدرج قلاوون فى الرقى حتى بلغ مرتبة الأتابك أو نائب السلطنة فى عهد بيبرس ثم فى أيام ولديه السعيد وسلامش.

وفى بداية حكم السلطان قلاوون حدثت بعض الأحداث المعتادة كالتي تحدث دائما فى أوائل عهود معظم سلاطين المماليك، وهى معارضة الأمراء لسلطنته. وقد جرت العادة أن يتخذ أولئك الأمراء المعارضون من حادثة خلع ابن السلطان ذريعة للمعارضة والاحتجاج والدفاع عن مبدأ الوراثة وواجبات الولاء نحو السلطان المتوفى ونحو العهد والمواثيق التى قطعت له بصدد تولية ابنه من بعده. والواقع أن هذه الحركة التى يقوم بها بعض الأمراء كانت لاتخرج عن مجرد الرغبة فى المعارضة

واستغلال الظروف لمصالحهم الشخصية ، فلو أن واحدا من هؤلاء الأمراء المعارضين تمكن من حلع قلاوون والوصول إلى السلطنة لما اخترم مبدأ الوراثة الشرعية ولما راعى حقوق الولاء لابن السلطان المتوفى بالمعارضة هنا مسألة شكلية لتغطية ما بنفوسهم من أطماع وطموح نحو العرش .

والذي حدث فعلا في أوائل أيام السلطان قلاوون ، أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب السلطان في دمشق أعلن نفسه سلطانا على الشام بمجرد سماعه بسلطنة قلاوون وعزل سلاмыш وتلقب بالملك الكامل ، وانضم إليه عدد كبير من المحاليلك الظاهرية كما قام إلى جانبه سليل أبوي وهو صاحب حماة ، كذلك شيوخ القبائل العربية المقيمة على حدود الشام والعراق .

وانتقد استطاع قلاوون (القضاء على) هذا الحلف في واقعة الجسورة بالقرب من دمشق في يوليوسنة ٦٨٠م وفر سنقر إلى قلعة بالحدود الشامية تسمى صهيون يتما استولى السلطان قلاوون على دمشق وعفا عن أهلها الذين كانوا قد انضموا إلى سنقر وبذكر من يسهم قاضي المدينة شمس الدين بن حلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان وكان قد أفتى بصحة سلطنة سنقر (١) .

أخذ السلطان قلاوون بعد ذلك يسير على سياسة يبرس نحو الخطرين الرئيسيين المحيطين بدولة المحاليلك وهما الممولى والصليبيون .

وكان الخطر المغولي هو الخطر الأكبر ، فإنه مهما قيل عن الصليبيين وقوتهم فلا يجب أن ننسى أن الصليبيين قد تضاءلت قوتهم منذ أن تضاءلت الامدادات الواردة إليهم من أوروبا .

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٦٢٦ - ٦٨٧ .

ورأى قلاوون مهادنة الصليبيين مؤقتا وتركيز قواه ضد المغول فالفترة التي بين ١٢٨١ إلى ١٢٨٢ كانت فترة معاهدات مع القوى الصليبية الباقية في الشام وهي :

- (١) مملكة بيت المقدس الوهمية ومركزها عكا (وملكها في ذلك الوقت شارل أنجو Anjou وتولى نائبه Odo مفاوضة السلطان في الهدنة)
- (٢) هيئة الفرسان الاستتارية ومركزها حصن المرقب جنوب اللاذقية .
- (٣) هيئة الفرسان الدواية ومركزها في طرسوس .
- (٤) إمارة طرابلس وبها الساقية للأمرء الورمان وأميرها في ذلك الوقت بوهمند السابع .

وبمقتضى هذه المعاهدات تفررت الهدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات^(١).

وعلى الرغم من أن قلاوون كان هو الساعي بعقد تلك للمهادنات فإن معظم شروطها كان في صالحه وهي صالح الدولة المملوكية ومثال ذلك تعهد القوى الصليبية بعدم بناء أسوار وقلاع جديدة والسماح للسفن الإسلامية بالحرية التامة في الموانئ الصليبية وهذا يدل على أن الصليبيين كانوا يأملون من وراء تلك المعاهدات المحافظة على كياناتهم فقط .

حروب قلاوون مع ايلخانات فارس :

قلنا أن مغول فارس استمرت انظارهم متجهة نحو احتلال مصر والشام والانتقام لهزيمة عين جالوت (لانزال هذه القرية موجودة باسم جالود من قضاء نابلس ولايتجاور عدد سكانها عن مائة وخمسين نفسا - التجوم ج ٨ ص ٥٦ حاشية) .

(١) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٢٢

ولقد انتهز ملكهم أباقا أو أبنا بن هولاكو ما حدث في الدولة المملوكية من انقسام واضطراب بسبب ثورة نائب دمشق سنقر الأشقر ضد قلاوون ، فأخذ يعد العدة من جديد لغزو الأراضى الشامية والمصرية معتقدا بأن سنقر سوف يعمل على مساعدته وتأييده في هذا الغزو . وكان سنقر قد راسل المغول ووعدهم بالمساعدة ضد سلطان مصر ولكنه عاد أخيرا وعدل عن موقفه حينما راسله أحواته ممالك مصر قائلين :

«وهذا العدو قد دهمنا وما سبه إلا الحلف يتنا وما ينبغي هلاك الإسلام» .

وكانت النتيجة أن انضم سنقر إلى قلاوون وعادت وحدة المماليك من جديد ، وهذه شيمتهم دائما أبان الأخطار والأزمات .

عبرت الجيوش المغولية نهر الفرات بقيادة منكوتمر بن هولاكو (أخو أباقا) واستولت على حلب ، وتقدم قلاوون بجيوشه حتى التقى بالمغول بالقرب من مدينة حمص عند قصر تحالد ابن الوليد . وهناك دارت معركة كبيرة سنة ١٢٨١ انتهت بهزيمة التتار وانسحابهم إلى بواحي الفرات ، وأراد قلاوون أن يقضى عليهم قصاء ميرما فأرسل بطريق الحمام الزاجل إلى عماله وقواده عند الحدود الفراتية للوقوف في وجه التتار الهاربين ، كما أمر بأن تضرم النار بالأجمة والحشائش الذى على الفرات فاحترق من المغول حلق كبير ، وعاد منكوتمر جريحا حزينا إلى بغداد حيث ويخه أخوه أباقا بقوله ، لم لامت أنت والجيش ولا أبهزمت^(١) .

والواقع أن واقعة حمص هذه كان لها أثر كبير في تاريخ العلاقات بين المغول والمماليك إذ نجم عنها هدنة طويلة الأمد وأيقن المغول أنه لا قبل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ .

لهم بالممالك ولو إلى حين .

هذا وقد جاء هذا النصر في وقت كانت فيه حركة الاتصال بين المغول والصليبيين لتكوين جبهة متحدة ضد مصر ، تسير سيرا حسنا ، فلما قضى قلاوون على الخطر المغولي في وقعه حمص زالت معه قيمة ذلك الحلف الصليبي المغولي .

ثم حدث أن توفي أباقا حان سنة ١٢٨٢ م ، أي في العام التالي للهزيمة ، وخلفه على السلطنة المغولية أخوه تكودار الذي كان قد اعتنق الإسلام قبل سلطته وسمى نفسه تكودار أحمد سلطان . ويستتبع من هذا أن المحاولات التي قام بها المسيحيون لتصير المغول والتحالف معهم ، كان يصاحبها أيضا حركة تبشيرية من جانب المسلمين لنشر الإسلام بين المغول .

على أن انتشار الإسلام بين مغول فارس ولو بصفة مبدئية لم يكن معناه زوال ما بين الدولتين المغولية والمملوكية من عداوة ومشاكل سياسية . كما أن وجود سلطان مسلم على العرش المغولي لم يحل دون الاستمرار في السياسة العدائية نحو مصر على اعتبار أن هذه السياسة كانت تعد أساسا تقليديا للمحافظة على مصالح وأطماع دولة مغول فارس ، والرسائل العدائية التي أرسلها تكودار أحمد إلى السلطان قلاوون تدل على ذلك (القلقشندي ج ٨ ص ٦٥ - ٦٨) .

على أن السلطان أحمد لم يستطع القيام بأي نشاط عسكري في خارج مملكته بسبب الاضطرابات الداخلية التي عمت بلاده ، ولهذا كانت سياسته نحو مصر سياسة سلمية هادئة .

غير أن هذه السياسة السلمية التي سلكها السلطان أحمد مع المصريين والشاميين جعلت أمراء المغول يتهمونه بالتهاون مع المسلمين بسبب إسلامه فثاروا وانتهى الأمر بقتله وتولية ابن أخيه المسمى أرغون بن أباقا سنة ١٢٨٤ م . على أن أرغون لم يستطع هو الآخر القيام بأى عمل خطير ضد مصر والشام طوال عهد قلاوون .

هذا من ناحية مغول فارس ، أما من ناحية مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية ، فإن السلطان قلاوون حافظ على العلاقات والصلات الودية القديمة التي تربط بلاده بهذه الدولة المغولية الشمالية .

حروب قلاوون مع الصليبيين :

بعد أن انتهى السلطان قلاوون من الخطر المغولى بانتصاره المعروف فى واقعة حمص ، انقلب إلى حرب الصليبيين ، ولم يلتفت إلى المعاهدات والمهادنات التى أبرمها معهم بل شن هجوما فجائيا على مركز الفرسان الاستتارية وهى قلعة المرقب جنوبى اللاذقية وذلك فى عام ١٢٨٥ م . ولم يستطع الفرسان الاستتارية مقاومة هذا الهجوم فسلموا حصنهم بعد حصار دام شهرا وانتقلت دولتهم إلى عكا وطرابلس .

وخافت الإمارات الصليبية الأخرى أن يكون مصيرها ممثلا فهرع بومهد السابع صاحب إمارة طرابلس إلى مهادنة قلاوون مقدما له بعض الحصون والأموال لترضيته ، وفعلت مثله إمارة صور ودولة أرمينيا الصغرى وكل هذا أن دل على شئء فإنما يدل على مقدار ما شعرت به تلك الإمارات الصليبية من خطر تجاه قلاوون .

وفى عام ١٢٨٧ م أى بعد سنتين من سقوط حصن المرقب ،

أستولى قلاوون على مدينة اللادقية التابعة لأماره طرابلس . وقد برر قلاوون هجومه هذا بوفاة بوهمند السابع على اعتار أن هذه الوفاة تعفيه من التمسك بشروط الهدنة . كما تنص على ذلك المعاهدة التي أبرمت بينهما .

ولم يقتصر قلاوون على ذلك بل حاصر مدينة طرابلس نفسها واستولى عليها سنة ١٢٨٩م (٦٨٨ هـ) فيروي المؤرخون أنه طبق عليها بجيوشه ومجانيقه من جهة البر لدرجة أن الكثيرين من سكانها الصليبيين فروا من ناحية البحر على ظهر السفن إلى جزيرة قريبة من الساحل تعرف بجزيرة القديس يقولون ، ولكن الماليك لحقوا بهم وقتلواهم عن آخرهم . ويذكر المؤرخ المعاصر أبو الفداء أنه ركب سفينة من طرابلس إلى هذه الجزيرة بعد أن فرغ الناس من تهريبها ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من رائحة حيف القتلى ^(١) كذلك يلاحظ أن السلطان قلاوون أمر بهدم مدينة طرابلس وأقام مكانها عددا من الأبراج على طول الساحل حول الميناء ونقل مدينة طرابلس إلى سفح الجبل في الداخل بعيدا عن الشاطئء حول قلعة صنجيل (سان جيل) خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية ^(٢) هذا وفي الوقت نفسه رفع قلاوون من شأن طرابلس فجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب للسلطان بمرسوم سلطاني . وكان من أهم اختصاصاته شد البحر وشد الشواني (أي الأشراف على البحر واعداد السفن) بمواني نيابته وهي طرابلس واللاقية وأنطربطوس وجبيل (جوبله)

ويبدو أن أماره عكا قد أحست بياس موقفها تجاه التوسع المصري وخصوصا بعد أن فقدت الأمل في مجيء حملة صليبية تساعد على

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٠ .

(٢) الأمير صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢ .

البقاء ، ولهذا رأت أن تلجأ إلى خطة دفاعية يائسة وجريئة في نفس الوقت وهي أن تبدأ هي بالهجوم وتقتض ما بينها وبين قلاوون من هدنة، معتمدة في ذلك على مناعة حصونها وكثرة ما لديها من مال وسلاح وقد بدأت فعلا في تنفيذ خطتها بالأعتداء على تجار الساحل وقوافلهم المارة من هناك. وقد رأى قلاوون من هذه الحركة مبررا كافيا لإعلان الحرب على عكا وشرع في أعداد العدة للزحف عليها ولكنه مات قبل أن يحقق مشروعه في أواخر عام ١٢٩٠م (٦٨٩هـ) وهو في سن السبعين .

مما تقدم نرى أن سياسة قلاوون الخارجية كانت استمرارا لسياسة سلفه بيرس نحو الممولى والصليبيين وقد عرف قلاوون كيف يملأ هذا الفراغ الذي تركه بيرس بكل حذارة واستحقاق .



سياسة قلاوون الداخلية

بخصوص سياسة قلاوون الداخلية نرى أنه اهتم مثل سلفه بيرس بتسليم الجيش المملوكي فيستكثر من شراء صغار المماليك من أهالي البلاد الشمالية مثل أرميا والقوقار ، ومنه حريزة القرم والقفجاق ويقال إن عددهم بلغ ما يقرب من الأربعة آلاف مملوك .

وحصص قلاوون لهذه الفرقة المملوكية الجديدة أبراج القلعة ولذا سموها بالبرحية واعتنى قلاوون بتربيتهم وأعدادهم أعدادا عسكريا اسلاميا كما اعتنى بملابسهم وهندامهم ويقال إنه أحدث تغييرا في شكل بعض ملابسهم بحيث صار مختلفا عن شكل ملابس المماليك البحرية ، كذلك أحدث تغييرا في طريقة حركاتهم العسكرية ولاسيما في طريقة اللعب بالرمح فصار المماليك يقومون بحركات متنوعة في هذا الفن

تختلف عن ذى قبل .

ويروى المقرئى أن قلاوون كان يخرج دائما فى ميعاد حضور الطعام للممالك ويأمر بعرض هذا الطعام عليه ليختره بنفسه فإذا رأى فيه عيبا اشتد على الاستادار وهو المشرف على القصور السلطانية كلها) وأنزل به العقاب الرادع .

وكان يقول . كل الملوك عملوا أشياء يذكرون بها ما بين مال وعقار وأنا عمريت أسوارا وعملت حصونا مائة لى ولأولادى وللمسلمين وهم الممالك (خطط ج ٢ ص ٢١٣ بولاق) .

ولقد بقيت هذه الفئة المملوكية الحديدية وحدة متماسكة حتى بعد وفاة قلاوون ، وكان لها أثر كبير فى توجيه سياسة الدولة حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى حيثما استطاع أولئك السرجية أنفسهم انتزاع السلطة من أسرة قلاوون وتأسيس دولة مملوكية جديدة فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى على يد الظاهر برقوق .

الأعمال الأبنائية أو العمرانية التى قام بها الملك المصور قلاوون عديدة ولائزال بقاياها موجودة إلى يومنا هذا بشاع النحاسين (المعز لدين الله) بالقاهرة ومن أهم تلك المنشآت قبة قلاوون المدفون بها ومدرسته ثم البيمارستان المصورى الذى يعرف الآن بمستشفى قلاوون . والأبنية الثلاث ملحقات فى بناء واحد ، والبيمارستان لفظ فارسى مركب من يمار أى مريض وستان يعنى مكان أى المكان الذى يحل به المرضى على اختلاف أنواعهم ثم تطورت هذه الكلمة واقتضرت على المكان المعد لإقامة المجانين فقط ومنها الكلمة العامية المورستان (راجع كتاب تاريخ

اليماوستانا في الإسلام لأحمد عيسى ص ٩٢ .

ولم يكن مستشفى قلاوون هو أول مستشفى بنى في مصر فقد شاهدت مصر أنواعا من المارستانات أيام الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، فمن المعروف أن أحمد ابن طولون بنى مارستانا لمعالجة المرضى والحق به صيدلية لصرف الأدوية وقد سعى فيما بعد بالمارستان العتيق تمييزا له عن المارستانات الأخرى التي بنيت بعد ذلك .

ثم هناك المارستان المنسوب لكافور الأحشدي ، وفي أيام الخلافة الفاطمية نسمع عن خزانة الأشرية وكانت كالعيادة الخارجية في المستشفيات الحديثة وقد حولها صلاح الدين مارستانا للأمراض وروى الرحالة من جبر الأندلسي أن أبى منصور مارستانا لصلاح الدين أحدهما بالقاهرة والثاني بالأسكندرية .

هذا وينبغى أن نشير كذلك إلى المارستان النورى بدمشق الذي بناه السلطان نور الدين محمود زكى الدين شأ صلاح الدين في بلاطه .

ويقال أن هذا المستشفى النورى بول فيه قلاوون بقصد العلاج أثناء حروبه بالشام وأنه نذر بأن ينشئ مثله في القاهرة إذا أبل من مرضه وكانت النتيجة أنه بنى مارستانه الذي تم في ١٢٨٤ م (٦٨٣ هـ) . والواقع أن مستشفى قلاوون بلغ القمة في أعظمته الدقيقة كالتى نراها في مستشفيات الوقت الحاضر فقد كان مقسما إلى عدة أقسام خصص كل قسم منها لنوع من الأمراض مثل الحميات والرمم وأمراض النساء ، لدوستاريا والمسرورين (المجاسين) وهكذا . وكانت به قاعة

للمحاضرات يحاضر فيها الأساتذة فى فنون الطب المعروفة فى ذلك الوقت . كما ألحق به معمل كيمائى معد بكافة الأنواع للأجهزة الطبية المعروفة فى ذلك الوقت . فهو لهذا يعتبر النواة الأولى لدراسة الطب فى مصر ، هذا ولم يكن لهذا المستشفى أى صبغة دينية أو طبقية خاصة فقد كانت أبوابه مفتوحة لجميع المذاهب والطقات .

ولدينا وصف لهذا المارستان كتبه مؤرخ معاصر بل وموظف من موظفى ذلك المارستان ، وهو المؤرخ المعروف النويرى المتوفى سنة ١٣٣٢م ولهذا جاء وصفه على جانب كبير من الأهمية فضلا عن أنه يلقى ضؤا على بعض النواحي الإجتماعية فى ذلك العصر . (هنا الوصف جاء فى كتابه نهاية الأرب فى فنون الأدب وقد نقله الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زياده فى نهاية الحراء (الأول من) كتاب السلوك للمقرئى (جـ ١ ص ٩٩٧) .

أما الساحة الاقتصادية فقد اهتم بها فلاوون اهتماما كبيرا اد عمل على توسيع نطاق الأفق التجارى للدولة المملوكية ، وقد ساعده على ذلك موقع مصر الجغرافى بين الشرق والغرب مما جعلها تلعب دورا هاما فى الحركة الدولية التجارية ، وفى هذا المجال عقد فلاوون المحالفات مع الدول الأوربية مثل الأمبراطورية البيزنطية وفرنسا ومملكتى قشتالة وأراجون باسبانيا ومملكة صقلية وكانت تابعة لأراجون والجمهوريات الإيطالية مثل جنوا وبيزا والبندقية . وكانت مصر تفرض على البضائع المارة بشغورها ضريبة تقدر عادة بخمس قيمتها وتعرف بصريبة الخمس .

كذلك استغل فلاوون فرصة أمن الملاحة فى البحر الأحمر بعد أن

زال عنها الخطر الصليبي وعمل جاهدا على اجتذاب التجار من الأسيوية إلى مصر ، ويشهد على ذلك المشور الرسمي الذي أذاعه السلطان قلاوون على التجار الراقدين على بلاده من الصين والهند والسند واليمن والعراق ، يؤكد لهم فيه الحماية والرعاية على أنفسهم وأموالهم عندما يقيمون في بلاده وهو مرسوم جميل يذكرنا بالدعاية السياحية في الوقت الحاضر ، اذ يقول فيه :

« ومن يؤثر الورود إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أنهارها ، فليعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة . ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى مسيرة ولا ذخيرة ، لأنها في الدنيا حة عدن لمن فطن ، ومسلاة لمن تعب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر . والمقيم بها في ربيع دائم ، وحير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه . فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين بالصين والهند والصين والسند وغيرهم ، فليأخذ الأمانة في الأرتحال اليها ، والقدم عليها ، ليجد الفعل من المقال أكبر ، ويرى احسانا يتقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها في بلدة طيبة ، وفي سلامة في النفس والمال ، وسعادة تصول الآمال ، ولهم منا كل ما يؤثرونه . . . (القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤٢) .

السلطان الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٢م) (٦٨٩ - ٦٩٢هـ) حاول قلاوون كما حاول بيبرس من قبل اقامة أحد أبنائه في ولاية العهد أثناء حياته فاختر ابنه الأكبر علاء الدين ولقبه بالملك الصالح ١٢٨٠م وأتابه عنه في حكم مصر أثناء غيابه في حروب المغول

والصليبيين ، غير أن ولي العهد هذا توفي في حياة أبيه سنة ١٢٨٨ ويقال أن أخاه الأشرف خليل وهو الابن الثاني للسلطان قلاوون هو الذي قتله بأن دس له السم لكي تؤول إليه ولاية العهد من بعده . وكيفما كان الأمر في صحة الرواية فالمهم هنا أن السلطان قلاوون كان يشك في كفاية ابنه خليل هذا وأهليته للحكم ويقال أنه ظل ممتعا عن التوقيع على التقليد الخاص بمبايعة خليل بولاية العهد إلى أن مات ويؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد : أنا ما أؤلى خليلا على المسلمين ^(١)

على أن خليل رغم ذلك تسلط بمعدوفاة أبيه في أواخر سنة ١٢٩٠ وكان أول عمل قام به هو الانتقام من رجال أبيه ومصادرة أموالهم وقد أبدى من صنوف والقسوة ما حقق محاروف أبيه غير أنه إلى جانب عيوبه هذه كان رجلا شجاعا ومحاربا ممتازا وقد سار منذ أول حكمه على سياسة أسلافه نحو الصليبيين ، تلك السياسة التقليدية التي كانت تهدف دائما إلى اخراج الصليبيين من الشام . وكانت إمارة عكا في ذلك الوقت هي البقية الباقية من دولة الصليبيين بالشام .

حاصر السلطان خليل مدينة عكا في ربيع عام ١٢٩١ وهنا تشيد المراجع المعاصرة بقوة استعداده وكفاية آلات الحصار التي أقامها حول أسوارها والتي بلغت على ما يقال نحو ٩٢ منجنيقا .

والواقع أن مدينة عكا كانت تمتاز بسمعتها الدفاعية المشرفة منذ حروب صلاح الدين وقد اهتم الصليبيون منذ أيامهم الأولى بتحصين أسوارها حتى صار يضرب بها المثل في مناعة حصونها ، والسبب في هذا

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٥٠ .

الأهتمام يرجع إلى أن عكا كانت تعد مفذاً أساسياً من المنافذ الساحلية للدولة الصليبية لبيت المقدس .

ولما سقطت المدن الصليبية المختلفة في أيدي انصارين أيام بيبرس وقلاوون صارت عكا ملجأ لجميع العناصر الصليبية التي هاجرت إليها من تلك المدن سواء أكانوا من الاستنارية أو الداوية أو من أمانة طرابلس وغيرها .

وكان من المتظر أن يكون ذلك التركيز للعناصر الصليبية سبباً في أن تزداد مدينة عكا قوة فوق قوة حصونها ولكن الحقيقة جاءت على عكس ذلك لأن هذه العناصر المختلفة عملت على أن تعيش كداليات مستقلة بشؤونها ولها حكوماتها الخاصة بها ، وعلى هذا الأساس صارت عكا في أواخر أيامها أى في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة المتنافضة المصالح بعضها بعدا ، باسم ملك فرنسا والعص الآخر باسم ملك إنجلترا والبعض الثالث باسم ملك بيت المقدس المقيم في قبرص هذا إلى جانب التنافس التقليدي القديم بين الاستنارية والداوية الذي استمرت نيرانه من جديد في ميادين عكا. ولهذا كان من العسير جداً أن توجد بعكا قيادة موحدة لتعمل على توحيد وتوجيه هذه القوى المتعددة نحو هدف واحد .

لهذا لم تستفد عكا من مناعة حصونها أو من النجيدات التي وصلت إليها من قبرص (وكانت قبرص في ذلك الوقت يحكمها ملوك اسرة لوزحتان الذين سموا أنفسهم ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية) .

وفي يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ) دخل

المسلمون مدينة عكا عوة بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوما ، فتحوّلت المقاومة إلى القلاع والإبراج وقد كان من المنتظر أن تستمر هذه القلاع في المقاومة مدة طويلة لولا أن بعض أهالي المدينة هرعوا إليها للاحتماء بها فتسبب عن ذلك حدوث هرح في ثلث المناطق الدفاعية وصار من الصعب تنظيم مقاومة طويلة الأمد . هذا وفي الوقت نفسه شرع معظم الأهالي إلى ميناء المدينة وتكتلوا على ظهر السفن الراسية هناك بعبء الهروب إلى قبرص أو إلى أي مكان أحر وقد نسب عن ذلك الرحام الشديد عرق بعض المراكب وحدث اضطراب في جميع أحياء الميناء التي كان يجب أن تظل مفتوحة لامتداد المدينة بوسائل المقاومة من معدات وأغذية وحلأه .

ويلاحظ أن من بين هؤلاء الهاربين كان الملك هنري الثاني ملك قبرص وبيت المقدس الذي أسرع إلى مملكته بحريرة قبرص ولحق به عدد كبير من الزعماء وفرسان الاستاريج

على أنه رغم ذلك بقي بقلاع المدينة عدد كبير من المدافعين ولا سيما فرسان الداوية الذين ظلوا يقامون الهجوم المصري حتى هلكوا عن آخرهم بعد أن أحرقت المدينة ودمرت تماما سنة ١٢٩١م / ٦٩٠ هـ .

وهكذا سقطت أحر المعاقل الصليبية في الشرق وقد تلى ذلك سقوط المرافئ الصليبية القليلة الباقية مثل صور وصيدا وحيفا وبيروت وقد سلمت جميعها دون مقاومة ما عدا بيروت التي حاولت المقاومة فكان نصيبها التدمير وذبح سكانها (١) .

وهكذا ينتهي الفصل الختامي من تاريخ الحروب الصليبية في الشام وقد وصف المؤرخ الانجليزي ادوارد جيبون Gibbon هذه الحالة بقوله .

(١) أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ص ٨ من ٨ وما بعدها

« وخيم السكون على امتداد الساحل الذى ظل رمنا طويلا ميدانا نسمع ف
حليل سيف التضا » (١) .

وهنا ينبغي أن نشير فى هذا الصدد إلى أن مصر طوال هذه الحروب
الصليبية قد قامت بدور ايجابي فعال كانت فيه محور المقاومة الإسلامية
حتى تم على يديها أخيرا سقوط عكا وإخراج الصليبيين من الشام .
ولاشك أن هذا الانتصار الكبير قد أكسب السلطان خليل ودولة
المماليك مجدا وعظما من جميع أنحاء العالم الإسلامى .

وقد انتهز السلطان خليل هذا الحماس المتدفق الذى أوحده سقوط
عكا بين صفوف المسلمين وحاول أن يستعمله فى محاربة الخطر الثانى
وهو الخطر المغولى ، فأمر الخليفة (واسمه) وقتئذ الحاكم بأمر الله) أن
يعلن الجهاد العام على المايرلستم حرج السلطان بجيوشه نحو الحدود
القراتية فاستولى على قلعة الروم من أيدي التتار وعير اسمها بقلعة
المسلمين ثم أعلن على الملأ عزمه على طرد المغول من العراق وإرجاعهم
إلى مواطنهم الأصلية .

ويبدو أن سلطان مغول فارس أراد السحرية من هذه الدعايات التى
يقوم بها الأشرف خليل ضد المغول فأرسل إليه خطا يطلب منه
تسليم مدينة حلب للإقامة بها كما كان يفعل ابلخانات فارس من
قبل . فرد عليه السلطان خليل بخطاب مثله مطالبا هو الآخر بتسليم
بغداد للإقامة بها أيضا ونقل الخلافة العباسية إليها .

على أن هذه المظاهرات الحربية التى قامت بين دولتى المغول

والمماليك لم تقتله إلى شيء ايجابي وذلك بسبب وفاة الأشرف خليل قتيلا
على يد نائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا وذلك أثناء خروجه للصيد
عام ١٢٩٣ م وهنا يذكرنا بمأساة قطر مع يبرس حينما قتله هذا الأخير
سنة ١٢٦٠ م ولكن مع فارق واحد هو أن يبرس اعتلى عرش مصر بعد
ذلك أما بيدرا فإنه وقع فريسة في أيدي مماليك الأشرف الذين قتلوه
شر قتلة (١).

(١) المقرئى : الملوك جـ ١ ص ٧٧٨ .

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

(٦٩٣ - ٧٤١ هـ - ١٢٩٣ - ١٣٤٠ م)

ولى السلطنة بعد وفاة أخيه الأشرف خليل ، وكان لا يزال طفلا فى التاسعة من عمره ، وقد لقب بالسلطان الناصر محمد .

ولا يفهم من هذا التعيين أن أمراء المماليك أقاموا ابن استاذهم قلاوون احتراماً لمبدأ الوراثة ، فالمماليك طوال تاريخهم لم يعترفوا بهذا المسأ وأن كانوا هم بعض الأحيان قد تظاهروا باحترامه تغطية لمطامعهم ، وكل ما فى الأمر أن أمراء المماليك بعد مقتل الأشرف خليل ، لم يجدوا من بينهم أميراً قويا يفرض شخصيته عليهم ويرتضون به سلطانا . ولهذا أقاموا هذا الطفل مؤقتا إلى أن استقر أمرهم على واحد منهم وكانت نتيجة هذا العمل أن عزل السلطان الناصر محمد مرتين بواسطة هؤلاء الأمراء الطامعين .

سلطنة الناصر الأولى ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م (٦٩٣ - ٦٩٤ هـ) :

حكم فيها لمدة عام واحد ثم عزل ونفى إلى حصن الكرك جنوبى الأردن سنة ١٢٩٤ م . وكان المعتصب هو نائب سلطنته واحد مماليك أيه وهو الأمير حسام الدين لاجين المصورى . وقد ظل السلطان لاجين يحكم مصر والشام مدة أربع سنوات قام خلالها بعدة أعمال اصلاحية أهمها تجديد عمارة مسجد ابن طولود ومشدنة ورمع الكثير من المكوس (الضرائب) عن كاهل الشعب مما جعله محبوبا من الناس ، غير أن لاجين مع ذلك لم يستطع إرضاء جميع أمراء المماليك خصوصا بعد إعادة مسح وتوزيع الاقطاعات والأراضي الزراعية لتقدير الحراج المستحق عليها وهو مما يعرف بالروك الحسامى ، كما انتشرت الوساطات والمحسوبيات على أيامه مما أثار حقد الأمراء عليه فقتلوه واستدعوا الناصر محمد ثانية سنة ١٢٩٨ م .

سلطنة الناصر الثانية ١٢٩٨ - ١٣٠٨ م (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ) :

استمرت سلطنة الناصر الثانية مدة عشر سنوات تقريبا ، ظل فيها نفوذ الأمراء قويا ، ولم يستطيع السلطان الشاب أن يسيطر على الموقف لهفر منه ، فوقف حائرا امام المنافسة الشديدة التي قامت بين اثنين من كبار الأمراء وهما الأمير بيبرس الجاشنكير^(١) والأمير سلار . وقد لقي السلطان منها الكثير من أنواع الأساءة والتضييق المالى ، فيروى على سبيل المثال أنه طلب من الأمير بيبرس الجاشنكير حروفا مشوها وحلوى باللوز فرفض أن يجبه إلى طلبه ، واضطر الناصر آخر الأمر أن يعتزل العرش وأن يغادر البلاد إلى حصن الكرك بعيدا عن السياسة ومؤامرات المحاليل . وتروى المصادر أن عددا كبيرا من الأهالى خرجوا لسوداعه وهم يكون على فراقه .

وانتهز الجاشنكير فرصة رحيل السلطان وأعتصب العرش لنفسه ملقبا نفسه بالسلطان المعظم ركن الدين بيبرس ، أما الأمير سلار فإنه قبل بأن يظل نائبا للسلطنة واستمر الأمر على هذا الوضع مدة واحدة ثار بعدها الأهالى والأمراء ، وصاروا يهتفون فى الطريقتان : يا ناصر يا منصور ، الله ييخون من ييخون ابن قلاوون ،^(٢) واسهى الأمر بعودة الناصر محمد إلى عرشه فى احتفال شعبى كبير سنة ١٣٠٩ م . ولم يتردد الناصر فى هذه المرة من الانتقام من كل من بيبرس وسلار ، فأما الأول جوعا حتى أنه أكل أحد أصابعه ، كما أعدم الثانى شنقا .

(١) الجاشنكير هو الأمير الذى يتلوق الطعام قبل السلطان خوفا من أن يذس له فيه السم

(٢) ابو المحاسن : انجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٣

سلطنة الناصر الثالثة ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) :

هذه الفترة الثالثة من حكم الناصر محمد تعتبر بحق سلطنته الحقيقية وقد امتدت حتى وفاته . وإذا نظرنا إلى مدة هذه الفترات الثلاث التي حكم فيها الناصر محمد وجدنا أن عهده يعتبر أطول عهود سلاطين المماليك (حوالي ٤٣ سنة) .

ولاشك أن السلطان الناصر محمد قد استفاد من الحوادث السابقة بتجارب متنوعة عرفته بأحلاق المماليك ومؤامراتهم وكيفية معاملتهم . كما أن سنة في ذلك على الوقت قد بلغ مرحلة الضع إذ بلغ الحامسة والعشرين وقد ساعدة ذلك تثبيت قدمه في الحكم وتركيز الإدارة في يده .

ولقد سار السلطان الناصر محمد على سياسة أسلافه نحو المشاكل الرئيسية التي أحاطت بمملكته وهي المشاكل الصليبية والمغول . ومن المعروف أن هذه المشاكل قد تطورت تطوراً كبيراً في صالح المسلمين في ذلك الوقت نظراً لجلاء الصليبيين عن الشام نهائياً وضعف الحماس الصليبي في أوروبا . كما أن دولة المغول فارس قد أخذت في الضعف هي الأخرى نتيجة للحروب التي خاضتها مع المماليك من جهة ومع مغول القفجاق من جهة أخرى . سياسة الناصر محمد مع المغول .

حينما دب النزاع بين أمراء المماليك في آخر أيام السلطان لاجين (الذي اعتصب عرش الناصر محمد) لجأ بعضهم إلى خان المغول واسمه عاران أو قازان محمد بن أرغون . وكان قد اعتنق الإسلام على المذهب الشيعي ، فشرحوا له سوء الأحوال في مصر والشام وحرصوه على غزو تلك البلاد . وراق لعاران أن يقوم بالدور الذي قام به أجداده من

قبل وأن يحقق المشروع الذي فشلوا في تحقيقه وهو القضاء على دولة المماليك والإستيلاء على مصر والشام .

ثم عبر غازان نهر الفرات متجها إلى الشام ، فخرج السلطان الناصر محمد لملاقاته وكان قد عاد إلى ملكه في ولايته الثانية بعد مقتل لاجين . وجرت المعركة بين الفريقين عند وادي الخازندار بين حماة وحمص وذلك في سبتمبر ١٢٩٩م (٦٩٨هـ) وفي هذه الموقعة هزم الجيش المصري وهرب كبار قواده وبقي السلطان الشاب يركب في مكانه ولم يقدّمه من الموت سوى توقف المعول من مطاردة المماليك خوفا من أن يكونوا قد أعدوا لهم كمينا جريا على عاداتهم في الحروب .

وانسحب الناصر محمد إلى بطرك ومنها إلى مصر ، أما غازان فقد سطع بعوده على شمال الشام ثم واصل زحفه إلى دمشق واشترى عليها (١) .

غير أن أمراء المماليك لم يستسلموا لهذه الهزيمة بل عادوا إلى التكتل ثانية بالقاهرة ثم خرجت جموعهم إلى الشام لأخذ الثأر من المعول . ولما علم غازان باقتراب جيوشهم من دمشق انسحب منها بجنوده تاركا المدينة في حماية من انصم اليه من أمراء المماليك . وقد ظن أنه بهذه الوسيلة يستطيع أن ينشط المماليك إلى حربين متلوتين بمصر كل منهما الآخر .

غير أن الذي حدث كان على عكس ما توقعه غازان ، إذ أن هؤلاء المماليك الذين سبق أن أعلنوا له الولاء من قبل عادوا ثانية وانضموا إلى جيوش اخوانهم المماليك القادمين إلى الشام . وهذه الطاهرة - ظاهرة التكتل - نلاحظها بكثرة في تاريخ المماليك ابان الأزمات التي هددت

(١) معضل بن أبي الفضائل كتاب السبع السديد من ٦٢٥ - ٦٤٤ نشر بولنبي

كياتهم . وهكذا زال سلطان المغول عن الشام وعادت الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطنة الناصر محمد .

ولقد فوجيء غازان بهذه النتيجة التي لم يكن يتوقعها ، وفكر في إرسال حملة جديدة نحو الأراضي الشامية ، غير أن قيام ثورات داخلية في بلاده أجبرته على تأجيل هذا المشروع بعضا من الوقت . وقد حاول غازان أن يشبط عزائم المصريين بمقد صلح معهم ، غير أن أمراء المماليك فطنوا لخديعته فرفضوا هذا الصلح وعملوا على الاستفادة من هذا التأجيل في تقوية صفوفهم وتوحيد كلمتهم .

وفي عام ١٣٠٣م (٧٠٢هـ) أرسل غازان جيوشه نحو البلاد الشامية بقيادة قائده قطلوشاه ، فخرج السلطان الناصر محمد بجيشه لملاقاته . وتقابل الفريقان عند مرج الصفر جنوبي دمشق في شهر رمضان ، وكان النصر الهائي للمصريين ، وإرقت دماء كثيرة في المعركة إلى الفرات بعد أن فقدت ما يقرب من عشرة آلاف جندي بين قتيل وأسير (١) .

وغضب غازان لهذه الهزيمة عصبا شديدا وانزل بقواده عقوبات صارمه ، ولم يلبث هو الآخر أن مات كمدا في السنة التالية ١٣٠٤م ولما يبلغ من العمر الثانية والثلاثين ، وهذه هي المرة الرابعة على الأقل التي استطاع فيها المصريون الانتصار على أئمة وأخطر عدو عرفوه منذ الفتح الإسلامي .

على أن المهم هنا هو أن هذا الانتصار الأخير على المغول يعتبر الحلقة الأخيرة في سلسلة الوقائع الكبرى التي دارت بين الدولتين الأيلخانية المغولية والمملوكية ، ذلك لأن العلاقات بين هاتين الدولتين قد

(١) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٤٩ ويلاحظ أن أبا الفداء حضر هذه الموقعة بنفسه .

أحدث محسن عد ذلك ، «مقدم صريح بين الناصر محمد وإيلخان مغول فارس الجديد أبي سعيد كما أخذ الإسلام ينتشر بين أفراد الدولة ملوكا وشعبا ويمكن القول بأن الحصر المغولي بعد موقعة مرج الصفر قد زال نهائيا عن مصر وانحسار حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادي عندما عاود الظهور من جديد على يد القائد المغولي تيمورلنك .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الصلح الذي أبرم بين دولتي مغول فارس والمماليك لم يؤثر مطلقا على الصداقة التقليدية القديمة التي تربط دولة المماليك بدولة مغول القميجاق أو القبيلة الذهبية في شمال البحر الأسود ، وكان زعيمها في ذلك الوقت يدعى أوزبك خان .

ومن المعروف أن هذه الدولة المغولية الشمالية كانت على عدااء مستحكم مع مغول فارس ، وكثيرا ما قامت بينهما حروب طاحنة وقفت فيها مصر بجانب حلفائها مغول القبيلة الذهبية ، ولكن لما انتهى العداء بين مصر ومغول فارس ، لم يستطيع الناصر محمد ماصرة صديقه أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية ضد إيلخا فارس أبي سعيد ، وأوضح له موقفه الجديد من هذه الدولة ، ولكنه عمل في نفس الوقت على إزالة ما بين دولتي للمغول من عدااء وقد كفل مساهم بالسجاح اد عقد صلح بين أبي سعيد وأوزبك خان وانتهت بذلك هذه المشكلة ^(١) .

سياسة الناصر محمد مع الصليبيين .

الواقع أن الأعمال الحربية التي قام بها الناصر محمد ضد الصليبيين ، وهي في الحقيقة أعمال بسيطة تعتبر من ديول أو مخلفات المشكلة الصليبية التي انتهت منذ أيام أحبه الأشراف خليل .

(١) ابن خلدون العبر وديوا المبدأ والآخر ج ٥ ، ص ٤٢١ ، المقتدرى السلوك ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢١١ .

فمن بقايا هذه المشاكل الصليبية مسألة عسبان أرمينيا وتخريبها لمغول فارس وملوك أوربا على غزو مصر والشام . وكانت هذه الدولة المسيحية تدفع لمصر جزية سنوية منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس في مقابل مسألة دولة المماليك . وقد اضطّر الناصر محمد أن يرسل إلى أرمينيا عدة حملات تأديبية انتهت بحصوع هذه الدولة واعترافها بسيادة سلطان مصر والشام .

ومن بقايا المشاكل الصليبية أيضا مسألة فرسان الداوية أو المعبد وكانت بعض فلولهم بعد استيلاء الأشرف خليل على عكا قد انسحبت واستقرت في جزيرة أرود الواقعة على بعد ثلاثة أميال في البحر أمام بلدة أنطربطوس شمالي طرابلس ، واحتفظتها قاعدة يشنون منها الغارات على الموانئ الشامية ولا سيما مدينة طرابلس القريبة منها ، ومن ثم قرر الناصر محمد احتلال تلك الجزيرة وعاقد الأسطول وشحنه بالمقاتلة والسلاح والنفط ، وأسند قيادته إلى أمير البحر سيف الدين كهرداش الرراق المنصوري . ثم أبحر الأسطول سنة ١٣٠٢ م (٧٠٢ هـ) متجها إلى طرابلس حيث انضم إليه الأمير اسدمر كرحي ببعض القاطع البحرية ، ثم أطبقت الحملة على جزيرة أرود واستولت عليها عنوة بعد أن حطمت أسوارها وقتلت ألفا من أهلها وأسرت نحو من خمسمائة ، وهكذا خلت السواحل من الصليبيين ولم يبق منهم أحد بالشام إلا من هو أمير أنصرتاني ذمي^(١) .

علاقات الناصر محمد الدبلوماسية :

من المعروف أن مشكلة الصليبيين كانت قد انتهت منذ عهد السلطان الأشرف خليل ، غير أن فكرة الحروب الصليبية ظلت باقية في

(١) أبو الحسن : السجوم الراهرة ج ٨ ص ١٥٦ .

أذهان الكتاب والدعاة وبعض الملوك والبابوات في أوروبا وكانت أخبار تلك المشروعات الصليبية تصل إلى القاهرة مما جعل سلاطين المماليك يتخذون الاحتياطات الحربية والدبلوماسية اللازمة لدرأ هذا الخطر .

فمن الناحية الدبلوماسية نجد أن السلطان الناصر محمد قد حرص على توطيد علاقاته مع ملوك الدول الأوروبية والإسلامية شرقاً وغرباً ، فامتلاً بلاطه بسفراء تلك الدول بشكل لم يحدث من قبل ولا من بعد .

ومن هؤلاء نذكر نخابى الثانى Jaimell (جام فى المصادر العربية) ملك مملكة أراجون فى شمال شرق اسبانيا وكان هذا الملك يحرص على أن ينال شرف رعاية مصالح المسيحيين فى الشرق الإسلامى وكانت هذه المصالح أما دينية مثل تأمين الحججاج وإطلاق سراح الأسرى وحماية المسيحيين المقيمين بمصر والشام ، وأما مصالح تجارية تتعلق بتأمين التجار المسيحيين على تجارتهم وأموالهم وأرواحهم أثناء إقامتهم بالشعور المصرية ولا سيما مدينة الإسكندرية ، قسفاتر ملك أراجون كانت تدور حول هذه المصالح ، وهى مقابل ذلك كان هذا الملك الاسانى يتعهد بحماية المسلمين المقيمين فى مملكته وعدم التدخل فى شئونهم الدينية . وقد أطلق على المسلمين الحاضرين للحكم الاسانى اسم المدجنين ^(١) Mudejars .

أما ملك فرنسا فيليب السادس ، فقد كان من دعاة أحياء فكرة الحروب الصليبية بل أنه أبدى استعداداه لقيادة حملة صليبية على مصر ، ولكنه تبين له آخر الأمر استحالة هذا المشروع خصوصاً بعد أن شغل بحروب المائة عام التى قامت بين فرنسا وإنجلترا .

ورأى ملك فرنسا أن يلجأ إلى سياسة المفاوضات فى حل المسألة

(١) Aliya (A.S.) : Egypt and Aragon P.35 .

الصليبية، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٣٠م سفارة ضخمة من مائة وعشرين سفيرا، وقد حاول هؤلاء السفراء اقناع السلطان بتسليم بيت المقدس للمسيحيين ولكن السلطان قايل هذا الطلب بالاستيلاء والاهمال^(١). أما سفارات امبراطور الدولة البيزنطية فكانت تدور حول عقد تحالف مع دولة المماليك ضد الدولة العثمانية الناشئة في آسيا الصغرى، وكانت هذه الدولة العثمانية قد أخذت توسع حدودها غربا في الأراضي البلقانية التابعة للدولة البيزنطية كما أخذت في الوقت نفسه تهدد الحدود الشمالية للدولة المملوكية بالضغط على الدويلات التركمانية المنتشرة في جنوب آسيا الصغرى مثل القرماتية وذى القادرية التي كانت في حلف مع المماليك. ولهذا وجدت هذه السفارات البيزنطية تجاوبا من السلطان الناصر لوجود مصالح مشتركة بين الجانبين.

أما سفارات ملوك الدول الإسلامية فنذكر منها سفارة سلطان دولة الهند الإسلامية في دلهي في عهد محمد بن طغلق شاه سنة ١٣٢٥م/ ٧٢٦هـ وكان غرضها عقد حلف مع الناصر محمد ضد مغول فارس على أن تقوم مصر والهند بالهجوم عليهم من الشرق والغرب في وقت واحد. ولقد فشل هذا المشروع بحسب تحسن العلاقات بين مصر ودولة ايلخانات فارس كما سبق أن بينا.

كذلك اهتم السلطان الناصر محمد بتوطيد علاقاته بدولة بنى مرين أو بنى عبد الحق في المغرب الأقصى. وكان سلطانها في ذلك الوقت هو السلطان أبو الحسن المريني فتشير المصادر إلى السفارات والمراسلات المتبادلة بين الدولتين ونخص بالذكر تلك السفارة التي أرسلها السلطان أبو

(١) محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون في مصر من ٢٧٧.

الحجر المرسى سنة ١٣٢٧ م (٧٢٨ هـ) وكان يصحب هذه السفارة
ركب الحج المغربي وعلى رأسه السيدة الحرة إحدى زوجات أبيه ،
ويصفها المقرئى نائنة السلطان ، وقد حملت الهدايا المرسلة من سلطان
المغرب إلى سلطان مصر على ثلاثين قطار من بعال النقل سوى الجمال .
وكان يوما مشهودا وصفه المقرئى فى كتابه الذهب المسوك فى ذكر من
جح من الحلفاء والملوك (بشر المرحوم جمال الدين الشيال) .

أعمال الناصر محمد الداخلية :

سار الناصر محمد على سياسة والده قلاوون العمرانية فبنى المدرسة
الناصرية سنة ١٣٠٤ م ، التى لا تزال بقاياها موحودة إلى اليوم بالساحسين
بالقاهرة ومن مآبى أيضا القصر الأيلق بقلعة الجبل (المقطم) سنة
١٣١٣ م ويسمى بالألق لأن أحجاره كانت بيضاء وسوداء (من هذه
التسمية جاء اسم الطائر الألق والبلقاء فى حبوب الشام) ثم هناك مسجده
الذى ساء بالقلعة أيضا سنة ١٣١٨ م وربه بمواد نقلها من كاتد راثيه
عكا . هذا إلى جانب الحمامات والمساحد والزوايا والروابط والقصور
والترع والقنوات بجميع أنحاء البلاد وهما بعمير المجرى الذى ينقل الماء
عليه من النيل إلى القلعة على السور (مجرى العيون) .

ولقد قام الناصر محمد حصح الأراضي المصرية وتقسيمها تقسيما جديدا يرمى فى
التاريخ باسم الروك الناصرى . والروك مصدر الفعل الثلاثى رأك ومعناه قام أو مسح الأرض
الزراعية لتقدير الضرائب أو الخراج المستحق عليها وهذه العملية عرفت أيضا باسم فك الزمام .
والمعروف أن أرض مصر مسحت فى العصور الوسطى الإسلامية
ست مرات قبل عصر الناصر ^(١) محمد وهذا يدل على أن الناصر محمد

(١) على إبراهيم حسن تاريخ المماليك البحرية ص ٣٢٢

لم يعمل عملا جديدا بهذا الروك الجديد ولكن يبدو أنه كان يهدف مر
وراته اضعاف قوة المماليك عن طريق الأقلال من اقطاعاتهم عند توزيعهم
من جديد. كذلك أعادة الناصر حفر خليج الإسكندرية سنة ٧١٠ هـ
فبادر الناس بالزراعة على جانبيه كما اهتم بعمارة طريق الحج من القاهرة
إلى مكة والمدينة المنورة .

أما عن شخصية الناصر فيمكن أن مأخذ فكرة عنها من اللوحات
الفصيرة التي وردت في المراجع المختلفة نذكر منها أنه كان قصير القامة ،
أبيض اللون وفي عينيه حول وبرجله عرج فلابمشى الا متكئا على عصا
، أو خادم وذلك بسبب حادث وقع له في أيامه الأولى وهو منفى بحصن
الكرك (دخلت شوكة في رجله) وكان ولوعا بالصيد ومغرما باقتناء
الحيول الأصيلة والأحجار الكريمة وأن كان لم يلبس من هذه الأحجار
شيئا ، اذ يؤثر عنه البساطة في مظهره وملبسه ، كذلك اهتم الناصر بالعلم
والعلماء ، وكانت تربطه بالمؤرخ المناب المؤيد أبي الفداء صاحب كتاب
الختصر في أخبار البشر صداقة متينة . و ابو الفداء كما هو واضح من لقبه
« الملك المؤيد » ينتمي إلى الملك شاهنشاه الأيوبي أخو صلاح الدين . وقد
عمل الناصر محمد على تكريمه فأعاد اليه ملك أجداده وهي ولاية
حمص بالشام ، وأمر الولاة بأن يعاملونه كذلك ، وقد صحبه معه إلى
الحجاز عند تأدية فريضة الحج ، وكان لا يناديه إلا بأحى .

هذا ، وكان السلطان الناصر محمد رجلا شجاعا حازما الا أنه
كان كثير التخیل والظن والشك ، ولهذا قتل عددا من الأمراء لأنه اشتبه
في اخلاصهم ، بل أنه كان يعار على ملكه حتى من أبنائه ، فلم يعين
وليا لمعهده ، وفي أواخر أيامه نفى ابنة الأكر أحمد إلى حصن الكرك

لسوء أخلاقه ، ولم يكن ابنه الثاني أبوك أحسن حالا من أخيه وتوفى فى أواخر أيام والده ، ولهذا اضطرب الناصر قبل وفاته يومين إلى تولية ابنه الثالث سيف الدين أبى بكر فى السلطنة ، وتوفى السلطان الناصر محمد عام ١٣٤٠ م (٧٤١ هـ) عن ثمان وخمسين سنة .

دولة المماليك الأولى بعد وفاة الناصر محمد حتى نهايتها ، (١٣٤٠ - ١٣٨٢ م) (٧٤١ - ٧٨٤ هـ) :

تركت وفاة الناصر محمد فراغا كبيرا لم يستطيع أحد من أولاده وأحفاده أن يملأه من بعده .

غير أنه يلاحظ أن البيت القلاوونى كان قد تأصل تماما فى قلوب الناس بدليل أن أبناء الناصر وأحفاده هم الذين تداولوا العرش بعده حتى نهاية دولة المماليك الأولى (دولة المماليك البحرية) سنة ١٣٨٢ م . أما أمراء المماليك فقد كان صراعهم فى ذلك الوقت يدور حول الاستئثار بالنفوذ والأموال دون الالتفات إلى السلطنة وعرشها .

وفى هذه الفترة التى تلت وفاة الناصر محمد حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى ، وهى فترة تقدر بحوالى اثنتين وأربعين سنة (١٣٤٠ - ١٣٨٢ م) تولى عرش مصر والشام اثنا عشر سلطانا ثمانية من أبناء الناصر ، واثنان من أحفاده ، واثنان من أبناء هؤلاء الأحفاد .

وجميع هؤلاء السلاطين لم يحكموا الا بالاسم فقط ، أما السلطنة الحقيقية فكانت بيد كبار الأمراء وكان هؤلاء السلاطين أطفالا صغارا لم يدم حكمهم سوى بضع سنوات أو شهور قليلة .

ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى اثنين من هؤلاء السلاطين :

الأول هو السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، وقد تسلطن مرتين : الأولى دامت أربع سنوات (١٣٤٧ - ١٣٥١ م) والثانية سبع سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦١ م) . وكان هذا السلطان شغوفا بالعمارة مثل والده ، وينسب إليه المسجد الضخم الجميل الذى يحمل اسمه ، جامع السلطان حسن ، الذى لا يزال يراعى كقلعة المنيفة فى شارع محمد على (بجوار مسجد الرفاعى) . وقد قتل السلطان حسن على يد نائب سلطته بلبغا الخاصكى .

أما السلطان الثانى فهو السلطان الأشرف شعبان وهو من أحفاد الناصر محمد ، وقد استمرت سلطته ثلاث عشرة سنة (١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) . وفى عهده حدثت عارة ، القبارصة المشنومة على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وعلى الرغم من ضعف ونفاذ معظم شخصيات سلاطين ١٤ . الفترة التى تلت وفاة الناصر محمد ، إلا أن الدولة المملوكية استمرت قوية مهابة . وهذا راجع إلى حسن الإدارة المصرية والشامية التى بلغت دروتها من حيث النظام والدقة بحيث صارت من أحسن الإدارات الحكومية فى عصرها سواء فى الشرق أو الغرب . ولهذا نجد أن ضعف السلاطين بعد الناصر محمد لم يحل دون استمرار مظاهر الحياة المملوكية كما كانت من قبل مثل بقاء المساجد الحميلة والتمجيد الفحة ، واستقبال الوفود والسفراء فى بلاط السلطان الذى استمر على أبهته وفخامته السابقة .

وتتميز هذه الفترة التى تلت وفاة الناصر محمد بحدثين هامين كان لهما أثر كبير فى نهاية هذه الدولة المملوكية الأولى :

الحدث الأول داخلي :

وهو انتشار وباء الطاعون أو الموت الأسود في البلاد المصرية والشامية وغيرها من البلاد الافريقية والاسيوية والأوربية ، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي أو الثامن الهجري . ولأنك أن هذا الوباء الذي هلك فيه ملايين من البشر إلى جانب ما صاحبه من طواعين الأبقار والآفات الزراعية ، قد نتج عنه مجاعات وأزمات اقتصادية ترتب عليها أيضا أزمات واضطرابات سياسية سادت نواحي كثيرة من العالم ومن بينها مصر وقد أعطانا الرحالة الطنجي ابن بطوطة الذي كان موجودا في القاهرة في ذلك الوقت وصفا مهما عن هذا الوباء والآثار السلبية التي ترتبت عليه^(١) . كذلك عبر عن هذه الحالة المؤرخ المعاصر عبد الرحمن ابن خلدون بنظرته الفلسفية الشاملة عندما قال في مقدمته تعقيا على هذا الوباء: ^(٢)

« وكأني بالمشرق قد نزل به مثلما نزل بالمغرب ... وكأنا مادي لسان الكون في العالم بالخمول والانقراض فادر بالأطربة ، والله رارت الأرض ومن عليها ، وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنا نذل الحلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد » .

أما الحدث الثاني :

فهو حدث خارجي ويتعلق بالغارة البحرية الوحشية التي شنها ملك قبرص بطرس الأول لوزجنان على مدينة الاسكندرية سنة ١٢٦٥م (٧٦٧ هـ) بمساعدة فرسان رودس الاستبارية والجنوسين والبادقة .

ولقد اختار هذا اللعين وقتا مناسباً لغارته ، فالوقت كان موسم فيضان

(١) تجلر الإشارة هنا إلى أن والده هذا الرحالة ابن بطوطة مات في مدينة طنجة بهذا الوباء ودفت هناك

(٢) المقدمة ص ٢٣ ، ويلاحظ أن ابن خلدون قد قد ، والذي في هذا الوباء أيضا

النيل ، والطريق بين القاهرة والاسكندرية مملؤ بالطين ولا يصلح لمجيء
تجده عسكرية سريعة لانقاذ المدينة ، بل كان على هذه التجدة أن تسلك
طريقا آخر عبر الصحراء وهو طريق طويل شاق، وكان الوقت موسما
للحج وحاكم المدينة صلاح الدين بن عرام عائب عنها لتأدية فريضة الحج
وكان نائبه جنفرا رجلا سيء التدبير عديم المعرفة أى أنه كان رجلا
ضعيفا مترددا لا يصلح لمثل هذه المواقف الخطيرة ، يضاف إلى ذلك أن
سلطان مصر كان طفلا فى الثانية عشرة من عمره وهو الأشرف شعبان
حفيد الناصر محمد يسما كنت السلطة الحقيقية فى يد نائب سلطنته
الأمير بلغا الحاصكى وهذا أدى إلى اضطراب الحالة الداخلية فى مصر
فالظروف كلها كانت مهيأة لخدمة للعدو .

وطس السكندريون فى أول الأمر أن السمن الصليبية هى سمن
النادقة الآتية للتجارة على عادتها فى كل سنة ، ففرحوا لرؤيتها ورحلوا
لاستقبالها ، ولكهم قوبلوا بوابل من السهام فأدركوا أنهم أمام خطر
صليبي، عمدت بدأت الاستعدادات على عمل لاعلاق الابواب وشحن
القلاع بالمقاتلة واستدعاء عرب الحيرة للدفاع ، غير أن هذه
الاستعدادات المرجلة لم تمنع الصليبيين من اقتحام المدينة ، اذ استطاع
بعضهم أن يدخل من فتحة قناة الخليج التى نصب فى البحر من تحت
السور فى الميناء الشرقية ، وأن يتسلق الحائط من سلمه الداخلى ويشعل
النار فى باب الديوان (الجمرك) المجاور لها وبذلك تمكن الصليبيون من
دخول الاسكندرية ونهبها وحرقتها وقتل وأسر عدد كبير من رجالها
ونسائها ، ولم يفرقوا فى ذلك بين المسلمين والنصارى واليهود المقيمين

فى المدينة . وبعد أربعة أيام من السلب والنهب والدمار اضطر الملك بطرس أن يقلع بأسطوله قل أن تلحق به جيوش لجة المصرية قانعا بما أصابه من غنائم .

كانت هذه العارة بمثابة ضربة قاتلة لمدينة الاسكندرية اذ أخذ نشاطها التجارى ومكائنها الاقتصادية فى الأقل مد ذلك الوقت وقد علق المقرئزى على هذه الحالة بقوله : « وكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالاسكندرية من الحوادث ، ومنها اختلت أحوالها ، واتضع أهلها ، وقلت أموالهم ، وزالت نعمهم » (١) .

ولاشك أن هذه الكارثة التى أصابت أهم ميناء تجارى مصرى كانت عواقبها وخيمة على الاقتصاد المصرى بصفة عامة ، وقد يؤيد ذلك كثرة المنازعات بين امراء الممالك بصورة أقوى من ذى قبل ، ووقوع مصر فى أزمات مالية عديدة حتى قيل أن الدولة لم تستطيع إخراج المحمل إلى الكعبة أكثر من مرة لعقرها .

لم تستمر طويلا الدولة المملوكية الأولى المعروفة بالحرية بعد هانس الأزمتين اللتين مرت بهما وهما وباء الطاعون وعارة القارصة ، اذ تمكن فى النهاية أمير مملوكى اسمه برقوق من أن يسدل الستار على هذه الفترة المضطربة وعلى أسرة قلاوون بأسرها . ففي سنة ١٣٨٢ هـ (٧٨٤هـ) خلع برقوق السلطان حجي آخر سلالة الناصر محمد بن قلاوون ، وأعلن نفسه سلطانا على مصر والشام باسم الملك الظاهر سيف الدين برقوق

وبهذا السلطان الجديد تبدأ دولة المماليك الثانية المعروفة بالبرجية (سنة إلى أبراج القلعة) وبالجراكسة أو الشراكسة من باب التسمية

(١) راجع تفاصيل هذه العارة فى (أحمد مختار المبادئ والسيد عبد العزيز سالم : البحيرة الإسلامية فى مصر والشام ص ٢١٢) .

العنصرية. غير أن هذه التسميات فى رأى استاذنا المرحوم زيادة غير دقيقة لأن الدولة لم تعتمد على جنس الشراكسة فقط بل اعتمدت على عناصر مملوكية أخرى مختلفة كالتركمان والقفجاق والروم . كذلك كانت أبراج القلعة بالمقطم مأوى لفئات المماليك أيام دولة المماليك الأولى ولذلك نرى أن التسمية الصحيحة التى ينبغى أن نطلقها على هذه الدولة هى التسمية العددية أى دولة المماليك الثانية (١) .

وهذه الدولة فى الواقع ما هى الا استمرار لدولة المماليك الأولى فى سياستها وتقاليدها وأنظمتها بوجه عام . والأمر الذى جعلها تعتبر دولة منفصلة يرجع إلى أن مؤسسها وهو السلطان برقوق ، استطاع أن يقضى على سلطنة أسرة قلاوون ويستأثر بالسلطنة لنفسه فكان ذلك هدفاً للمبدأ الوراثى الذى حاولت دولة المماليك الأولى تطبيقه فى أواخر أيامها كوسيلة للبقاء والاستمرار .

(١) محمد مصطفى زيادة بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك فى مصر مجلة

كلية الآداب ، القاهرة سنة ١٩٣٦

ضمائم

ضميمة رقم (١)

خطاب التهديد الذى أرسله هولاكو خان إلى

السلطان سيف الدين قطز سلطان مصر

قبيل موقعة عين جالوت^(١)

من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم .

باسمك اللهم باسط الأرض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر
قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الأقليم^(٢) ،
يتعمنون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك
المظفر قطز ، وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالدبار المصرية وما حولها من
الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه . وسلطنا على
من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتسر ، وعن عزمنا مزدجر ،
فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمرکم ، قبل أن يكشف العطاء فتندموا
ويعود علیکم الخطأ ، فنحن ما نرحم من يكى ، ولا نرق لمن شكى ، وقد
سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم
العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريق
تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ ، راجع ما قلناه عن هذه الرسالة فى
موصعه .

(٢) إشارة إلى أصل قطز ، وقد تقدم القول بأنه كان من الخوارزمية

مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ،
 وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لاتمنع ، والعساكر
 لقتالنا لاتنفع ، ودعائكم علينا لا يسمع ، فانكم اكلتم الحرام ، ولا
 تعفون عند الكلام ، ونحنتم العهود والايمان ، وفشا فيكم العقوق
 والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم
 تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم نفسقون وسيعلم الذين
 ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فمن طلب حريتنا ندم ، ومن قصد أماننا
 سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلکم ما لنا وعليکم ما علينا ، وأن
 خالفتم هلكنم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديکم ، فقد حضر من أنذر ، وقد
 ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا
 عليكم من له الأمور المقدرة والاحکام المدبرة ، فكثيركم عددا قليل ،
 وعزيزكم عندنا ذليل . وبغير الأبهة ما ملوكمكم عددا سبيل ، فلا تطيلوا
 الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم نار الحرب نارها ، وترمى
 نحوكم شرارها ، فلا تجدون مآجها ولا عرا ، ولا كافيا ولا حرزا ،
 وتدهون منا بأعظم داهية وتصح بلادكم منكم حالية ، فقد أنصفناكم اذ
 راسلناكم ، وأيقظناكم اذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم .
 والسلام علينا وعليکم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى
 وأطاع الملك الاعلى .

ألا قل لمصرها هلاوون^(١) قد أنى بحد سيوف تنتضى وبواتر
 يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالا لهم بالأكابر

(١) هلاوون صيغة لاسم هولاكو ترد كثيرا فى المصادر القديمة المعاصرة

ضميمة رقم (٢)

رواية صارم الدين أريك بن عبد الله الأشرفى، فى وصف التار
وعاداتهم وموقعة عين جالوت^(١)

قال الأمير شهاب الدين قرطاي العزى الخازندارى فى تاريخه -
صيفته :

قال الصارم أريك مملوك الملك الأشرف الأيوبي صاحب حمص لما
نزل هلاوون على حلب كنت عائيا عنها ، فتجلبأت فى مغارة من مغارات
حلب مدة ثلاثة أيام ، وأنا أسمع حنين حوافر الخيل فوق رأسى . فلما
انقطع الحنين ، طلعت من المغارة ، فوجدت على بابها رجلا من التار

(١) راجع ما قلناه من هذه الموقعة فى موضعه من الكتاب، هنا وقد ورد هذا النص فى تاريخ
قرطاي العزى الخازندارى الذى لا يعرف من صاحبه سوى أنه كان من كبار أمراء
المماليك وشمل عدة وظائف كبيرة مثل أمير دمشق وحاجب حلب ومالك طرابلس ومات
موق سن السنتين سنة ٧٢٤ هـ (١٣٢٣ م) ، وقد كتب تاريخا نقله المؤرخ المصرى ناصر
الدين محمد بن العزات (ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ م) فى تاريخه الكبير : الطريق الواضح
المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك : الذى لم يستطيع إتمامه . ويوجد من هذا
التاريخ الكبير لابن الفرات تسعة أجزاء (تشمل أخبار سنى (٥٠١ - ٧٩٩ هـ) نشر منها
الدكتور قسطنطين زريق الأجزاء ٨، ٧، ٩ التى تضم أخبار سنى ٦٧٣ - ٧٩٩ هـ أما
الجزء الذى يهمنا هنا فهو الجزء السادس الذى يضم أخبار سنى ٦٢٥ - ٦٥٩ هـ
ويشتمل على تاريخ قرطاي العزى وأخبار صارم الدين أريك التى وردت هنا فى المتن . وهذا
الجزء موجود بمكتبة المليك كان وقد نشرته المشرق ليعنى دلافينا أخبار صارم الدين فى
Levi Della Vida : L'invasione dei Tartari in Syria nel 1260 di
un testimone oculare. Orientalia Vol. Iv Roma 1935

ميتا ، فلبست قماشه ، ونريأت بزي التتر ، وقصدت دهليز هلاوون . ومن
 جملة عدل التتار أنهم اذا نزلوا بأرضه نصبوا قريبا من الدهليز الذى
 للملك صاريا ، وفى رأس الصارى وضعوا صندوقا صغيرا معلقا بالحبال ،
 وعند الصارى وقف من يحرسه وهم جماعة من أكبر أمناء التتار . فإذا
 كان لرجل شكوى أو ظلامة ، يكتب ظلامته فى قصة ويختمها ويضعها
 فى ذلك الصندوق ، فإذا كان يوم الجمعة ، يطلب الملك الصندوق إلى
 بين يديه ، ويفتحه بمفتاح من عنده ويكشف ظلمات الناس ، قال الصارم
 : فكنت قصة شرحها . « المملوك الصارم » ولم أقل أربك ، وحميت أن
 أكتب فى قصتى أزيل فلا يسادوسى التتر يؤمئذ « يا صارم » ، بل
 يسادوسى « يا أربك » فكتب فى القصص : المملوك الصارم مملوك الملك
 الأشرف صاحب حمص ، بقيل الأرض ليسأل الحضور بين يدى القاد .
 علما طلبى وحصرت بين يديه : رأيت ملكا حليل القدر عظيم الشأن ،
 كثير الحرمة ، قصير القامة . كبير الوجه ، جهر الصوت ، حنون عيسه
 على وجهه ، والحواتين حالسات إلى جانب ، والست طقر حاتون عن
 شماله ، قال الصارم لما وقفت بين يدى هلاوون ، تكلم معى من
 حجاب أربعة ، وقال لى فى جملة كلامه : « أنت مملوك للملك الأشرف
 صاحب حمص ، بهادر المسلمين ؟ » - يعنى فارس المسلمين - قلت نعم
 وجعل يحدثنى من حاجب إلى حاجب ، والحاجب الرابع يتحدث معى
 بلسان التركية . فلما رأتى فصيح اللسان ، قوى الجان ، سريع الجواب ،
 قربنى إليه ، وأمر أن لا يكون بينى وبينه غير حاجب واحد . ثم قال
 لى : « تشرب الحمر » قلت نعم ، فأمر لى بهاب (كأس) مملوء حمرا ،

وأشار إلى الحاجب فناولني . فقلت الأرض ورقصت وعملت أشياء كان يعملها الحرفاء بين يدي ملوك الاسلام لما كانت البلاد لهم . فأعجب ذلك الخواتين وأنشرحن وتبسمن ، فأما هلاوون ، فانه لم يرفع رأسه من الأرض ، ثم أمر لي بالجلوس فجلست ، وبالشرب فشربت ، وبالأكل فأكلت فلما رآني أي أمر أشار به امتثلت ، أمرني بالجلوس فوق ندمائه في أعز مكان وأعلاهم مرتبة . وصار لا يأكل الا وأنا حاضر ، ولا يشرب الا وأنا حاضر ، وأن نام هلاوون طلبتني الست طقز خاتون زوجته ، فأقمت على تلك الحال أول ليلة وثاني ليلة وثالث ليلة ، ونحن نحاصر حلب ، ثم سألني هلاوون عن أمر من الأمور ، فجأوبته جوابا كذبا وددت لو ابتلعتني الأرض ولم أنطق به . سألني على لسان حاجبه : في كم من الوقت نملك هذا البلد؟ - يعني حلب - قلت في عشر سنين . فأطرق هلاوون برأسه الى الأرض غصيا متي . وقال لحاجبه اسأله : في كم مقدار ما نملك هذه القلعة؟ - يعني قلعة حلب - قلت : في ثلاثين سنة وقصدت في كلامي أن هلاوون اذا سمع هذا الكلام يرحل عن حلب . فتبسم هلاوون وقال لحاجبه : لولا سابق خدمته لي ضربت عنقه ، اما يستحي من هذا الكلام ؟ أليكون هذا همة ملوكهم يعني ملوك المسلمين - المختلفة آرائهم ، المشتغلين ببعضهم البعض ؟ كل هذا بلسان التتار ، وأنا لم أعلم ما يقول . وقال الصارم : فسكت ، وندمت على جوابي له ، وذلك لما رأيت من العيظ الذي تسين في وجهه فلم يفرغ هلاوون من كلامه الا وقد دخل عليه رجل من التتار ، وفي يده رأس مقطوعة من رؤوس بني آدم ، معلقه بشعر ، وهي مخضبة

بالدم ، فرماها بين يدي هلاوون وتحدث معه بلسان التتار ، ثم أخذ الرأس وخرج ، فالتفت الحاجب نحوى وقال لى : يا صارم تعرف ما هذه الرأس ، وما هذا الرجل ، قلت : لا . قال : هذا أكبر مقدمى التتار ، وكان فى نقب من بعض النقوبيات التى تحت القلعة ، وخرج يزيل حقه ، وجعل ولده مكانه فكشفهم الحليون وهجموا عليهم فى النقب ، فهرب ولده ومعه جماعة من التتار ، فبلغ ذلك أباه ، فعبّر النقب وقطع رأس ولده يده ، وجاء بها إلى القان قال الصارم : فعند ذلك علمت أن التتار لا يد لهم من حلب ، وأن بنيتا وبناتا ومن يلينا فى أيدي التتار ، وهذا أمر أراد الله تعالى فلا راد لمشيئته .

وكنت ليلة عند هلاوون وتحنن بشرب ، اذ ورد عليه جماعه من مقدمى التتار ومعهم اصناف كثيرة من جملتها زبيب وحب قطن وقمح ونخالة خشب وفحم وخشروب ، فجعل هلاوون ينظر اليهم ويستسم ، ولا اعلم ما فى نفسه . ثم أمر لنا بأن شرب بالاقداح الكبار وبالزبادى . فلما خرجت أفضى شغلا ، لحقنى الحاجب وكان يحبنى وأحبه محبه عظيمة ، وقال يا صارم : أتدرى ما هذا الذى جاء بها المقدمون ؟ قلت : لا والله قال : أنهم قد وصلوا فى القيب تحت القلعة الى أن وصلوا إلى هذا الذى رأيته .

ثم إن هلاوون سأل المقدمين : كم يسع النقب ؟ قالوا بسع ستة آلاف وجل . قال : إوسعوه حتى يسع عشرة آلاف ، وإن غدا بعد الظهر تأخذ التتار قلعة حلب ، وتصبح بساتكم ونسائكم وبنات الملوك اللواتي تحصن بهذه القلعة جوارى لهذه المست طقر خاتون ، فانظر يا صارم

الدين ماذا تفعل .

قال الصارم : والله لما سمعت هذا الكلام ، صحت من السكر ، ودخلت المجلس ، وجلست بين يدي هلاورن ، وقلت بطريق المصخرية : والله أن ملوك الترمثل الحمير . فنظرت ففقر خاتون نحوى وهى تبسم وقالت : كيف هذا يا صارم ؟ قلت : أن ملوك المسلمين ، كانوا اذا شربوا الخمرة يكون نقلهم الفستق ، وشراب الحماض ، وأقرص الليمون ، فى الزبدى الصينى . وقماقم الماررد والريحان والبنفسج والأس المشور والترجس ، وما يناسب هذه الأشياء العطيمة ، وانتم التار ، تشربون الخمر على الفحم وحب القطن والزيب ونشارة الخشب وهذه الأشياء القبيحة .

وتبسم هلاورن وضحكت **(الحواتين)** قال الصارم : ثم سبقت منى كلمة كان جزائى فيها أن **تضرب عقى** . فقلت : أنا أعلم من اين جاؤا هؤلاء المقدمون بهذه الأصناف . فغضب هلاورن وقال : من أين تعلم هذا ؟ فقبلت الأرض وقلت : يحفظ الله القان ، وحق رأس الملك ، أنا ادخرت هذه الذخائر كلها بيدي فى هذه القلعة خوفا من الترواستعدادا للحصار . وسكن هلاورن من غيظه ، وكان قد اعتقد فى نفسه أن الحاجب أوحى إلى شيئا من هذا الكلام ، وكان الأمر كذلك .

ثم نهضت قائما وقبلت الأرض ، وقلت : نصر الله القان ، أن حرمتك عظيمة ومملكته واسعة ، والملوك تخشاك ، ولا يقدر أحد منهم أن يقف بين يديك . والله والله ياخوند ، الملوك يودون لو كانوا

وقوفا بين يديك مثل ممالكك هؤلاء الوقوف ، ولكن يخافون من سطوتك . فاعجب هلاون كلامي وقال لى :

يا صارم ، قلت : لبيك . قال : تقدر أن تأتينى بأستاذك الملك الأشرف صاحب حمص ؟ قلت : نعم . قال : اركب وأتني به قلت : بعد يومين . قال : نعم . فأمر لى هلاون بالخيل وقال : اركب ولا تقعد ، قلت : بشرط . قال : وما هو ؟ قلت أن لا تفتح هذه القلعة الى أن يحضر الملك الأشرف بين يدي القان ، قال : نعم . فركبت وأخذت معي عشرة أكاديش ، وعلمت في عقي الطعنة يعنى لوح السريد - وسقت ووصلت الى غزة . فبلغنى أن الملوك هاربين فى البرية ، مشتتين محيرين مبشرين . وكان قد بلغ ملوك المسلمين منزلتى عند هلاون ، فسقت ولحقت الملوك على منزلة تعرف بركة زينة .

فلما رأتنى الملوك ، نزلوا عن خيولهم وقبلوا يدي كما كنت أقبل أيديهم . وقبل الملك الأشرف أستاذى يدي معظم ذلك على واستحييت من أستاذى ومن الملك الناصر ، ثم قلت للملك الأشرف : القان يطلبك . فحاف ، فقلت : ممن تحاف ؟ قال : من القان . قلت : الضمان على ، تعود ملكا جليلا على ما فى نفسك ولا يصل اليك مكروه . فالتفت الملك الناصر نحوى وقال : وأنا يا صارم الدين ؟ قلت : مالى معك كلام ، فبكى الملك الناصر .

ولما أخذت الملك الأشرف ومضيت الى هلاون ، وحضر بين يديه ، رسم له بشقة ينزل فيها ، وخروف وقلتر وحطب ، والله أن الشقة التى ضربها هلاون للملك الأشرف ، لا ترصى الكلاب أن تنزل فيها والخروف لا يرضى الذئب أن يأكله والحطب لا يرضى المشاعلى أن

يقده فى مشعله ، وهكذا عيش التتر دائماً ، فتركت الملك الأشرف فى الشقة ، ومضيت الى خدمة هلاوون ، فأجلسنى على جارى عادته ، وأمرنى أن أكل فأكلت ، وأمرنى أن أشرب فشربت ، وسألنى عن أحوال الملوك وما هم فيه ، وكيف تركتهم ، قلت : فى أنحس الأحوال ، هارين مشتتين محيرين فى البرارى لا يستلذون بالنوم خوفاً من حرمة القان ، فأعجب هلاوون بكلامى ، وقال : كيف تركت استادك يا صارم ؟ قلت : مالى استاد الا القان ، قال : لا ، ألا أستاذك الملك الأشرف ؟ قلت : ما أعلم شيئاً عن حاله . قال : كيف تركته وحده ؟ قلت : ما أفارق وجه القان بصره الله . فاطرق هلاوون برأسه زماناً وقال : لا تقل هذا يا صارم ، بل أمضى الى أستاذك ، وانظر أى حال هو عليه . فأليت الى الملك الأشرف ، فرأيت ^(وبده تحكى) أخده وهو حزين ، والحروف مربوط بحبل ، والحطب ملقى على الأرض فقلت : ما بالك ياخوند ؟ فقال : ألا ترى هذا الحال يا صارم الدين ؟ وبكى . قلت : لا تبك ياخوند ، والله والله والله هنا عيش التتر دائماً ، وهذا حالهم . والله ياخوند ما فعلوا هذا استقلالاً بك ، ولكن هذا خيار عيشة التتر ، فتبسم الملك الأشرف وقال : « هكذا تكون الملوك ، وبهذا الحال والرجال تملك الملوك البلاد » .

وبينما أنا أتحدث مع الملك الأشرف ، اذ ورد مرسوم هلاوون بحضوره بين يديه ، فوالله لقد رأيت الملك الأشرف تغير لونه ، وما رأيت الملك تغير لونه قبلها ، ولقد كسر الملك الأشرف الخوارزمية وهم ستة آلاف وهو فى ألف وخمسمائة فارس ولم يتغير لونه ، ولقد كسر التتار

فى وقت كان التتر فى ألفى وحمسمائة فارس والمملك الأشرف فى ثمانمائة فارس ولم يتغير لونه .

ولما وقف المملك الأشرف بين يدى هلاوون ، وأنا ماسك بشماله والحاب ماسك يمينه . والله لقد رأيت المملك الأشرف وهو يرتعد مثل القصبه ، ولم يستطع الوقوف على رجلية وذلك خوفا من هلاوون .

وكان المملك الأشرف شابا حسن الوجه ، أسمر اللون بحمرة ، قام القامة بوجهه شامات متفرقة . وكان لابسا قاء تريا أخضر ينود أطلس أحمر ، وخف بلعارى بكوايج ذهب وتخفيفه مزركشة . فظرت طقز حاتون للمملك الأشرف ، ونظرت إلى هلاوون وقالت : « أن هذا شاب مليح وفارس المسلمين ، وهكذا يكون المملك » ، فظر هلاوون نحوها وتبسم وقال : « انما ندن المملك الذى يحصر هذه المملك بين أيدينا وقوفا أدلة خائفين من مطوتنا » كل هذا والمملك الأشرف راقف بين يدى هلاوون لا يدري ما يصنع به الدهر ، ثم رفع هلاوون رأسه وقال : « يا أشرف ، تمنن ما تختار ؟ » فقبل المملك الأشرف الأرض ثلاث مرات ، قال الصارم فقلت له . اطلب منه أن يهلك هذا السرج الذى فى القلعة الذى فيه أمك وأخواتك وبناتك وحريم المملك وبنات المملك لندم يوسف وحريمه ومتى لم تطلب منه هذا السرج فى هذه الساعة . فى هذه الليلة تملك التتار قلعة حلب وتصبح حريم سيوت . لا يجوز يقتل جوارى لهذه الست طقز حاتون . قال المملك الأشرف : لا يجوز يقتل . فقلت له : أن التتر لا يقتلون من يكون عندهم بمنزلة الضيف .

ثم قال هلاوون لثانى مرة : « اطلب ما تختاره يا أشرف سلطان »

. فقال الملك الأشرف : « اتمنى على القان أن يهب لى هذا البرج الذى فيه حريمى وحريم الملك الباصر وحريم الملوك الذين هم هاربون من مطوة القان » . فأغضب هلاوون ذلك ، وأطرق الى الأرض وقال : « أطلب غير هذا » . فسكت الملك الأشرف ، فظرت طقزخاتون إلى الملك هلاوون وقالت : « ما تستحى يطلب منك هذا الملك هذا البرج ، وتمنعه عنه ، والله لو طلب منى حلب ما سمعتها عنه ، فإنه فارس المسلمين » . قال هلاوون : « انما سمعت ذلك لأهلك ، لتكون بنات الملوك وسائرهم حوارى بين يديك » ، قالت « أنا قد اعتقتهم لوجه الله تعالى ولأهل الملك الأشرف » ، فعد ذلك رسم هلاوون للملك الأشرف بما طلب ، وقبل الأشرف يد هلاوون ثلاث مرات .

قال الصارم : لما قبل الملك الأشرف يد هلاوون ورجع البنا ووقف بيننا وآراد أن يقبل الأرض ، وأنا ماسك بشماله والحاجب يمينه ، والله لقد قبل الملك الأشرف الأرض وآراد القيام فلم يستطع القيام وذلك خوفا من هلاوون ، فأقمته أنا والحاجب بباطية ، وقلت له تثبت وقرأت « ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

قال الصارم أزيك الأشرفى : قال لى هولكو فى جملة كلامه : « يا صارم ، تختار أن تكون مع الملك الأشرف استادك أو تكون معى ؟ » فقبلت الأرض وقبلت يده ، وقلت : « ما افارق وجه القان » . وكان كذبا منى ثم رسم هولكو بالتوجه الى الشرق ، وجعل كتبغا نوبن نائباً له بحلب وأعمالها ، وبيدرا نائباً له بدمشق وأعمالها . وتوجه الى الشرق واستصحب الصارم صحبته ، والمماليك الترك البحرية الذين كانوا محبوسين

بقلعة حلب وهم : منقر الأشقر ، وسكر ، ويرامق ، ويكمثر
المسعودي . وكانوا سبع نفر وقيل تسعة .

قال الصارم : لما وصل هولاء إلى اعزاز ووصل إلى بلاد الموصل
طلبني ، وقال يا صارم ، تختار المقام عندي وأنا أعطيك طبلخاناه ^(١) أو
تختار المقام بأرضك بالشام ؟ فقبلت يده وقلت : ما أفارق وجه
القان .

قال : لا ، الشام أحب إليك ، فإن أهلك وأولادك وأملاكك بالشام
وأرلى بالحيول والأموال والأعنام ، ورسم للملوك والأمراء الذين عنده
وهي خدمته أن يعطيني كل منهم على قدره ، فوالله العظيم لما انفصلت
من بين يدي هولاء ، لم أعلم ما كان حصل لي من الأموال والتحف ،
لكن الذي عرفته من عدة الجبل ألف وستمائة فرس ، ومن القماش
عشرة آلاف تفصيلة ما بين مروزي وكحجي وسيج أطلس وعنابي وغير
ذلك . ولما أمرني أن أتوجه إلى الشام ، قال لي في جملة كلامه : يا صارم
أنت تعلم ما فعلنا معك من الحير ، أولادي عندك كتبنا ويدراهما
عندي أعز من أولادي ، يكونان تحت بطرك ، ويكون حبك عليهما .
كل هذا وأنا أقل الأرض وأقل يده . ثم قال لي : يا صارم إذا وصلت

(١) لا تعلم شيئاً عن نظام إمرة طبلخانة في العهد المملوكي ، ولعله كان على حرار النظام
المتبع في العهد المملوكي حيث كان صاحب إمرة طبلخانة ممن يقتنون أربعين فارساً من
المماليك ، ليصاح بهم في حروب الدولة . ومن ميرات هذا الأمير ضمن دونه مرتبة ، أن
تكون له فرقة موسيقى حربية تسمى الطبلخانة تدق بالأنها على باب داره ، ومن أمراء
الطبلخانة كان ولاء الأعمال - المسوون - وصغار كبار الموظفين مثل نائب الدوا دار
ووالي القلعة ومقدم المماليك .

راجع (الفلقسندی . صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ١٣ ، ١٥ ، ٥٠) .

الى كتبغا ، أمسك رقبتك بيدك . « . ومسك هولاء كورقتي بيده ، وقال لي : « قل لكتبغا أن بعليك ودمشق وبلاد الشام بلادى وتحت مملكتى ، فما يحل لنا أن نظلم الرعية . كيف تجرات وأخذت صندوق ذهب من رجل من أهل بعليك ؟ أردد اليه ذهبه وإلا تموت . ولا ترد يدك من رقبتك الى أن يرد الى صاحب الذهب ذهبه . » .

قال لي هولاء كور لما ودعته : « يا صارم اذا وصلت الى كتبغا ويبدوا ساعدكم على فتح بخش الفار^(١) » - يعنى بذلك الديار المصرية - فانى أمرتهم أن يفتحوا مصر . قال الصارم : أن التار مثل مصر عندهم مثل بخش الفار ، اذا عبر من مكان لا يحرج إلامنه وذلك لضيق المسلك . ولما أمرنى هولاء كور بما أمرنى به اجتثلت أمره بالسمع والطاعة ، ثم توجهت الى الشام ، فوجدت التار قد أجمعوا على نهر الأردن ، فلما رأونى نزلوا عن حيولهم ، وقبلوا بين يدي ، وذلك إحلال كون عيني قريبة من الطر الى وجه الملك هولاء كور . ثم أبلغت كتبغا ما كان من أمر الصندوق الذهب ، وأن الملك هولاء كور رسم أنك ترد الصندوق الى صاحبه فامثل الأمر بالسمع والطاعة ورد الصندوق الى صاحبه والله أعلم .

قال الصارم : لما ودعت الملك هلايون من بلاد الموصل ، قال لي

(١) يعنى جمر الفار . وكانت مصر تعرف عند التار باسم كروان سراى ، ففى الخطاب الذى وجهه هولاء كور الى الملك الناصر يوسف صاحب الشام يقول : وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحبسهم الى كروان سراى ، فإن كثروا فى الجبال نسفناها . الخ . والمقصود بكلمة كروان سراى هو محطة الرحل أو فندق المسافرين . ولعل تسمية مصر بهذا اللفظ يرجع الى انتهاء معظم الطرق التجارية اليها من سائر جهات الشرق والغرب فى القرون الوسطى .

راجع للقرئى : السلوك ج ١ ص ٤١٦ حاشية رقم ٢ .

فى جملة كلامه . يا صارم ، أشكر نعمتى عليك . قلت : يا خويده ، أيد الله القان ، لك على نعم كثيرة من الله تعالى ومنك . قال : تعرف كيف جئتني ؟ قلت : نعم . قال عظمتك فى أعين الملوك إلى أن صرت تشفع فيهم عندي ، ويقبلوا يدك كما كنت تقبل أيديهم . ثم قال : يا صارم ، أشكر نعمتى . فقبلت يده وقلت يحفظ الله القان . نعمتك على كثيرة . قال : لا مثل هذه السعة ؟ قلت : ما عني ؟ قال فى ليلة كذا وكذا ، ونحن على حلب ، تحدثت معك بلسان التركية ثلاث كلمات ، والله لم يكن جرى منى هذا قلها لأحد ، وما فعلت معك هذا الكلام كله إلا لكى تتوصى بأولادى كتبغا ويديرا ، وتعمل معهما كما فعلت معك ، ولا يجيئنى كتابك ان شاء الله تعالى إلا بعد أن تكونوا أنتم مصر .

قال الصارم : لما قدمت الشام ، وأجذت التتار مجتمعين على نهر الاردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية . وقد خرج المسلمون للقائهم . فلما علمت أن التتار لابد لهم من الديار المصرية ، بعثت علاما لى فى صفة جاسوس ، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز ، والأمير بيبرس البندقدارى ، ولبان الرشيدى ، وسقر الرومى ، ويعرندهم أن التتار لاشئ ، فلا تخافوا منهم ، وإن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيل والرجال ، وعرفهم بأن انتتار فى عسكر قليل ، وأوصيته ان يوصى المسلمين أن يكون المنتقى عند طلوع الشمس ، فلما وصل غلامى إلى عسكر المسلمين وجدتهم خائفين من التتار خوفا عظيما ، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم ، وعرفهم ما أوصيتهم به وكنت قلت فى جملة كلامى : قل للأمراء لا تخافوا ، هاأنا وأصحابى والملك

الأشرف هزم بين أيديهم ، وانه وكذلك كان ، فلما سمع
الأمراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض : لا يكن هذا معمولية على
المسلمين .

فلما كان ملتقى الجمعين على عين جالوت ، طلعت الشمس
عائنا ، وظللت عساكر الإسلام . وكان أول منجق سبق ، أحمر وأبيض
، وكانوا لا يسى العدد المليحة . وأشرقت الشمس على تلك العدد
فطلبنى كتبنا وقد بهت هو والتتار الذين معه من كثرة تلك العساكر
وحسن ما عليهم ، وجمالهم وهم منحدرون من الجبل . فطلبنى كتبنا
ونال لى : يا صارم ، هذا رنك ^(١) من ؟ قلت : سقر الرومى . ثم ظهرت
سناجق صفراء . قال : هذا رنك من ؟ قلت : بلبان الرشيدى . ثم تتابعت
الأطلاب أولا غاولا ، وانحدروا من سفح الجبل . ودقت الكوسات ^(٢)
والطيلحانات ، وامتأل الوادى والبر من العياض ، وعابت الفلاحين وأهل
القرى والبلدان من كل جانب . وكنت غرا بمعرفة ربوك المسلمين ،
فصار كتبنا يسألنى : هذا رنك من ؟ فصرت أى شىء طلع على لسانى
قلته .

ثم أن التتار انحاروا إلى الجبل ، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية
بأهلها إليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد خبر إلى هلاوون
، ولكن قتل الجميع ، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيما بدمشق أو

(١) سبق أن اشرنا إلى أن كلمة رنك معناها شعار فيه رسوم تدل على الوظيفة التى يشغلها
صاحب هذا الشعار ، وكان من عادة كل أمير مملوكى كبير أو صغير أن يكون له رنك
يخصه ويسمى كانت ربوك المسلمين من الشرق تدل على الوظائف ، اذا بها فى أوروبا
العصور الوسطى ترمز للأسرة الأقطاعية . فكل أسرة لها شعار خاص تتميز به عن غيرها .

(٢) الكوسات آلات نحاسية مثل الصاجات .

حلب . انتهى ما ذكره قرطاي ^(١) .

ضميمة رقم (٣)

رسالة السلطان قطز إلى ملك اليمن يخبره بهزيمة التتار

قال القلقشندي : ^(٢)

وهذه نسخة كتاب ، كتب بها عن الملك المظفر قطز - إلى صاحب اليمن يومئذ المنصور ^(٣) - بالبشارة بهزيمة التتار . وأظنها من انشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ^(٤) ، وهي : أعز الله تعالى أنصار الممزر الشريف العلي ، المولوي ، السلطان ، الملكي المنصوري ، وأعلا مناره ، وضاعف اقتدره ، فعلمته أنه لما كان النصف من شهر رجب ^(٥) ، فتح الله بنصر المسلمين على أعداء المسلمين .

..... أما النصر الذي شهد الضرب بصحته ، والطمع بتصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى ، استطالوا على الأيام ، وحاضوا

(١) يلاحظ أن هذا النص فضلا عن الحيوية التي يشتمل عليها ، والاشارة القيمة التي يتضمنها فإن له أهمية خاصة للتاريخ السياسي والحضاري على السواء وقد بالغ صادم الدين أربك في الدور الذي قام به خلال أحداث تلك الفترة ، ولكن يبدو أنه لم ينبر من جرير الحفاظ التاريخية .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(٣) لعله الملك المنصور نور الدين عمر بن علي سلطان الدولة الرسولية باليمن .

(٤) صاحب ديوان الانشاء أيام قطز ويبرس وقلايون والأشرف خليل وتوفي سنة ١٢٩٢ م . وله كتاب تشريف الأيام والمنصور في سيرة المنصور تحقيق مراد كامل (القاهرة ١٩٦١) .

(٥) هذا التاريخ يعارض مع ما ورد في المراجع العربية الأخرى من أن الواقعة عين جالوت حدثت يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ - ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م .

بلاد الشام ، واستجدوا بقائلهم على الاسلام .

سمى الطمع المردى بهم لحتوهم ومن بمسكن ذيل المطامع يعطب
فأقلعت بهم طرائق الصلال ، وسارت مراكب أمانيتهم فى بحار
الآمال ، فتلك آمال خائفة ، ومراكب للطنون عاطفة . . . هذا وعساكر
المسلمين مستوطنة فى مواطنها ، حادبة عقباها فى وكور ظباها ، رابضة
آسادهما فى غيل أفتاها ، ما تزلزل المؤمن قدم الا وقدم ايمانه راسخه ، ولا
ثبت لأحد حجة الا وكانت الحمعة ناسخة ، ولا عقدت برجمة ناقوس
الا وحلها الأذان ، ولا نطق كتاب الا وأحرسه القرآن .

ولم تزل أخبار المسلمين تستقل الى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل
الى المسلمين ، الى أن خلط الصباغ فضته بذهب الأصيل ، وصار
اليوم كأمس ، وسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الأعين
بمرود السات ، وحاف كل من المسلمين أصدار البيات .

ينام باحدى مقتلته ويتقى بأخرى الأعادى ، فهو يقظان نائم
أنى أن تراءت العين بالعين ، واضطرم نار الحرب بين الفريقين فلم
تر الاضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلوا ،
حتى صارت المفاز دلاصا ، ومرا تع الظبا للظبا عراصا ، واقتضت آساد
المسلمين المشركين اقتناصا ، ورأى المحرمون النار فظنوا أنهم واقعوها ولم
يجدوا عنها مناصا ، فلا روضة إلا درع ، ولا جدول إلا حسام ، ولا
غمامة إلا نقع ، ولا ويل إلا سهام ، ولا مدام إلا دماء ، ولا نغم إلا

صهيل ، ولا معر يد الا قاتل ، ولا سكران الا قتيل ، حتى صار كافور
الدين شقيقا ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقا ، وضرب النقع في
السماء طريقا ، وازدحمت الجباب في القصاص فجعلت مضيقا ، وقتل من
المشركين كل جبار عنيد ، ذلك ما قدمت أيديهم ، وما ربك بظلام
للعبيد .

وقلت : ^(١) وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه
وجدتها في بعض المجامع فحفظتها منه ، وهي في غاية من البلاغة ، الا
أنها لا تخلو من تغيير وقع في بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ،
من حيث أنه ليس من أهل هذه الصناعة ، ولم يسعى ترك إيرادها لما
فيها من المحاسن ، ولا نفرادها بأسلوب من الأساليب التي كتب بها إلى
ملوك اليمن ، فأوردتها على ما هي عليه ، وجزى الله حيرا من طفر
لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها .

(١) هنا كلام الفلقشندي معلقا على الرسالة .

بعض المصادر الهامة في تاريخ الأيوبيين والمماليك

(١) ابو على محيى الدين اللخمي المعروف بالقاضى الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) .

ولد بعسقلان وشأ في مصر وعمل في ديوان الأنشاء بالقاهرة
أواخر الدولة الفاطمية وبعد سقوط هذه الدولة عمل كاتباً لشيركوه ثم
لصلاح الدين . وقد أخلص القاضى الفاضل في تعليم صلاح الدين
أسرار الحكم وقواعده العسكرية والإدارية والمالية ، فلم يلبث صلاح الدين
أن جعله وزيره ومشأه الأول ، وصار لا يستطيع الاستعناء عن مشورته ونصائحه .

وقد دون انقاضى الفاضل مشاهداته كلها على شكل رسائل مرتبة
على الأيام ، فهي أشبه بحريدة رسمية يومية لديوان الأنشاء . وهي تشتمل
على المراسلات التى دارت بين صلاح الدين وبين ملوك الصليبيين وأمراء
المسلمين ، وهي كلها من انشاء القاضى الفاضل

وهذه الرسائل للأسف لم تجمع في كتاب واحد بل هي مفرقة في
كتب المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل أبى شامة في كتاب الروضتين
والقلقشندي في صبح الأغشى .

(٢) عماد الدين محمد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ)

يلقب بالكاتب لأنه عمل كاتباً لور الدين ثم لصلاح الدين بعد
ذلك . وكان العماد يصحب صلاح الدين في كل تنقلاته فكان مؤرخاً
حرياً نقل لنا في كتبه العديد أخبار حروب صلاح الدين وانتصاراته .

يحكى أن العماد قابل يوماً القاضى الفاضل وهو على فرسه فقل له :
سز فلا كبابك الفرس فرد عليه القاضى الفاضل : دام علا العماد . وكل

منهما يقرأ مقلوبا وصحيحا ومن أهم كتب العماد الأصفهاني :

١ - البرق الشامي : يتحدث فيه عما وقع له أثناء خدمته لتور الدين وصلاح الدين كما يتحدث عن فتوحات هذين البطليين في الشام ، وهذا الكتاب لا يزال مخطوطا .

٢ - الفتح القسي في الفتح القدسي : اقتصر فيه على فتح صلاح الدين لبيت المقدس وصراعه مع الحملة الصليبية الثالثة . طبع في القاهرة ١٢٢١ هـ .

٣ - خريدة القصر وجريدة العصر - القسم الأول عن شعراء مصر - يتكلم فيه عن شعراء عصره ولكنه في نفس الوقت بصور أعمال صلاح الدين وحروبه فهو مصدر تاريخي أدبي . نشر هذا القسم في القاهرة في جزيين (١٩٥١ - ١٩٥٢ م) نشره أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس .

٤ - دولة آل سلجوق : وهو تاريخ عام للسلاجقة وأتابكياتهم . نشر هذا الكتاب في القاهرة ١٩٠٠ م .

(٣) اسامة بن مقذ (ت ٥٨٣ هـ) ١١٨٧ م .

أحد أمراء بني مقذ أمراء قلعة شيزر على نهر العاصي في شمال الشام ومازال هذا المكان يعرف الى اليوم باسم سيجر على بعد خمسة عشر ميلا شمالي حماه على الضفة الغربية لنهر العاصي . لم يستطع الصليبيون الاستيلاء على قلعة شيزر لحصانتها والتفاف نهر العاصي حولها . ولهذا استطاع أسامة بحكم جواره للصليبيين أن يكون شاهد عيان لكثير من الحوادث التي جرت في تلك المنطقة . هذا فضلا عن أنه طاف بمعظم العواصم الاسلامية بالشرق العربي كما زار فلسطين أيام أن

كانت خاصة للصليبيين واتصل ببعض ملوكهم وكانت له معهم نوادر ومشاكل وصداقات . وقد دون كل مشاهداته أو مذكراته عن هذه البلاد في كتابه الذي أسماه « كتاب الاعتبار » وهو يعتبر وثيقة تاريخية هامة عن فترة الحرب الصليبية في تلك الأونة سواء من ناحية الجانب الاسلامي أو الجانب المسيحي فضلا عن أنه يتضمن صورا مقارنة بين عادات المسلمين والمريجة شاهدها وعائنها أسامة بنفسه ولقد كان أسامة موضع اطراء معاصريه فسماء الذهبي بأحد أبطال الاسلام ، ووصفه ابن الأثير بأنه كان في غاية الشجاعة، أما العماد الاصفهاني فقد مدح شاعريته وأدبه في كتابه خريدة القصر كذلك أشار أبو شامة الى أن صلاح الدين كان يحتفظ بديوان شعر لأسامة وأنه كان معجبا بشعره ، وتوفي أسامة سنة ٥٨٣ هـ بدمشق في نفس السنة التي استرجع فيها صلاح الدين بيت الفسند عن من تناهز المسلمين وقد ترك عنه كتب أهمها كتاب الاعتبار الذي نشره أولا المستشرق الالماني دريبورغ ثم أعاد نشره فيليب حتى بعد تصحيح أخطاء كثيرة ثم ترجمه الى الانجليزية الى جانب ترجمة دريبورغ الالمانية وشومان الفرنسية .

ولعل أسامة كان يقصد من عنوان كتابه « الاعتبار » أن يعتبر القارئ بما حل بغيره وأن ركوب المخاطر لا يقدم ولا يؤخر الأجل المكتوب .

(٤) الرحالة الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٣ هـ) ١٢١٧ م محمد بن احمد

زار الشام في أواخر القرن السادس الهجري (١٢ م) ووصف رحلته

فى كتابه المسمى « تذكرة بالأخبار عن اتفاقيات الأسفار » وقد نشر عدة مرات تحت اسم رحلة ابن جبير ومن أهم ما ورد فيه وصف التعاون الزراعى والتجارى والصناعى بين المسلمين والصليبيين فى الامارات الصليبية وذلك لأن الصليبيين أدركوا بأن استمرار بقائهم فى اماراتهم يتوقف على التعاون والاندماج مع أهالى المنطقة والذويان فيها ، وقد مات ابن جبير فى الاسكندرية ودفن بها ويقال إنه مقام سيدى جابر حاليا وأن العامة حرفت اسمه .

(٥) بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ هـ ١٢٣٤م :

عاصر صلاح الدين الأيوبي وكتب عنه كتابا يتناول سيرته بعنوان : « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » . نشره أول مرة شولتز سنة ١٧٥٥م ثم أعيد نشره فى القاهرة سنة ١٣١٧هـ ثم نشرة أحيرا سنة ١٩٦٤ المرحوم جمال الدين الشيال . كذلك ترجم كوندر هذا الكتاب الى الانجليزية سنة ١٨٩٧ .

ويبنى أن نفرق بين بهاء الدين بن شداد وبين سميه عز الدين محمد بن شداد الذى عاش بعده بخمسين سنة وفى نفس مدينة حلب وتوفى بها سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥ . وقد ألف هو الآخر كتابا عن سيرة سلطانه فى ذلك الوقت هو الظاهر يبرس بعنوان « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » .

(٦) كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، لجمال الدين بن واصل الحموى المتوفى عام ٦٨٧ هـ ١٢٩٧م .

أهمية هذا الكتاب أن مؤلفه عاش فى مصر وعاصر سقوط الدولة

الأيوبية وقيام دولة المماليك في مصر فروايته لحوادث هذه الفترة لها قيمتها بحكم كونه شاهد عيان لها ، ولقد نشر الدكتور جمال الدين الشيال الجزء الأول والثاني والثالث من هذا الكتاب وتناول أخبار الأيوبيين حتى نهاية عصر صلاح الدين الأيوبي أما الجزء الأخير من هذا الكتاب ويشمل الجزئين الرابع والخامس فقام بنشرها د . ربيع حسنين ، د . سعيد عاشور . .

(٧) شهاب الدين أبوشامة الدمشقي ، المتوفى في عام ٦٦٥ هـ ١٢٦٨ م .

هذا المؤرخ كان معاصرا لابن واصل وكان مقيما بالشام ولذا اهتم بصفة خاصة بأخبار الشام . ولما كانت الشام ومصر تكونان دولة واحدة أيام الأيوبيين والمماليك ، فإن أحداث الشام ارتبطت ارتباطا وثيقا بأحداث مصر وهذا يفسر لنا أهمية مؤلفات أبي شامة ، ولقد كتب هذا المؤرخ كتابين :

أ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية) . ويقع في جزأين ويتناول تاريخ دولة نور الدين محمود زنكي ودولة صلاح الدين الأيوبي (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

ب - كتاب الذيل على الروضتين : يتناول فترة الانتقال بين الأيوبيين والمماليك وقد نشره عزت العطار الحسيني بعنوان تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري (القاهرة ١٩٤٧) .

(٨) الملك المؤيد أبو الفدا : كتاب المختصر في أخبار البشر (أربعة أجزاء في مجلدين) :

مؤلف هذا الكتاب أمير من ملالة الأيوبيين ، وصاحب مدينة حماة أيام السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون . وكانت تربطه بهذا السلطان صداقة متينة وكثيرا ما خرج معه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج . وكان السلطان الناصر لا يناديه إلا بأخي ، وقد استطاع أبو الفداء بحكم مركزه ونفوذه أن يطلع على الوثائق والكتب الهامة وأن يكتب لنا تاريخا صحيحا على جانب كبير من الأهمية وهو كتاب المختصر في أخبار البشر ، وتوفي أبو الفداء في عام ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م .

هناك كتب عامة على شكل موسوعات تاريخية تناولت تاريخ مصر الإسلامية ، وكتبها مؤرخون مصريون عاشوا في القرنين الثامن والتاسع القرن التاسع الهجري فهم متأخرون نسبيا إلا أن كتبهم على جانب عظيم من الأهمية لأنها حفظت لنا تراث ومجهودات المؤرخين المعاصرين الذين صاغت كتبهم على مر السنين ولم تصل إلينا .

ومن أهم هؤلاء المؤرخين الذين أروا للحصر المملوكي ذكر المؤرخ المصري :

(٩) تقي الدين أحمد المقريري المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤٢ م أي في العصر المملوكي الثاني :

يعتبر بحق شيخ للمؤرخين المصريين في العصور الوسطى ، ويكفي أن نشير إلى أنه قد تتلمذ على يد فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة المشهورة والمقريري مؤرخ مصري قاهرى ، ولد بالقاهرة وتوفي بها ، أما لفظ المقريري فينسب إلى حارة لمقارره بمدينة بعلبك حيث كانت أسرته من قبل ثم انتقلت إلى مصر في حياة أبيه .

المقريري ألف كتباً كثيرة في تاريخ مصر الإسلامى ، يهمنا منها في

دراسة عصر الماليك :

أ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : ويتناول تاريخ مصر الأموية والمملوكي حتى عام ٨٤٤ هـ . وقد نشر منه المرحوم محمد مصطفى زياده الجزأين الأول والثاني الذي ينتهي بعصر الناصر محمد ابن قلاوون أي حتى عام ٧٤١ هـ ثم تشرده . سعيد عاشور الجزأين الثالث والرابع .

ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : ويعرف بالخطط على سبيل الاختصار ، وهذا الكتاب يعطينا فكرة واضحة عن حضارة الماليك وآثارهم في مصر كما يصور لنا المجتمع المصري في أيامهم . والكتاب يقع في جزئين من طعة بولاق بالقاهرة كما توجد طعة أخرى لمطبعة النيل في أربعة أجزاء ، والأولى أدق .

هذا وقد ترجم المستشرقون أجزاء كثيرة منه لأهميته كما اعتمد عليه على باشا مبارك في القرن الماضي في موسوعته المعروفة بالخطط التوفيقية في مصر والقاهرة .

ج - اغاثة الأمة بكشف الغمة : يستقصى فيه المقرئ في الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية مفسرا بها الأحداث التاريخية التي حلت بمصر ولا شك أن المقرئ في هذا الاتجاه قد تأثر بطريقة أستاذه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته .

نشر كتاب الاغاثة الدكتور محمد مصطفى زياده والدكتور جمال الدين الشيال بوقدم له الدكتور حسين فهمي بمقدمة اقتصادية هامة .

د - البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب : كتاب صغير به إشارة إلى ثورة الأعراب التي قامت بمصر أيام السلطان أيلك نشر محمد عابدين .

(١٠) أبو المحاسن بن تغرى بردى : المتوفى سنة ٨٧٤ هـ ١٤٦٥ م .

وهو من تلاميذ المقرئى ، وقد كتب موسوعة عامة فى تاريخ مصر
السياسى فى العصور الوسطى من الفتح لاسلامى حتى العصر الذى
عاش فيه وهو : كتاب السجود الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ،
ويهمنا منه الأجزاء ٩٠٨٧ ويمتاز هذا الكتاب بحسن العرض
والتبويب ، أفرد المؤرخ لكل سلطان مملوكى ترجمة مستقلة خاصة
به وفى نهاية كل ترجمة بعرض لنا الأحداث التى مرت بالعالم
الاسلامى فى عهد صاحب الترجمة مرتبة على طريقة السنوات
ولأبى المحاسن كتاب آخر لا يزال مخطوطا بدار الكتب وعنوانه :
المنهل العافى والمستوفى بعد الوافى : وهذا الكتاب مهم جدا لأن
المؤلف أورد أحداثا لم ترد فى كتابه السجود الزاهرة كما صحح فيه
بعض الأخطاء التى وقع فيها فى كتابه السالف الذكر .

(١) حلال الدين السيوطى : عاش فى أواخر عصر المماليك وتوفى ٩١١
هـ / ١٥٠٥ م وله كتابان مهمان فى دراسة العترة التى نحن
بصددها :

أ - كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (جريان فى مجلد)

ب - تاريخ الحلفاء أمراء المؤمنين (من القرن الأول الهجرى الى عهد
السلطان الأشرف قايتباى ٩٠١ هـ) .

(١٢) ابن اياس المصرى : عاش كذلك فى نهاية الدولة المملوكية وعاصر
سقوطها على يد العثمانيين وتوفى فى عام ٩٣٠ هـ ١٥٢٣ م وقد
كتب تاريخا عاما لمصر حتى أيامه وهو . بدائع الزهور فى وقائع الدهور
(٣ أجزاء) .

(١٣) القلقشندى : احد من على (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) مؤرخ
مصرى من بلدة قلقشندة من أعمال محافظة القليوبية وصع
موسوعة تاريخية أدبية اسمها : صبح الأعشى فى صناعة الاشيا وتقع

فى ١٤ جزء . يهمننا منها الجزء الرابع الذى يتضمن الكلام عن نظم الحكم المختلفة فى الدولة المملوكية مثل الجيش والبريد والقضاء والزى والملابس والمواسم والأعياد والمواكب . . . الخ . وقد اعتمد عليه المستشرقون لأهميته بذكر منهم على سبيل المثال :

Gaudefroy Demombynes : La Syrie a L'Epoque des mamelouks.

(١٤) مفضل بن أبى القضايل : (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) .

النهج السديد وترجمه إلى الفرنسيه مع مقدمة دراسية بلوشى E. Blochet (باريس ١٩١٢) .

(١٥) ابن الفوطى : كمال الدين عبد الرزاق احمد النيبانى (ت ٧٢٣ هـ / ١٢٢٣ م) .

الحوادث الجامعة والتجارب السافعة فى المائة السابعة (بغداد ١٣٥١ هـ) .

(١٦) ابن مطرطة : محمد عبد الله اللواتى الطنجى (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)

تحفة النظار فى عرائب الامصار وعجائب الأسفار ، ٤ أجزاء ،

تحقيق وترجمة دفرىمى (وماجنوسى) (باريس ١٩٢٢)

(١٧) الخرجى : على بن جسى (القرن الثامن الهجرى)

الحقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية باليمن . جزئان (مجموعة جب الجزء الثالث)

(١٨) ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م)

الطريق الواضح للسلوك فى معرفة تراجم الحلفاء والملوك ٩٠ أجزاء

حقق معظمة فسطنطين زريق وآخرون (بيروت ١٩٣٩) .

(١٩) النويرى : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) .

نهاية الأرب فى فنون الأدب . ١٨ جزء (القاهرة ١٩٢٣ - ١٩٣١) .

(٢٠) النويرى : محمد بن قاسم بن محمد النويرى الاسكندراني (ت

٧٧٥ هـ / ١٣٧٢ م)

الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية

٧ أجزاء تحقيق عزيز سورىال عطية واثبين كومب (المطبعة

العثمانية بحيدر أبار الدكن بالهند ١٩٦٨ - ١٩٧٦ م)

مراجع حديثة

أحمد مختار العبادى :

* قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام (بيروت ١٩٦٩)

* الصقالية فى أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعبية (مدريد ١٩٥٣) .

* دراسة حول كتاب البارود والأسلحة النارية للنافذ أيلون (هسبريس ١٩٥٩) .

* تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام بالأشتراك مع عبد العزيز سائم (بيروت ١٩٧٢) .

أرشيالد : لويس

* القوى البحرية والبحارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة محمد ميسى) .

البازالعريشى :

* مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠)

جمال الشيال :

* تاريخ مصر الاسلامية . جزءان .

جوزيف نسيم :

* لويس التاسع فى الشرق الأوسط (القاهرة ١٩٥٩) .

* العدوان الصليبي على مصر (الاسكندرية فى ١٩٦٨) .

حسن حبشى :

* نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨) .

* الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧) .

حسن السدوي : .

* ابو العباس المرسى ومسحده الجامع بالاسكندرية (القاهرة

١٩٤٤) .

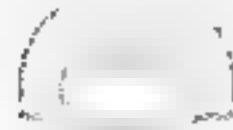
حسين ربيع :

* الظلم المالية فى مصر زمن الأيوبيين .

جمال سرور :

* عصر الظاهر بيبرس (القاهرة ١٩٣٨)

* دولة بنى قلاوون (القاهرة ١٩٤٧)



دراج أحمد :

* المماليك والفرغ فى القرن الخامس عشر الميلادى .

رتريتين :

* تاريخ سلاطين المماليك (ليدن ١٩١٩) .

سعاد ماهر :

* البحرية فى مصر الاسلامية .

سرهنتك ياشا :

* حقائق الأخبار عن دولة البحار ، جزءان .

سعيد عبد الفتاح عاشور :

* الحركة الصليبية ، جزءان .

* مصر فى عصر دولة المماليك .

• العصر المالكي في مصر والشام .

• قبرص والحرب الصليبية .

طرخسان : ابراهيم :

• مصر في عصر دولة للمالك الجراكسة (القاهرة ١٩٥٩) .

عبد الرحمن زكي :

• معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية .

• القلاع والحروب الصليبية .

• موسوعة مدينة القاهرة .

عبد العزيز سالم :

• تاريخ الاسكندرية في العصر الاسلامي (١٩٦٨) .

• طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي (١٩٦٧) .

عبد المنعم ماجد :

• نظم دولة سلاطين الماليك ورسومهم في مصر (القاهرة

١٩٦٤) .

• الناصر صلاح الدين الأيوبي (القاهرة ١٩٠٨) .

عمر كمال توفيق :

• مملكة بيت المقدس الصليبية (الاسكندرية ١٩٥٨) .

على ابراهيم حسن :

• دراسات في تاريخ الماليك البحرية (القاهرة ١٩٤٢) .

فؤاد عبد المعطي الصياد :

• مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني (القاهرة ١٩٦٧) .

محمد حمدي المناوي :

نهر النيل في المكتبة العربية .

محمد رمزي :

• القاموس الجغرافي للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٢) .

محمد مصطفى زياده :

• الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب
كفاحنا ضد الغزاة) .

• المصريون في قبرص (من رسائل وزارة الدفاع الوطني) .

• بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك في مصر
(مجلة كلية آداب القاهرة ١٩٣٦)

• نهاية سلاطين المماليك (مجلة الجمعية التاريخية المصرية
١٩٥١)

محمد رزق سليم :

• سلاطين المماليك (٣ أجزاء) .

محمود سعيد عمران :

• الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برسي على مصر)
(الإسكندرية ١٩٧٨)

مصطفى مسعد :

• الاسلام والنوبة في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٠) .

مراجع أوروبية

Blochet :E

Histoire des Sultans mamlouks (Paris 1912) .

- Cambride medieval History, Vols IV,VI .

Creswell :

The Works of Sultan Bihars in Egypt .

Bullet in de l' Institut Francaise d'archeolgoie tome 26
fasc.3 .

- Grousset :

Histoire des Croisades, 3 Tomes (Paris 1936).

- Heyd

Histoire du commerce du Levant au moyen age , 2 Vols
(Leipzig 1889).

- Howorth :Henry History of the Mongols, Vols I, III.
(London 1880).

- Joinville Jean . Histoire de Saint Louis (Paris 1874) .

- King · E :The Knights Hospitallers in the Holy Land
(London 1931)

- Lane Poole:History of Egypt in the Middle ages (London
1925).

- Runc iman : A History of the Crusades 3 vols (London
1958)

ترجمة المرحوم الباز العريتي تحت عنوان « تاريخ الحروب الصليبية » في ٢ أجزاء (بيروت
١٩٦٩)

- Wiet : Gaston . Histoire de la nation Egyptienne t. IV
[Paris, 1926)

Precis de l'Histoire d'Egypte, t. II (Le Caire 1322).



الهند في عصر دولة سلاطين المماليك بدلهي



العام وآسيا الصغرى والمرتقى في عصر دولة المماليك

فهرس الموضوعات

٣ مقدمة

الفصل الأول

الممالك الأتراك والصقالبة فى المجتمع الإسلامى

٦ الممالك الأتراك فى المشرق الإسلامى

١٩ الممالك الصقالبة فى المغرب الإسلامى

الفصل الثانى

الممالك فى مصر منذ الدولة الطولونية حتى نهاية الدولة الأيوبية

(٢٤٥ - ٥٦٤ هـ / ٨٦٨ - ١١٩٢ م)

٢٧ ممالك الطولونيين والإخشيديين

٢٩ ممالك الدولة الفاطمية

٣٤ ممالك السلاجقة وبداية الدولة الأيوبية

الفصل الثالث

الدولة الأيوبية وممالكها

الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبي

٤٥ (٥٦٤ - ٥٨٩ هـ / ١١٦٩ - ١١٩٣ م)

٤٦ - الاستعداد الحربى

٥٣ - موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م

٥٨ - الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م

٦٧ - صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م

٦٩ - طوائف الممالك الأسدية والصلاحية والعدلية

العادل سيف الدين الأيوبي (٩٦٠ هـ - ٦١٥ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٨ م)

٧٢ - حوادث الخلف والمنازعات بين أبناء البيت الأيوبي

٧٣ - العادل يوحد الدولة الأيوبية ويستأثر بالسلطة

٧٤ - تحصين ثغور الدولة

الكامل محمد بن العادل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م)

الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة جلال الدين ملك بيت

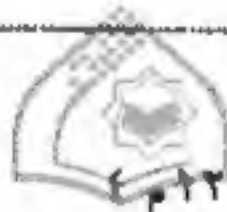
٧٥ - المقدس

٧٨ - هزيمة الحملة وانسحابها من دمياط سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م

٧٩ - حملة الامبراطور الألماني فردريك الثاني السلعية على بيت المقدس

النجدة العسكرية المصرية إلى بغداد ضد التار بناء على طلب الخليفة

٨٠ - المستنصر



الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل

(٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م)

٨٢ - المماليك البحرية الصالحية النجمية

الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع

٨٨ - (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م)

٩٧ - فشل الحملة وأسر ملكها

٩٨ - مقتل تورانشاه بن الصالح أيوب ونهاية الدولة الأيوبية

١٠٠ - بعض المظاهر الحضارية في الدولة الأيوبية

الفصل الرابع

انتقال السلطنة إلى المماليك البحرية الصالحية

١١٤ - إقامة شجر الدر سلطنة على مصر

١٢٠ - تنازلها عن العرش لزوجها المعز أيك التركماني

١٢١ - المشاكل التي واجهت السلطان الجديد

١٣٣ - مقتل أيك وشجر الدر

الفصل الخامس

خطر المغول أو التتار على الدولة المملوكية

- ١٣٧ - اجتياح المغول للمشرق الإسلامي
- ١٣٩ - سقوط بغداد ونتائج ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م
- ١٤٢ - اعتلاء المظفر سيف الدين قطز عرش مصر
- ١٤٣ - غزو التتار للشام واعتراف الأيوبيين بسلطانهم
- واقعة عين جالوت وانتصار المسلمين بزعامة قطز على التتار
- ١٥١ - ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م
- ١٥٥ - مصرع قطز وتولية الظاهر بيبرس عرش مصر والشام

الفصل السادس

تدعيم أركان الدولة المملوكية في مصر والشام

- ١٦٥ - الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م)
- ١٦٦ - القضاء على الثورات الداخلية
- ١٦٨ - احياء الخلافة العباسية في القاهرة
- ١٨٧ - التخلص من العناصر الأيوبية المناوئة
- ١٨٩ - محالفات بيبرس مع الدول الأوربية والأسبوية
- ١٩٣ - تحصين أطراف الدولة وثغورها والعناية بالبريد
- ٢٠٠ - تقوية الأسطول والجيش
- ٢٠٧ - مكافحة الخطر الصليبي
- ١٢٣ - حروبه ضد مغول فارس ومخالفه مع مغول القفجاق
- ٢٢٩ - لبناء الظاهر بيبرس

الفصل السابع

دولة بني قلاوون في مصر والشام

المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م)

- ٢٣٥ انتصاره على مغول فارس في وقعة حمص سنة ١٢٨١ م
- ٢٣٨ حروبه مع الصليبيين واستيلاؤه على المرقب واللاذقية وطرابلس
- ٢٤٠ سياسته الداخلية

الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م)

- استيلاؤه على عكا آخر معقل للصليبيين
- ٢٤٥ في الشام سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م

الناصر محمد بن قلاوون

(٦٩٣ - ٧٤١ هـ / ١٢٩٣ - ١٣٤٠ م) ولي ثلاث مرات :

- سلطنة الناصر محمد الأولى
- ٢٥٠ (٦٩٣ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤ م)

العزل الأول للناصر على يد حكام الدين لاجين

- سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٨ - ١٣٠٩ م) ٢٥١

العزل الثاني للناصر على يد بيبرس الجاشنكير وسلاار

- سلطنة الناصر محمد الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) ٢٥٢

انتصار الناصر على مغول فارس في مرج الصفر

- (رمضان ٧٠٢ هـ / ١٣٠٣ م) ٢٥٤

- إبرام صلح نهائي مع مغول فارس ٢٥٤

- طرد الصليبيين من جزيرة أرواد على ساحل الشام ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م ٢٥٥

- سياسة الناصر محمد الخارجية ٢٥٦

- سياسته وأعماله الداخلية ٢٥٩

دولة المماليك الأولى بعد وفاة الناصر محمد حتى نهايتها سنة

- ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ٢٦١

- ٢٦٣ الوثائق المحفوظة في المتحف المصري - غارة بطرس لوزجنان ملك قبرص على الإسكندرية سنة ١٣٦٥/٧٦٧م ٢٦٤
- ٢٦٥ الظاهر برقوق وتأسيس دولة المماليك الثانية المعروفة بالبرجية أو الشراكسة ٢٦٦
- الضمائم:
- ١ - خطاب التهديد الذي أرسله هو لأكو إلى قطز قبيل موقعة عين جالوت ٢٦٧
- ٢ - رواية صادم الدين أزهك بن عبد الله الأنرقي في وصف التتار وعاداتهم وموقعة عين جالوت ٢٦٨
- ٣ - رسالة السلطان قطز إلى ملك اليمن يشره بهزيمة التتار ٢٨٢
- قوائم المصادر والمراجع ٢٨٥
- بعض الخرائط التوضيحية ٢٩٧
- فهرس الموضوعات ٣٠١